

جواهر التفسير

أنوار من بيان التنزيل

تأليف

سماحة الشيخ احمد بن حمد الخليلي

الجزء الأول

١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م



جواهر التفسير

أنوار من بيان التنزيل

تأليف

سماحة الشيخ احمد بن حمد الخليلي

الجزء الأول

الطبعة الأولى ١٤٠٤هـ ـ ١٩٨٤م

الناشر: مكتبة الاستقامة ص.ب: ٤٨٨١ روى سلطنة عمان

ملاحظة : يرجى مراجعة تصويب الأخطاء في نهاية الكتاب
قبل البدء في قراءته

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمـــة

الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجا ، وجعله إلى كل خير منهجا ومن كل شر مخرجا ، أنزله كتابا معجزاً بيانه ، شاملا تبيانه ، ساطعا برهانه ، لايرقى إلى شأوه كلام البشر ، ولا تحيط بأسراره العقول والفكر ، تتجلىٰ في كل ظرف أسراره ، وتسطع في كل أفق أنواره ، أحمده حمد المستزيد من إفضاله ، الراجي لمثوبته ، المشفق من عقوبته ، وأشهد أن لا إلٓه إلا الله وحده لاشريك له وسع كل شيء علما وأوسع كل حادث حكما ، وأشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله ، جمعت رسالته ماتفرق في الرسالات وخلدت معجزته دون سائر المعجزات ، صلى الله عليه وسلم وعلى آله وصحبه الذين كانوا هداة البشرية ، ومحاة الأمية ، وأساتذة العالم وبناة التاريخ.

أما بعـد:

فإن شرف الإنسان بتشريف الله له، وتفضيله إياه على غيره من الكائنات الموجودة في الأرض، وبما أودع فيه من الملكات والطاقات التي تؤهله للخلافة في الأرض والسيادة في الكون ، ومن المعلوم أن تكوين الإنسان تكوين عجيب، فهو يجمع بين الروح والجسم والعقل والقلب والضمير والغريزة ، ولكل منها طبعه وخصائصه وضروراته ومطالبه ، فضلًا عن كَون أفراد الجنس الإنساني متشابكة مصالحهم، متداخلة معاملاتهم ، وهذا كله يستوجب أن تسيطر على حياة النوع الإنساني قوة تنظم العلاقة بين جوانب الإنسان المتنوعة في نفسه والمصالح المختلفة المشتركة بين بني جنسه ، وليست هنالك قوة ترشح لهذه المهمة أعظم من العقيدة السماوية التي ينبثق منها

المنهج السليم لسلوك الإنسان في حياته ، لأجل ذلك أرسل الله رسله مبشرين ومنذرين وأنزل معهم الكتاب بالحق ﴿لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَى مَنْ حَيَّ عن بَيِّنَةٍ﴾(الأنفال/٤٢) وقد توالت مواكب جميع المرسلين حاملة إلى الخلق هداية الحق مشتملة ــ بجانب قضايا العقيدة ــ على حلول للمشاكل الخاصة التي تنوء بأثقالها المجتمعات التي تنزلت فيها تلك الرسالات سواء أكانت مشاكل اجتماعية أم خُلقية أم غيرها ، ولكن شعاع تلك الرسالات ماكان يمتد لأكثر من أجيال محصورة ولا يتعدىٰ أحياناً شعوباً معينة،وأقاليم محدودة، لأنّها كانت موقوتة،ولم يرد لها الخلود.

وعندمَا أراد الله إسباغ نعمته على خلقه أرسل محمدا ﷺ برسالة خالدة تشتمل على كل ماتحتاج إليه الإنسانية من تنظيم لحياتهاوحلول لمشاكلها ، كما تشتمل على كل ما تتشوق إليه نفس الإنسان من تبيان حقائق غيبية ترتبط مصالح الناس بمعرفتها واعتقادها. ولخلود هذه الرسالة العظمى فقد جمعت في ظل بنائها المتين الواسع بين فئات البشر من غير تفرقة بين عربي وأعجمي، ولا بين أبيض وأسود، ولا بين قريب وبعيد، ولا بين قوي ومستضعف ، ولن نستطيع أن نقدر هذه الرسالة حق قدرها، ونكتنه عظمتها وشأنها إلا أذا استوحينا ذلك من إعلان الحق تعالى لمقام المرسل بها فقد قال عز وجل ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ﴾(الأنبياء/١٠٧) وهنا لا يملكه العقل إلا أن يقف وقفة الخشوع والتسليم أمام البيان الرباني عن عظمة الرسالة المتمثلة في عظمة الرسُول ، فقد بين-تعالى-أنّ الرحمة التي تجسدت في هذه الرسالة لم تكن مقصورة على البشر، ولا على الأرض وسكانها، وإنما هي شاملة للعالمين ، والعالمون جمع عالم والعالم كل ما كان علامة ودليلا على وجود الحق تعالى. وهذا يعني أن كل ذرة في هذا الكون مغمورة بهذه الرحمة، مشمولة بهذه النعماء ، ولكن الهدف الأساسي بهذه الرسالة إصلاح النوع

الإنساني ، لأنه الخليفة في الأرض ، والقطب الذي تدور عليه رحي هذا الكون . وإصلاح الإنسان يكون نفسيا واجتماعيا ، والإصلاح النفسي هو التنظيم الدقيق بين جوانب الإنسان المختلفة بحيث لا يطغى أثر جانب على آخر فلا تُوفر مطالب الجسم على حساب الروح ، ولا تلبي مطالب الغريزة على حساب الضمير والعقل ولا عكس ذلك ، ولكن تراعى مطالب الروح والجسد معا ، وأشواق القلب وتطلعات العقل جميعا ، حتى لا يحدث أي نشاز وتضاد بين جانب وآخر ، وأما الإصلاح الاجتماعي فهو رعاية جميع مصالح الناس على اختلافهم من غير توفير لأحد على حساب غيره ، وهذا كله تنطوي عليه هذه الرسالة الخالدة .

والقرآن الكريم الذي أنزله الله على نبيه (عليه أفضل الصلاة والسلام) هو منبع هذا الخير كله ، ومطلع هذه الهداية التي أشرق نورها على قلوب الناس فبدد منها الظلمات ، واستأصل منها الضلالات ، فمن تمسك به فقد استمسك بالعروة الوثقى التي لا انفصام لها ، فهو كلام الله رب العالمين ﴿ لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ ﴾ (فصلت / ٤٢) ونجد من خلال تلاوَتِنا له ما يدلنا على عظمة محتواه ، وعلى القصد من إنزاله فالله تعالى يقول : ﴿ ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ ﴾ (البقرة / ٢) ويقول : ﴿ كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴾ (إبراهيم / ١) ويقول : ﴿ إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْراً كَبِيراً ﴾ (الإسراء / ٩) ويقول : ﴿ اللهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهاً مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم ﴾ (الزمر / ٢٣) ويقول : ﴿ كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الأَلْبَابِ ﴾ (ص / ٢٩) ويقول : ﴿ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ ﴾ (يونس / ٥٧) .

ولقد وصف الرسول ﷺ القرآن الكريم وصف العارف به ، كيف لا ؟ وهو الذي أُنزل عليه ليبينه للناس ، يقول تعالى ﴿ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ ﴾ (النحل / ٤٤) ولعل أجمع حديث لصفات القرآن ما رواه الإمام أحمد والترمذي عن الإمام على بن أبي طالب (كرم الله وجهه) أن النبي ﷺ قال (ستكون من بعدي فِتن كقطع الليل المظلم ، قيل يارسول الله وما المَخْرَجُ منها ؟ قال كتاب الله تبارك وتعالى فيه نبأ مَن قبلكم ، وخبر ما بعدكم ، وحكم مابينكم ، هو الفصل ليس بالهزل ، من تركه مِن جبار قصمه الله ، ومَن ابتغى الهدىٰ في غيره أضله الله ، هو حبل الله المتين ، ونوره المبين والذِكْر الحكيم ،وهوالصراط المستقيم ،وهو الذي لاتزيغ به الأهواء ،ولاتلتبس به الألسنة ، ولاتتشعب معه الآراء ،ولايشبع منه العلماء ،ولايمله الأتقياء ،ولايخلق على كثرة الرد ، ولاتنقضي عجائبه ، وهو الذي لم تنته الجن إذ سمعته أن قالوا ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآناً عَجَبًا﴾(الجن/١) مَن عَلِمَ علمه سبق ،ومن قال به صدق ،ومن حكم به عدل ،ومن عمل به أُجِر ،ومن دعا إليه هُديَ إلى صراط مستقيم).

ومهما قيل في إسناد الحديث فإن البريق الذي يلمع من عباراته دليل على تألقه من مشكاة النبوة ، إنَّ هذه الإحاطة الدقيقة بصفات القرآن لاتكون إلا ممن أُنزل اليه ، وقصارى ما يمكن أن يصل إليه فهمنا من هذا الوصف الجامع للقرآن الكريم احتواء القرآن على كل ما يحتاج إليه الإنسان من عِبَرٍ يستفيدها ممن مضى قبله، وخبر يتطلع إليه من وراء حجاب المستقبل الغيبي ، وحكم يقيم عليه علاقته ببني جنسه ،وأن كل من جانبه من جبار إعراضا عنه لابُدَّ له من قاصمة ، وأنه فصل ليس بالهزل وكيف يكون هزلا أو يحتوي عليه وهو كلام رب العالمين؟ وأنه حبل الله الذي لا ينقطع بمن تمسك به،ونوره الذي لا يضل من استبصر به ، وذكر منه في

تستولي الغفلة على من دأب عليه ، وصراط مستقيم لا يزل من سلكه، ولا يضل. والحديث يتضمن التحذير من سوء العاقبة لأولئك الذين يضربون بشريعة القرآن عرض الحائط، متمسكين بقوانين صاغتها عقول البشر القاصرة ، وأنظمة معوجة لا صلة لها بالفطرة الإنسانية ، وهؤلاء يحتويهم وعيد الحق في قوله ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ﴾(طه/١٢٤) وفي حديث عن ابن مسعود رضي الله تعالى عنه أخرجه الأنباري النحوي ما يتفق مع محتوى الحديث السابق: فقد جاء فيه عن رسول الله ﷺ (إن هذا القرآن مأدبة الله فتعلموا من مأدبته مااستطعتم) إن هذا القرآن حبل الله، وهو النور المبين، والشفاء النافع، عصمة من تمسك به، ونجاة من اتبعه لا يعوج فيقوّم، ولا يزيغ فيستعتب، ولا تنقضي عجائبه، ولا يخلق عن كثرة الرد. فاتلوه فإن الله يأجركم على تلاوته بكل حرف عشر حسنات ، أما أني لا أقول ﴿الم﴾ حرف ، ولا ألفيّن أحدكم واضعا إحدى رجليه يدع أن يقرأ سورة البقرة، فإن الشيطان يفر من البيت الذي تقرأ فيه سورة البقرة، وإن أصفر البيوت من الخير البيت الصفر من كتاب الله) ، وفي قوله عليه أفضل الصلاة والسلام (فتعلموا من مأدُبَته) دليل على أن هذه المأدبة بسطت لتكون غذاء الأرواح والأفكار لا لتكون غذاء المعدات والأجسام.

فالقرآن الكريم أنزل ليكون نورا وهدىً يقوم المنحرفين عن الجادة، ويهدي الضالين عن الحق ، وفي حديث أخرجه مسلم عن عُمر رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال (إن الله يرفع بهذا القرآن أقواما ويخفض آخرين) ، وهو يعني أن الله يرفع به الذين يهتدون بنوره، ويقفون عند حدوده، ويخفض به الذين يضلون عنه ويبغونه عوجا ، لا يبالون بشيء من حلاله وحرامه.

هذا وبما أن رسول الله ﷺ الذي اختاره الله من بين خلقه لإنزال القرآن عليه أعلم الناس بمقاصد التنزيل ومسالك التأويل كان المرجع في بيان ما غمض من الكتاب، وتفصيل ما أُجمل، وتوضيح ما استشكل، وهذه المهمة لم يتسور إليها من قبل نفسه، وإنما وكلت إليه من قبل ربه، فالله تعالى يقول له ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾(النحل/٤٤) وهو (عليه أفضل الصلاة والسلام) لم يكن ينطلق في تبيان القرآن من هواه، وإنما كان ينطلق في ذلك، وفي كل شيء من وحي الله ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوى إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى﴾(النجم/٣ ، ٤) ولذلك قال رسول الله عليه الصلاة والسلام (ألا أني أُوتيت الكتاب ومثله معه) يعني بذلك سنته المطهرة التي فيها إيضاح ما انْبَهَم من الكتاب، وتفصيل ما أُجْمِل، ومن ثم كانت أقواله وأفعاله وتقريراته ﷺ تشريعات لأمته، تهدي للتي هي أقوم، وتكشف عما توارىٰ عن الأفهام من معاني القرآن ، ومن هنا نجد في آيات الكتاب التأكيد الذي يلي التأكيد على اتباعه ﷺ في أمره ونهيه والتأسي بأفعاله والتخلق بصفاته ، يقول تعالى ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾(الحشر/٧) ويقول سبحانه ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾(آل عمران/٣١) ويقول ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللهَ كَثِيرًا﴾(الأحزاب/٢١) ويقول ﴿وَمَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللهَ﴾(النساء/٨٠).

والنبي صلوات الله وسلامه عليه يقول (تركت فيكم ما إن تمسكتم به فلن تضلوا أبدا ، كتاب الله وسنتي).

ونحن إذا عدنا نتصفح تاريخ السلف الصالح الذين تلقوا من رسول الله ﷺ القرآن غضا طريا ، فكان هجِّيراهم آناء الليل وأطراف النهار نجد

أنهم بالقرآن والسنة استطاعوا تحقيق الأماني التي لا يكاد العقل يتصورها ، فقد كان القرآن مصدر عزتهم وقوتهم، وبإدراكهم، لذلك كانوا يدأبون عليه تلاوة وعملا ودراسة، وكانوا تتمثل فيهم صفات الإيمان بالقرآن التي ذكرها الله تعالى في قوله ﴿إنَّما يُؤْمِنُ بآيَاتِنَا الذِّينَ إذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّداً وسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وهُم لَا يسْتَكْبِرُونَ ، تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وطَمَعًا ومِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾(السجدة/ ١٥ ، ١٦) وكانوا متفاعلين معه في أمره ونهيه، ووعده ووعيده، ومواعظه وأمثاله ، قد أُشربت قلوبهم حبه، وجرى في أرواحهم وعقولهم مجرى الدّم في العروق ، منعكسة آدابه وأخلاقه على معاملاتهم ، فكان كل منهم صورة حية لهداية القرآن، متأثرين في ذلك بالرسول العظيم عليه أفضل الصلاة والتسليم ، الذي تصفه أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها بقولها ـــ كان خلقه القرآن ـــ يصدرون في السلم والحرب والرضى والغضب والمكره والمنشط عن توجيهه ودلالته ، فكان الجندي منهم إذا انطلق مجاهدا في سبيل الله يضع كتاب الله نصب عينيه ، لا يرفع السيف ولا يضعه إلا بإشارته ، وهذا الذي دعا أعداءهم إلى إكبارهم وخشية بأسهم، فكانوا يتناقلون صفاتهم فيما بينهم في عبارات كلها ثناء ومدح ، فعندما هزموا جيوش الروم حين زحفوا على أرض الشام اجتمع هرقل عظيم الروم بقادة جيشه لدراسة أسباب الهزيمة فوجد القادة متأثرين إلى حد بعيد بما وجدوه في جنود المسلمين وقادتهم من صفات الرجولة والشهامة والورع والتقوى وتأثير القرآن عليهم ، فبينما يصفهم واحد منهم بقوله «هم رهبان بالليل فرسان بالنهار لا يأكلون في ذمتهم إلا بثمن ، ولا يدخلون إلا بسلام ، يقضون على من حاربوا حتى يأتوا عليه» ، إذا بآخر يبزه في الوصف إذ يقول «أما الليل فرهبان وأما النهار ففرسان يرَيشون النبل ويُبرونها ويثقفون القنا ، لو حدثت جليسك حديثا ما فهمه عنك لِما علا من

أصواتهم بالقرآن والذكر» ، وقد سلك هذا المسلك:مسلك أصحاب رسول الله ﷺ كل الذين استقاموا على طريقتهم،وعاشوا على مبادئهم،وماتوا في سبيلها.

لقد سمعنا علما من أعلام هؤلاء وهو الإمام القائد أبو حمزة الشاري رحمه الله-سمعناه على منبر رسول الله ﷺ يجلجل منه صوت الحق،دفاعا عن أصحابه الذين باعوا أنفسهم لله بكلمات وعاها الزمن،وخلدها التاريخ نقتصر منها على ما يلي:ـــ

«لقد نظر الله إليهم في جوف الليل منحنية أصلابهم على أجزاء القرآن إذا مر أحدهم بآية فيها ذكر الجنة بكىٰ شوقاً إليها،وإذا مر بآية فيها ذكر النار شهق شهقة كأن زفير جهنم في أُذنيه» ، ونجد هذه الصورة تتكرر في أخلاف أُولئك الذين مضوا على طريقهم،فيعود هذا الوصف نفسه على لسان الشاعر الكبير العلامة أبي مسلم رحمه الله إذ يقول:ـــ

تراهم في ضمير الليل صيرهم   مثل الخيالات تسبيح وقرآن

وفي قوله:ـــ

أكبوا على القرآن شربا لمائه   فأصدرهم والكل ريّان هائم

وبسبب هذا التفاعل العجيب مع روح القرآن استطاع السلف الصالح أن يبثوا هدايته في الأرض،فقد فتحوا به القلوب الغلف ، وأسمعوا به الآذان الصم ، وبصروا به الأعين العمي ، ودحروا بسلطانه القوى الكبرى التي كانت تقف في وجه الدعوة إليه ، فقد دحروا قوة كسرى وقيصر وقهروا جيوشهما بقوة القرآن الكريم،فأخذ نور هذا القرآن يسطع في آفاق الأرض، ممزقا حجب ظلمات الجاهلية التي كانت ترين على قلوب الناس فدخلت

الأمم في دين الله أفواجا،وتم ما وعد الله به المؤمنين من استخلافهم في الأرض، وتمكين دينهم الذي ارتضاه لهم،وقد بقي هذا القرآن هو القلعة المتينة التي يحتمي بها الإسلام،ويأزر إليها في كل شدائده ومحنه التي تقذفه بها أحداث الزمن ، ولولا القرآن ما وصل إلينا من الإسلام شيء،بل لولا القرآن لم تبق لنا لغتنا العربية الفصحىٰ متألقة عبر القرون،ولولاه لم تخرج من محيطها الضيق في جزيرة العرب لتكون لغة الدين والدنيا ، يجهد أبناء العجم في بنائها كأبر أبنائها،خدمة لكتاب الله الذي شرف الله به لغة العرب،وحُبا في النبيّ العربي الذي أنقذ الله به الإنسانية ، ولولا القرآن لما انسلخ العرب، من عاداتهم السيئة وتحرروا من أوهامهم المطبقة ، وخرجوا من مجتمعاتهم الضيقة التي كانوا فيها أشبه بالسباع المفترسة في غاباتها يأكل الكبير الصغير ويعدو القوي على الضعيف ، فقد أخرجتهم هداية القرآن من هذا المحيط الضيق الذي كانوا يعيشون فيه إلى محيط الأرض كلها،وحولتهم من جاهليتهم الحمقاء، وصيرتهم هداة البشر وقادة الأمم ، ينظرون بعين المودة من أحبائهم ، وبعين المهابة من أعدائهم.

إن القرآن هو الذي أرهف حسهم،ورقق طباعهم،وصفّى وجدانهم، وحرك في نفوسهم مشاعر الرحمة للإنسانية،فكانوا مثالا في طيب الخلق، وحسن المعاملة ، حتى قال قائل من علماء الاجتماع الغربيين «ماعرف التاريخ فاتحا أرحم من العرب».

إن هذا القرآن هو الذي بعث في نفوسهم الهمم،وأوقد في قلوبهم العزائم،فانطلقوا في أرجاء الأرض،مستهدفين كل جبار عنيد وشيطان مريد ، ولم يقفوا حتى وضعوا أقدامهم على هامات الأكاسرة والقياصرة،ووطئوا بنعالهم

على تيجانهم،فحرّروا الشعوب المستضعفة المقهورة المحكومة بنير الجبارين، وبطش الظالمين، وأبدلوها بالذل عزّا، وبالخوف أمنا، وبالاستكانة إباء.

وعندما أخذ المسلمون ــ وفي مقدمتهم العرب ــ ينأون عن القرآن وهدايته ويتبعون السبل المتفرقة كانت النكسة الأليمة التي أصيبت بها الإنسانية كلها، إذ أخذت الجاهلية الحديثة بزمام قافلة البشرية تقودها إلى حافة الانتحار ، والمسلمون أنفسهم من ضمن الركب ﴿لا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا﴾(النساء/٩٨) بل المسلمون صاروا بانحرافهم عن طريق القرآن من أشد الناس شقاء، وأتعسهم حالة، وألبسهم للذل، وأوغلهم في التخلف، ولا غرو فقد أفلتوا سبب العز من أيديهم ، وتفرقت بهم السبل بضلالهم عن سبيل الله ، واستولت على عقولهم الظلمات لتعاميهم عن نوره المبين، فاختلت نتيجة ذلك عندهم الموازين، وتبدلت المقاييس ، فأصبح المعروف عندهم منكرا والمنكر، معروفا ، والحق باطلا ، والباطل حقا ، والفضيلة رذيلة، والرذيلة فضيلة ، والعز ذلا، والذل عزا ، لأنهم لم يأخذوا بموازين القرآن، ولم يستخرجوا منه مقاييس الأمور ، وإذا تُلِي عليهم القرآن وذُكِّروا بآياته خروا عليها صُما وعميانا، واستعاضوا عن صوت القرآن أصوات القيان ومزامير الشيطان ، وقُصرت عند كثير منهم تلاوته عند حدوث المصائب ، وقد تُفتتح به برامج الإذاعة المسموعة والمرئية وتختتم وما يدور بين الافتتاح والاختتام معظمه حرب على القرآن وهدم لما شيده ، كما تفتتح وتختتم به الحفلات التي كثيرا ماتكون مجانبة لأمره بعيدة عن هديه.

وإذا كان الصحابيُّ الجليل ابن مسعود (رضي الله تعالى عنه) يرى أن تلاوة القرآن مع ترك العمل به مؤدية بصاحبها إلى الوعيد الذي جاء في قوله

تعالى ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ﴾(طه/١٢٤) فما بالك بأولئك الذين يحفظون عناوين الأغاني المائعة والقصص الماجنة أكثر مما يحفظون أسماء سور القرآن. ولقد قيل قديما «لايصلح آخر هذه الأمة إلا ما أصلح أولها» فطريق العز لهذه الأمة طريق واحد وهو واضح لا غموض به ومستقيم لا التواء فيه ، يتمثل هذا الطريق في هذا القرآن وهو المشار إليه بقوله تعالى ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ، ولا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ﴾(الأنعام/١٥٣) فما أحوج المسلمين اليوم إلى عودة حميدة إلى القرآن من جديد،وبناء هيكل حياتهم على أسس صلبة متينة من تعاليمه سواء ما يتصل منها بالعقيدة أو العبادات أو الأخلاق أو المعاملات أو السياسة أو الاقتصاد أو الأدب أو الثقافة أو الاجتماع ، فالقرآن الذي أنزله الله ليسطع على العالم مابقى الدهر،وليقود الإنسانية إلى الرشد ، لا يضيق بأي شيء من أطوار الزمن ولا بأية مشكلة تفرزها الحياة وصدق الله ﴿مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ﴾(الأنعام/٣٨) وإذا كان العالم اليوم يقف على عتبة مرحلة جديدة يواجه فيها صحوة إسلامية مشرقة،يتألق نورها في عقول شباب المسلمين ، فإن الواجب يفرض على جميع أفراد المسلمين أن يضافروا جهودهم ــ كل بحسب ما يملك ــ وأن يحشدوا جميع طاقاتهم المادية والمعنوية للمحافظة على سير هذه الصحوة في مسلكها السليم،وانتشارها بنور من وحي القرآن؛حتى لا يعتريها الشذوذ أو الانحراف.

لذلك رأيت لزاما علي أن أسهم في هذا العمل الإسلامي حسب طاقتي ولو بجهد متواضع ، وقد كنت من نحو عقد من السنين أحلم بأن أنال شرف خدمة القرآن ، لكن يصدني قصور نفسي وعظمة الأمر المطلوب ، وعدم توفر الوقت الكافي لمثل هذا العمل الخطير ، فبقيت خلال

هذه المدة مترددا بين طموح نفسي وشعوري بعجزها، حتى استخرت الله تعالى فتيسر لي إلقاء دروس في التفسير (بجامع قابوس بروي) أمام طلاب معهد إعداد القضاة وغيرهم وسائر المستفيدين ، وكانت الفرص التي أتيحت لي للقيام بهذا العمل كأنما انتزعها القدر انتزاعا من قبضة الدهر فأهداها إليَّ، أو ختلسها الجِد اختلاسا من بين رقابة الزمن، فمنحني إياها والحمد أولا وآخرا لله الذي له الفضل والمنة ، وقد ابتدأت الدرس الأول بما سطره القَلم هنا، ثم واليت بعد ذلك الحديث عن التفسير والمفسرين وعن إعجاز القرآن الكريم راجيا من الله تعالى أن يوفقني لإتمام ما قصدت حتى آتي على ما يمكنني بيانه من معاني آي الذكر الحكيم من أول الفاتحة إلى خاتمة «الناس».

وقد اقتُرح علي أن أُدوِّن هذه الدروس بعد تفريغها من الأشرطه ، لتَعُم فائدتها على المستمعين والقرّاء ، فاستجاب ضميري لهذا الاقتراح مع الصعوبات التي تكتنفه ، وإنما شجعني وقوف إخوان أعزة عليَّ بجانبي يسددون خطاي، ويأخذون بيدي ، وإني لأرجو من الله تعالى أن يوفقني لإتمام هذا العمل على الوجه الذي يرضيه كما وفقني لابتدائه ، وأن يجعله خالصا لوجهه الكريم ، وأن يجعله سبباً للفوز في يوم الدّين وأن يعم بنفعه جميع المسلمين .

هذا ومما هو جدير بالذكر أنني لا أتقيد في التدوين بنصوص عبارات الدروس ، وإنما أُحافظ على روحها ومضمونها ، ذلك لأن مجال التدوين يختلف عن مجال الإلقاء الارتجالي ، فلا مناص عن تهذيب العبارات واختصارها بحسب ما يمكن وكان إلقاء أول درس من هذه الدروس بعد صلاة المغرب من ليلة الأربعاء ، السادس من المحرم الحرام عام ١٤٠٢هـ ، ومن الله التوفيق وعليه التكلان.

أحمد بن حمد الخليلي

مسقط ١٠ صفر ١٤٠٢هـ

موقف الصحابة من التفسير

لقد أنزل الله -سبحانه- القرآن ليكون هدًى للنّاس وشفاء لما في الصدور قال تعالىٰ: ﴿ذٰلِكَ الكِتَابُ لارَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ﴾(البقرة/٢) وقال: ﴿إِنَّ هٰذَا القُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ المُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْراً كَبِيراً ..﴾(الإسراء/٩) وقال ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ﴾(فصلت/٤٤) وقال ﴿قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ﴾(يونس/٥٧) وهو سبحانه يريد من عباده أن يدركوا طوايا هذا الكتاب من المعاني القيمة، إذ لا يمكنهم بدون ذلك أن يهتدوا بهدَاه، ولا أن يستنيروا بنوره، ولا أن يستشفوا بشفائه ، ولقد قال التابعي الكبير الحسن البصري: ما أنزل الله تعالىٰ آية إلا ويحب من عباده أن يعلموا فيم أُنزلت وماذا أراد بها.. وقد كان أصحاب رسول الله ﷺ أسبق الناس إلى الخير، لذلك كانوا سباقين في دراسة القرآن وتفهم معانيه والعمل بما فيه وقد روي عن ابن مسعود -رضي الله تعالىٰ عنه- (أنهم كانوا يتعلمون من القرآن عشر آيات لايغادرونهن إلى غيرهن إلا بعد أن يتقنوا ما فيها من العلم والعمل) وقد أعانهم على فهم معاني القرآن توقد أذهانهم، وصفاء سرائرهم، وطهارة وجدانهم، وعُمق فهمهم مع ما يتصفون به من ملكة في البيان تعينهم على الفهم ، وكان النبي ﷺ بين ظهرانيهم يرجعُون إليه فيما أشكل عليهم من ألفاظ الكتاب فيفصل لهم المجملات التي يقتضي الحال تفصيلها، ويضع بين أيديهم القواعد التي تمكنهم من فهم سائر القرآن بالرجوع إليها، فلذلك كان أصحابه رضي الله عنهم أعلم الناس بمعاني القرآن وبمجمله ومفصله وناسخه ومنسوخه ومطلقه ومقيده وخاصه وعامه.

ومع هذه الميزة التي يمتازون بها فإن كثيرا منهم وقفوا هيَّابين أمام القرآن ولم يتجرأوا على الخوض في معانيه ولم يكد يذكر عنهم شيء من تفسيره إلا النزر اليسير، لأنهم يحذرون التقول على الله بغير علم خشية الدخول في الوعيد الشديد الذي جاء به قول الله تعالىٰ ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْها وَمَا بَطَنَ والإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللهِ مَالَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللهِ مَالَا تَعْلَمُونَ﴾(الأعراف/٣٣) ومن هؤلاء الخليفتان الراشدان أبوبكر وعُمر-رضي الله عنهما-فقد ذكر عن الصديق أنه سأله سائل عن «الأب» في قوله تعالىٰ ﴿وَفَاكِهَةً وَأَبًّا﴾(عبس/٣١) فقال أي سماء تظلني وأي أرض تقلني وأين أذهب وماذا أصنع أن قُلت في كتاب الله بغير ما أراد الله؟ وروي عن عمر رضي الله عنه أنه تلا الآية فقال قد عرفنا كل ذلك فما «الأب» ثم قال وما عليك ياابن عمر ألا تعرف «الأب»؟ ألا فاتبعوا من كتاب الله ما وضح لكم وقفوا عمّا أشكل عليكم ، وقبل أن نخوض في مسالك المفسرين من الصحابة والتابعين فمن بعدهم يجدر بنا أن نتعرف على حقيقة التفسير لغة واصطلاحا ونستطيع فهم ذلك بالرجوع إلى معاجم اللغة، وما سجله علماء التفسير من معنىٰ هذه الكلمة.

التفسير لغة واصطلاحا

لقد جاء في معاجم اللغة أن التفسير مأخوذ من الفسر وهو البيان والكشف ومادة هذه الكلمة تدل على ذلك ، ومنه قولهم فَسَرت الفرس أي عريته للانطلاق ، ومنه التفسرة، وهي الماء الذي ينظر فيه الطبيب أو المنجم لقصد الاستبانة، وإني لأعجب مما قاله أبو حيان الأندلسي في تفسيره الكبير (البحر المحيط) من أنّ التفسير لغة الاستبانة والكشف ، مع أن الاستبانه هي طلب البيان وذلك أجدر بالاستفسار لا التفسير، ونجد غيره من المفسرين يتفقون

مع اللغويين كصاحب القاموس وصاحب اللسان على تفسير التفسير بالإبانة أو البيان.

وأما التفسير اصطلاحا فقد عرّفه أبو حيان في(البحر المحيط)بأنه:علْم يبحث عن كيفية النطق بألفاظ القرآن ومدلولاتها وأحكامها الإفرادية والتركيبية ومعانيها التي تُحْمل عليها حالة التركيب وتتمات لذلك . ويبدو من كلام أبي حيان أنه يري أنه لم يُعَرِّف التفسير اصطلاحا أحد قبله إذ لم يجد تعريفه عن أحد ، وقد أورد نفس التعريف في تفسيره الذي اختصره من (البحر المحيط)وسماه(النهر الماد من البحر)وتابعه عليه تلميذه القيسي في تفسيره الذي سماه(الدر اللقيط من البحر المحيط) كما تابعه عليه العلامة الألوسي في تفسيره (روح المعاني)وزاد بعد قوله وتتمات لذلك «كمعرفة النسخ وسبب النزول وقصّة تُوضِح ما أُبهم من القرآن ونحو ذلك» وهذه الزيادة مأخوذة من كلام أبي حيان نفسه عندما تكلم في تفصيل التعريف الذي رسمه ، والذي يلاحظ أن هذا التعريف غير قاصر على علم التفسير بل يتضمن معه علم التجويد والأولى إفراد كل على حده.

وقال التفتازاني في تعريفه «هو العِلم الباحث عن أحوال ألفاظ كلام الله من حيث الدلالة على مراد الله تعالى» ، ومثله قول الرازي «هو ما يُبحث فيه عن مراد الله تعالى من قرآنه المجيد» ، ويلاحظ على هذا وذاك عدم اشتمال التعريفين على أسباب النزول ومعرفة الناسخ والمنسوخ وغير ذلك في مدلول كلمة أُصول ، وعرفه الزركشي تعريفا مطولا ينطوي على كل ما يلزم أن يجمعه المفسر من علوم وهو «عِلم يُفهم به كتاب الله تعالى المنزل على نبيه ﷺ وبيان معانيه،واستخراج أحكامه وحِكمه،واستمداد ذلك من علم اللغة

والنحو والتصريف والبيان وأحوال الفقه والقراءات ويحتاج إلى معرفة أسباب النزول والناسخ والمنسوخ» ، وعرّفه الفناري بأنه «معرفة أحوال كلام الله تعالى من حيث القرآنية ومن حيث دلالته على أنه يُعلم أو يظن أنه مراد الله تعالى بقدر الطاقة البشرية» ، ونلاحظ أنَّ تعريف أبي حيان الأندلسي يستهدف ألفاظ القرآن دون معانيه،مع أنَّ الألفاظ إنما هي وسيلة لدرك المعاني ، ولعل ابن الجوزى بيَّن التفسير والتأويل التي سنوردهاإن شاء الله) بعد قليل أكثر دلالة على المقصود بالكلمتين وأكثر التصاقا بمفهومهما اللغوي.

الفرق بين التأويل والتفسير

أما التأويل لغة فهو مأخوذ من الأول بمعنى الرجوع وذلك لأن الذي يؤّول الكلام يرده عما ينصرف إليه إلى ما يراد به بدلالة القرائن التي تصحبه ، واختلف في التفرقة بينه وبين التفسير فقيل هما بمعنىً وعليه أبو عبيدة ، وقيل بل يفترقان وهؤلاء اختلفوا في التفرقة بينهما ، فقال الراغب: التفسير أعم وأكثر استعماله في الألفاظ ومفرداتها في الكتب الإلهية وغيرها ، والتأويل في المعاني والجمل في الكتب الإلهية خاصة ، وقال الماتريدي: «التفسير القطع بأن مراد الله كذا..والتأويل ترجيح أحد المحتملات بدون قطع ، وقيل التفسير ما يتعلق بالرواية ، والتأويل ما يتعلق بالدراية ، وذكر ابن الجوزي اختلاف العلماء في التفرقة بين التفسير والتأويل ونقل عن المتقدمين والذين يميلون إلى العربية أنهم لا يرون فرقاً بينهما ونقل عن المتأخرين والذين يميلون إلى الفقه أنهم يفرقون بينهما ، وعبارته في التفرقة بين التفسير والتأويل أن التفسير إخراج الشيء من مقام الخفاء إلى مقام التجلي والتأويل هو نقل الكلام عن وضعه فيما يحتاج إلى دليل لولاه لم ينقل عن ظاهر

لفظه ، وهذه التفرقة في منتهى الوضوح كما أشرنا من قبل لولا ما فيها من الشمول بحيث لا تنطبق على تفسير القرآن وحده وتأويله ، فلو قال في التفسير أنه إخراج معاني كتاب الله من مقام الخفاء إلى مقام التجلي لكان أدل على المطلوب ومثله القول في التأويل ، وفرق بينهما الألوسي بأنَّ التفسير إنما هو في الأمور الظاهرة التي يهتدي إليها عامة العلماء،والتأويل هو إشارة قدسية ومعارف سبحانية تنكشف من سجف العبارات للسالكين وتنهل من سُحب الغيب على قلوب العارفين ، وهو في هذا ينطلق من نزعته الصوفية التي كثيراً ما لمسنا أثرها في تفسيره ، ولابد أن تتوفر شروط في المفسر حتى يستطيع القيام بعبء التفسير ، وقد أطال العلماء في بيانها وإنما نذكر منها ما يلي:

شروط المفسر

أولا: معرفة اللغة العربية وتصاريفها واشتقاقاتها،للتمكن من فهم مقاصد القرآن الذي جعله الله عربيا ، واشترط الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده أن تكون هذه اللغة التي يفسر بها هي لغة عصر نزول القرآن لتجنب حمل ألفاظ القرآن على المصطلحات الحادثة من بعد ، فإن علماء الأمة بعد ذلك العصر قد اصطلحوا على عبارات لم تكن تستعمل من قبل فيما اصطلحوا على استعمالها فيه ، كاصطلاحهم على التفرقة بين الأداء والقضاء بأنَّ الأداء هو الإتيان بالعمل في وقته ، والقضاء هو الإتيان به بعد مضي وقته استدراكا لما فات ، مع أن هذا الاصطلاح غير موجود في القرآن ولا معروف في وقت نزوله فلا يصح أن يحمل عليه نحو قوله تعالى ﴿فَإِذَا قَضَيْتُمْ مَنَاسِكَكُمْ﴾(البقرة/٢٠٠) وقوله ﴿فَإِذَا قُضِيَتْ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ﴾(الجمعة/١٠) لأن القضاء في الآيتين لا يختلف عن الأداء ، نعم تحمل

كلمات القرآن على المصطلحات الشرعية التي جاء بها القرآن نفسه إذا لم تدل قرينة على أنّ المراد بها المعاني اللغوية الأصيلة كالإيمان والإسلام والكفر والشرك ، والصلاة والزكاة والصوم والحج.

ثانيا: معرفة الإعراب: وهي شرط أساسي لتفسير القرآن ، فإن مَنْ لا حَظّ له من علم النحو لا يمكنه أن يرقى إلى فهم مقاصد التنزيل،وقد كان وضع قواعد علم الإعراب لأجل صون القرآن عن الخطأ فيه كما تدل عليه قصة الأعرابي المشهورة.

ثالثا: معرفة الأساليب: ويُراد بها عِلْم البلاغة ، فإن القرآن أبلغ كلام عرفته العرب وقد قهرهم ببيانه المعجز الذي أخذ على كل منهم شعاب نفسه ، فلم يجد إلا أن يُستَلّم تسليما لكلماته وعباراته رغم كفرهم بمعانيه ، وقد كان إدراك العرب لبلاغة القرآن بحسهم المرهف وطبعهم الصافي وقد غَلُظ الحس وتَكَدَّر الطبع بعد أن فقدت العربية قوتها في الألسن بسبب تأثير الشعوب المختلفة على أهلها فعاد البيان،فنونا تُدْرس لا مَلَكات تُطبع كما كان من قبل ، لذلك أصبح من الضرورة التي لا محيص عنها لمن أراد فهم القرآن أو تفسيره أن يدرس فنون البلاغة من كتبها التي تغرس في النفس ملكة البيان وتحيل على الوجدان والحس فهم أسرار البلاغة ككتابي إمام البلاغة عبد القاهر الجرجاني «دلائل الإعجاز وأسرار البلاغة» و «الصناعتين» لأبي هلال العسكري ، أما كتب البلاغة التي أُلِّفت من بعد فقد كان أكثرها يُعنىٰ بحشر المصطلحات دون الكشف عن أسرار البيان،فلذلك كانت سببا لتعقيد هذا الفن لأن دارسيها لا يعودون بشيء إلا المصطلحات وحدها وقد يكونون أكثر عياً في الخطاب ممن لم يدرس البلاغة ، فمن الصعوبة بمكان لأمثال هؤلاء أن يُدركوا سرّ الإعجاز في التعبير القرآني.

رابعا: معرفة أسباب النزول لأجل فهم الأغراض والمقاصد في كثير من آي الكتاب ينبهم درك مقاصدها بدون معرفة أسباب نزولها ، وذلك يقتضي الرجوع إلى كتب الحديث وتمحيص الثابت من الروايات من غيره.

خامسا: تصور الظروف التي صاحبت نزول القرآن والمحن التي اكتنفت المنزل عليه ، والعراقيل التي وقفت في طريق دعوته إليه.

سادسا: معرفة القواعد التي تمكن من استنباط أحكامه، وهي المصطلح على تسميتها بأصول الفقه الباحثة عن الأدلة الشرعية من حيث دلالتها على الأحكام الشرعية ، والأحكام الشرعية من حيث دلالة الأدلة الشرعية عليها.

سابعا: رسوخ عقيدة التوحيد في قلب المفسر، لأنه يفسر كلام الله فإذا لم يكن راسخ الإيمان ثابت اليقين لم يؤمن من الاضطراب والحيرة في تفسيره.

ثامنا: معرفة الأحكام الفرعية الشرعية المستخرجة من أدلتها التفصيليةلتصور مقاصد الكتاب في الأمر والنهي ، وهذا يتم بدراسة كتب الفقه التي ترد الفروع إلى أصولها وتقرن الأحكام بأدلتها ، ومن المفسرين من يرى دخول هذا الشرط في بعض ما تقدمه ولعله يشير بذلك إلى علم أصول الفقه لضرورة الإلمام ولو ببعض الأحكام الفرعية لمن مارسه..

تاسعا: معرفة علم القراءات لتوقف معرفة بعض معاني القرآن على معرفة وجوه قراءاته.

مصادر التفسير

للتفسير مصادر خاصة كغيره من العلوم وأهم مصادره أربعة:

أ ـــ القرآن الكريم

أولها: الكتاب نفسه فإن أولى ما فسر به القرآن القرآن،فكم من آية مبهمة جاء كشف إبهامها في آية أخرى ، وكم من عموم في آية خُصَّ بآية غيرها ، وهكذا تقييد الإطلاق ونسخ المنسوخ قد يردان في نفس آيات الكتاب.

ب ـــ السنة النبوية

ثانيها: السنة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة والسلام ، ذلك لأن رسول الله ﷺ أعلم الناس بمقاصد التنزيل ومسالك التأويل ولولا ذلك لما أمره الله ببيانه ووكله إليه في قوله ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾(النحل/٤٤) ولكن لابد من تمحيص الروايات والنظر في أسانيدها،لتمييز الصحيح من غيره ، وغالب ما روي عن النبي ﷺ في تفسير القرآن مقطوع الأسانيد ولذلك قال أحمد بن حنبل: ثلاث ليس لها أصول ، التفسير والمغازي والملاحم ، ويقصد بذلك ـــ كما قال المحققون من أصحابه ـــ غالب المأثور من هذه الثلاث وإلا فقد ثبتت روايات صحيحة الإسناد متصلة بالرسول (صلوات الله وسلامه عليه) في بيان بعض الآيات ، ومن المعلوم أن الكذب قد فشا حتى على النبي ﷺ فنسب إليه مالم يقله لذلك أخذ العلماء بالحيطة والحذر في قبول الروايات.

ج ـ أقوال الصحابة

ثالثها: ما روي عن أصحاب النبي ﷺ من تفسير آيات الكتاب. ومن المعلوم أن الصحابة(رضي الله تعالى عنهم)قد تيسر لهم مالم يتيسر لغيرهم من استقاء المعلومات من منبعها الصافي ، فقد كانوا يغدون ويروحون مع النبي ﷺ يستفتونه فيما أشكل عليهم من أمر دينهم، ويستشيرونه فيما يتحيرون فيه من شئون حياتهم،وكان رسول الله ﷺ يربطهم في دينهم ودنياهم بالإيمان ويصلهم بالقرآن، فلذلك تيسر لهم تلقي كثير من المعلومات التي تتعلق بالتفسير من النبي ﷺ فهم الحجة فيما رفعوه إليه ، أما ما لم ينسبوه إليه فإما أن يجمعوا عليه وإما أن يؤثَر عن بعضهم دون بعض فإن أجمعوا فإجماعهم حجة ، وإن رُوي عن بعضهم فقيل إن ما يؤثر عن أي منهم في تفسير القرآن له حكم المرفوع،وذلك لأنهم إما أن يتلقوه عن النبي ﷺ أو يستنتجوه برسوخ أقدامهم في اللغة العربية لغة القرآن ، وقد قال بهذا الحاكم من علماء الحديث،واعترضه غير واحد منهم ابن الصلاح وأبو الخطاب الحنبلي ، ويرى هؤلاء أن ذلك ليس على إطلاقه وإنما هو مقصور على بيان أسباب النزول ففي ذلك يكون لقول الصحابي حكم المرفوع لإمكان ملابسته ظروف نزول الآية ، ويرى هؤلاء أن قول الصحابي فيما عدا ذلك لا يختلف عن قول التابعين فمن بعدهم وخصوصا مع الاختلاف الذي كثيراً ما يحدث بين الصحابة نتيجة اختلافهم في تصور المقصود من الآيات المجملات ، واعترض الشّوكاني في تفسيره (فتح القدير) ، الذين يَرَون أن تفسير الصحابي حجة فيما كان من باب اللسان.وقال:أمّا ما ثبت من ذلك رفعه إلى النبي ﷺ فله حكم المرفوع والصحابي في اللسان له حكم غيره ، هذا وقد نبّه غير واحد من جهابذة العلماء أن قول الصحابي «نزلت

هذه الآية في كذا» قد لا يعني أن ذلك هو سبب نزولها ولكنه يقصد دخوله في ضمن مدلولها ، وقد أطالوا في ضرب الأمثلة لذلك.وقد حذّر كل من ابن تيميّه والزركشي وأبي إسحاق الشاطبي والعلامة الدهلوي وغيرهم من أئمة التفسير من الوقوع في الوهم باعتبار أنَّ كلّ ما يقول فيه الصحابي نزلت هذه الآية في كذا له حكم المرفوع ، وأوصوا بالتفطن لذلك والتفرقة بين قوله ذلك وبين ذكره سبب النزول بكل وضوح كأن يقول:إن السبب في نزول آية كذا كذا.من الحَدَث ، وقال ابن تيميّه: إن البخاري أعطىٰ ذلك حكم الرفع وخالفه كثير من أئمة الحديث فأعطوه حكم الوقف على الصحابي الذي قاله ، ولعلنا نستطيع أن نستنتج من قول الحاكم في مستدركه بأنَّ كلام الصحابي في التفسير له حكم الرفع أنه محمول على كلام الصحابي في أسباب النزول،خاصة نظرا إلى أن الحاكم نفسه قد صرح بذلك في علوم الأحاديث فلا مانع من حمل إطلاقه على التقييد الذي قيد به نفسه.

وقد ذكر بعض العلماء أن قول الصحابي نزلت آية كذا في كذا قد يكون اعتماداً على ما سمعه من رسول الله ﷺ من النطق بالآية على إثر تلك الحادثة فيظن الصحابي أن الحادثة سبب لنزولها مع سبق بالآية عليها وإن لم يحط بها ذلك الصحابي عِلما ، وغاية ما في الأمر انطباق الآية على حكم الحادثة كانطباقه على ما شاكلها،وقد يقصد به شمول الآية لحكم الحادثة ، وقد يخطر ببال أحدهم معنىٰ الآية عندما يتصور واحدة من هذه القضايا التي تدخل في ضمن حكمها فيقول إنَّ الآية قد نزلت فيها ولا يقصد به إلا ما ذكرناه من دخول تلك القضية في مدلول حكمها ، ولا ريب أنه يجب على مَن يُفسِر أن يتفطن لهذه الدقائق ويفرق بين نص الصحابي على سبب النزول وقصده الدخول في عموم الحكم ،ولكل عصر مصطلحاته ،فثَمّ مصطلحات في عصر الصحابة قد تخفي على من جاء بعدهم.

وقد يعرض الخلاف بين الصحابة رضي الله عنهم في التفسير نتيجة اختلاف الفهوم ولكنه أقل من اختلاف التابعين فمن بعدهم كما أوضح ابن تيميّه ، وقد يكون هذا الخلاف شكليا وذلك أن تختلف عباراتهم باختلاف اعتباراتهم ، ومَثَّل ابن تيميّه لذلك باختلافهم في تفسير الصراط المستقيم فمنهم من قال هو القرآن الكريم،ومنهم من قال هو الإسلام،وقال بعضهم هو السنة،وقال آخرون هو طريق العبودية لله سبحانه وروي عن بعضهم أنه اتباع أوامر الله تعالى ، وهذا الاختلاف ليس جوهريا في ذاته فإن الإسلام وطريق العبودية لله واتباع أوامره أمور متفقة والقرآن والسنة،كل منهما مصدر لذلك كله ، وقد يأتي الاختلاف نتيجة اختلاف ما يسبق إلى ذهن كل واحد من الصحابة من أفراد مدلولات ألفاظ القرآن ، ومَثَّل إبن تيميّه لذلك بقوله تعالى ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُم ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُم سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾(فاطر/٣٢) فإن الظالم لنفسه هو الذي لا يتجنب المنهيات ولا يأتي المأمورات والمقتصد هو الذي يفعل المأمورات ويتجنب المنهيات ، والسابق بالخيرات هو الذي يزيد على الواجبات من ضروب الطاعات ، ولكن نظر كل واحد من الصحابة الذين فسروا الآية إلى بعض ما تتناوله ألفاظها فقال هو المراد منها ، فمنهم من قال السابق هو الذي يؤدي الصلاة في أول وقتها والمقتصد هو الذي يؤديها في أي جزء من الوقت والظالم لنفسه هو الذي يؤخر الصلاة إلى وقت الاصفرار ، ومنهم من قال إن الظالم لنفسه هو الذي يمنع الزكاة والمقتصد هو الذي يؤديها والسابق بالخيرات هو الذي يزيد عليها صدقات التطوع ، فكل من هؤلاء وأولئك نظر إلى دخول ما ذكره من الأمثلة في مدلول هذه الكلمات ، على أني أرى أن ما يحكى عن كل منهم من أمثال هذه الأقوال لا يبعد أن يكون مصدره اعتبار المقامات التي حصلت فيها إجاباتهم عن معاني هذه الكلمات القرآنية

فلعل السائل أو السامع في بعض المواقف يكون أجدر بأن يحض على الصلاة ويذكر مغبة تهاونه بها لماعُرِف عنه من التهاون بأدائها ، وقد يكون أجدر بأن يذكر بالزكاة لذات السبب نفسه.

وقد يأتي الاختلاف أحيانا بين الصحابة فمن بعدهم من المراد من اللفظ المشترك بحسب اختلاف نظرتهم إلى القرائن التي تعين المراد، وهذا كاختلافهم في المراد من القُرء هل هو الحيض أو الطهر؟ والمراد من القسورة هل هو الأسد أو الرامي؟ والمشترك قد يكون اسما وقد يكون فعلا وقد يكون حرفا ، ومن العلماء من يرى جواز حمل المشترك على معنييه أو معانيه فلا يمنع من حمله عليها جميعا مع عدم المانع ، ومنهم من لايرى ذلك ويرى احتمال تعدد نزول الآيَة تارة لذلك ، وفي حمْل المشترك على معنييه أو معانيه نظرا لأنه وضع لكل من هذه المعاني وضعا جديدا والاستعمال تابع للوضع فلا يجوز أن يستعمل في أي معنىٰ إلا على حده ، ولأجل هذه الدقائق التي في اللغة العربية لغة القرآن شدَّدَ العلماء في تفسيره على من لم يتقنها ، فقد نقل البيهقي عن الإمام مالك أنه قال «لا أُوتي برجل غير عالم بالعربية يفسر كتاب الله إلا جعلته نكالا».. وروي عن مجاهد نحو ذلك وقد سبق في شروط التفسير اشتراط معرفة المفسر للغة العربية وتصاريفها واشتقاقاتها.

هذا وتفسير الصحابة أنقى من تفسير مَن بعدهم من أقوال أهل الكتاب لأنهم كانوا يعتمدون في تفسيرهم على ما حفظوه عن رسول الله ﷺ أو على ما أُوتوه من فهم في كتاب الله ولم يكونوا يرجعون إلى مسلمة أهل الكتاب إلا في حالات نادرة ، لذلك قال العلامة ابن تيميّه «إن النفس إلى ما يقولونه أسكن» وقد استظهر العلامة محمد رشيد رضا من كلمة

أسْكَن أن تفسير الصحابي غير مقطوع به ، وذكر ابن تيميّه أنَّ ما يُؤثر عن الصحابة في التفسير لا يُحمل على أنه مما حفظوه عن أهل الكتاب، فإن الصحابة لم يكونوا يصدقون أهل الكتاب ولا يكذبونهم في غير ما اتضح حقه أو باطله عملا بقول رسول الله ﷺ (إذا حدثكم أهل الكتاب فلا تصدقوهم ولا تكذبوهم ، لكن قولوا آمنا بالله وما أُنزل إلينا...الخ).

وأصحاب النبي ﷺ وإن كانوا أرسخ الناس قَدما في التفسير فإن المشهورين بالتفسير منهم قِلة وقد ذكر المراغي منهم عشرة وهم الخلفاء الأربعة ، ثم ابن مسعود وابن عباس وأُبي بن كعب وزيد بن ثابت وأبو موسى الأشعري وعبدالله بن الزبير ، وما رُوي عن علي من الخلفاء أكثر مما رُوي عن الثلاثة الباقين وقد ذكرنا عن العمرين أنهما كانا يتهيبان كثيرا من القول في القرآن. وأكثر من رُوي عنه التفسير من الصحابة ابن عباس ويليه ابن مسعود ، وقد قدَم عليا في التفسير ابن عطية وتابَعه القرطبي واعتبرا ابن عباس في المرتبة الثانية من مفسري الصحابة وخالفهما في هذا الاعتبار الزركشي صاحب البرهان ومحمد بن المُرتضى اليماني فقالا:ـ

إنَّ أجدر بالاعتماد من تفاسير الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ عند اختلافهم هو تفسير ابن عباس نظراً إلى أن رسول الله ﷺ دعا الله له أن يُفَقِهه في الدين ويعلمه التأويل.

ونقل الزركشي عن الشافعي أنه كان يرى تقديم زيد بن ثابت فيما يتعلق بالفرائض لحديث (أفرضكم زيد) ، وقد أوضح العلامة محمد بن المرتضى اليماني في كتابه «إيثار الحق على الخلق» دواعي تقديم ابن عباس رضي الله عنهما على غيره ولخصها في خمسة.

الأول: أن رسول الله ﷺ دعا له الله أن يفقهه في الدين ويعلمه التأويل ، وذلك موجود في الصحاح والسنن.

الثاني: أنَّ ابن عباس لم يكن يستحل تفسير القرآن بالرأي.

الثالث: إقرار كبار الصحابة له بالمعرفة والنبوغ.

الرابع: أنّه من أهل بيت النبوة.

الخامس: أنّه وجد تفسيرا للقرآن كله يعزىٰ إليه بالأسانيد ولم يُؤثر ذلك عن غيره ، وبعد هذا قال العلامة اليماني:لأجل ذلك خصصته بالذكر وقدمته على من هو أفضل وأعلم وأقدم وأكبر كالإمام عليٍّ بن أبي طالب وغيره من أصحاب النبي ﷺ.

ومما لايُشَكَ فيه أنَّ صحابة النبي ﷺ كان لهم القدح المعلى في معرفة تفسير القرآن بمخالطتهم للنبي ﷺ ومعايشتهم ظروف نزول القرآن وعمقهم في اللغة العربية ، وعدم تأثرهم بالدخيل عليها فلا غرو أن كانوا في التفسير نجوم سمائه ومعَالم طريقه وينابيع فيضه فهم أدرى بما ثبت عن الرسول الأمين عليه أفضل الصلاة والتسليم.

د ــ اللغة العربية

رابعها: اللغة العربية لأنها وِعاء القرآن وكثير منه لا تتوقف معرفة المراد به إلى النقل وإنما تكفي لذلك معرفة لغته وفهم أصولها ، لذلك نـــرى أباحيانالأندلسي وغيره من المفسرين يشددون النكير على الذين يَقْصِرون تفسير القرآن على ما أثر عن الصحابة والتَّابعين حتى قال أبو حيان في البحر: «في الذي يدرس اللغة التركية ويتقن مفرداتها ويعرف مركباتها ويدرك

مدلولات هذه المركبات لمعرفته الدقيقة بأساليبها ، هل عليه إذا جاءه كتاب باللغة التركية أن يرجع إلى «سنقرا» التركي أو «سنجرا» للاستفهام عن مدلول الكتاب ولا يكفيه ما عرفه بنفسه من مراده ؟» ثم قال: «وهل الذي يقول ذلك يُعَدُّ من عقلاء الناس ؟ وقال كذلك: القرآن لايَلْزم الرجوع في كل ما يشتمل عليه إلى ما أُثر عن الصحابة والتابعين لأنَّ الله أنزله هداية لكل الناس ويسره للذكر».

وقَسَّم العلامة ابن تيميّة التفسير إلى قسمين:ما يحتاج إلى النقل ومالا يحتاج ، وقسم المنقول إلى قسمين: إما أن يكون منقولاً عن المعصوم أو عن غيره ، فإن نقل عن المعصوم شيء وثبت سنده قطع كل حجة وأخرس كل لسان.

وما نقل عن الصحابة فالنفس إليه أسكن مما نقل عن غيرهم ، ثم قَسَّم ابن تيميّة المنقول عن الصحابة الذي يختلفون فيه إلى قسمين:ـــ

إما أن تُمْكِن معرفة الصحيح منه أو لا..وقال إن غالب النوع الثاني مما لا نحتاج إليه في الاعتقاد ولا في العمل ومَثَّلَ لذلك باختلافهم في لون كلب أصحاب الكهف واسمه ، واختلافهم في البعض من بقرة بني إسرائيل الذي ضُرب به الميت فعاش ، واختلافهم في نوع ألواح سفينة نوح ومقاديرها.

ثم أوضح ابن تيميّة أن ما يمكننا أن ننتفع بمعرفة الصحيح منه في العمل أو تقوية العقيدة يعود إلى النوع الثاني..ثم ذكر بعد ذلك ما لا تتوقف معرفة المراد منه على النقل وقال إنه كثير في القرآن ولكنه ذكر عيبين كثيراً ما يتلبس بهما الذين يفسرون بالاستدلال:ـــ

الأول: أنهم يُحَمِّلون الألفاظ ما لا تتحمله من المعاني حتى يمكنهم تسخيرها للدلالة على مفاهيم معينة قد أُشربت بها أفكارهم ، فإن كانت هذه المفاهيم من الحق فخطوهم وارد من طريق الاستدلال ، وإن كانت من الباطل فخطؤهم مركب من خطأين، لأنهم أخطأوا في الاستدلال وفي المستدل عليه ، ومَثَّل للأول بما يكون من الفقهاء والوعاظ والصوفية من الاستدلال بآيات من القرآن على أمور حقه ، ولكن لاتدل عليها الآيات ومثل للثاني بما يكون من أهل المعتقدات الزائغة من حَمْل آيات القرآن على ما يعتقدون مع دَلالتها على خلافه ، وقال: إن كل ما يكون من باطل في كلام الفقهاء والصوفية والوعاظ فهو داخل في القسم الثاني.

الثاني: غفلتهم عن الظروف التي نزل فيها القرآن والمصدر الذي تنزل منه إذ لابد في معرفة الخطاب من النظر إلى حال المخاطِب والمخاطَب ، والجو الذي كان فيه الخطاب ، وبما أنَّ القرآن هو كلام الله تعالى الذي خاطب به خلقه يجب أن تراعىٰ في تفسيره عظمة الخالق سبحانه وكبرياؤه كيف والناس أنفسهم تختلف مقاصد خطابهم باختلاف حالات المخاطبين واختلاف مقامات الخطاب فخطاب السخط غير خطاب الرِّضىٰ وإن كانت العبارة واحدة ،وخطاب الضعيف غير خطاب القوي ، لذلك يجب على المفسر أن يدرك هذه الدقائق فيتفطن لماذا كان الخطاب يدل على التوبيخ أو على الإقرار؟ وإذا كان يستظهر منه التحريم أو الإباحة ، ومما مَثَّل به لذلك همزة الاستفهام التي تفيد تارة التوبيخ وتارة التقرير وتارة النفي وتارة طلب الفهم.

أما الذين لا يرون تفسير القرآن إلا بالمأثور فحجتهم حديثان ، أولهما ماروا‌ه النسائي والترمذي وأبو داو د عن رسول الله ﷺ أنه قال: (من فسر القرآن برأيه فأصاب فقد أخطأ) ، والثاني ما رواه ابن عباس-رضي الله عنهما-

عن النبي ﷺ أنه قال: (من فسر القرآن برأي ــ وفي رواية من فسر القرآن بغير علم ــ فليتبوأ مقعده من النار) أخرجه الترمذي وأبو داود.

ومن هنا نرىٰ كثيرا من العلماء كانوا أميل إلى الحيطة والحذر في تفسير القرآن خوفا من الوقوع في الخطأ وخشية من استحقاق الوعيد ، ولقد حُدِّثت عن أحد مشايخنا أنه بدأ يؤلف تفسيرا للقرآن حتى إذا وصل إلى قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ﴾(الحاقة/٤٥ ، ٤٦) قام إلى ما حرره فمزقه ، ولكن نجد الجانب الآخر من العلماء وهم الذين تشجعوا على القول في التفسير والتأليف فيه لهم ما يبرر اتجاههم ويؤيد مواقفهم ، وقد تكلم عن الحديثين كل من ابن عطيه والقرطبي وابن تيميّة وأبي حيان والزركشي والماوردي والألوسي وملخص ما قالوه جميعا ، أنَّ الذي يُفسر القرآن برأيه إما أن يكون جامعا لما يحتاج إليه المفسر من دراية في اللغة العربية ومعرفة بأسباب النزول وحِفْظ للمأثور فهذا لاحرج عليه إن فسر آية بما انقدح في ذهنه من معنىٰ تُوحيه الدلائل وتسوقه القرائن ولو لم يُسبق إليه شريطة عدم مخالفة ما صح عن الرسول ﷺ ، وإن كان بخلاف ذلك فهو الجدير بهذا الوعيد لأنَّ الجاهل إن تسور على معنىٰ القرآن برأيه من غير أصل يعتمد عليه ولا دليل يهتدي به فهو مخطيء ولو أصاب الحق ، واستدل هؤلاء لرأيهم هذا بما جاء في كتاب الله من تنبيه على الاستنباط كما في قوله تعالى: ﴿لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَه مِنْهُمْ﴾(النساء/٨٣) ، كما استدلوا أيضا بما روي عن الإمام علي أنه سئل: هل خصكم رسول الله ﷺ بشيء ؟ فقال : «لا إلا بما في هذه الصحيفة وإلا فهما يؤتاه العبد في كتاب الله» ، وبهذا يتضح رجحان القول بجواز التفسير بالرأي لمن جمع الشرائط التي يلزم توفرها في المفسر كما أسلفنا ولم يصدر رأيه عن هوى وإنما كان ناتجا عن النظر والتأمل في مصادر التفسير مع مراعاة الظرف الذي نزلت فيه الآية المفسرة.

أطوار التفسير

تفسير التابعين

لقد تلقى التابعون العلم عن أصحاب رسول الله ﷺ وحملوه إلى من بعدهم محافظين عليه بكل دقة وأمانة،وقد كان مما تلقوه عنهم تفسير القرآن ، ولكنهم دخلوا به طورا جديدا بسبب ما حصل من دخول الشعوب المختلفة في الإسلام حاملة معها ثقافاتها المتنوعة ومن هؤلاء كثير من أهل الكتاب ، وقد كان التابعون يحرصون على الاستفادة منهم في غير ما يتعلق بالعقيدة والعبادات ، إذ العرب الذين بُعث النبي ﷺ بينهم كانوا أُميين لا يحسنون القراءة ولا الكتابة فلم يكن لديهم ما عند الكتابيين من أنباء الأمم السالفة مع أنبيائها ، ومن أخبار هذا الكون وخلقه وفنائه ، والقرآن الكريم جاء ليربط الكائن البشري بهذا العالم الفسيح ليكون مسرح فكره ومبعث اعتباره،وقد جاءت آياته مشيرة إلى كثير من الأمور المتعلقة بطبيعة الكون وخلقه وفنائه بما في ذلك الإنسان نفسه ، وبما أنَّ هذه الآيات كانت تتضمن هذه الحقائق إجمالا فقد كان المسلمون بطبيعة الفطرة البشرية التي تشوق إلى الحقائق الغيبية يشرئبون إلى معرفة تفاصيل ما جاء به القرآن ، وبما أنَّ السنة النبوية لم توضح كل هذه الأمور إلا ما يتعلق بالعقائد والعبادات والشرائع من أحكام القرآن ، وإنما وكلت اكتشاف هذه الحقائق الكونية المشار إليها في الكتاب إلى ما يتوصل إليه الإنسان من بحوث فإن هؤلاء لم يجدوا أمامهم مصدرا لاستقاء هذه المعلومات إلا ما يقوله مسلمة أهل الكتاب.

ولا نشك أنهم كانوا آخذين بالحيطة والحذر فيما يتعلق بأمور الدين ، ومن هنا نرى أقوال أهل الكتاب قد تركت بصماتها على تفسير

التابعين في الآيات المتعلقة بخلق الكون أو بأنباء الأمم السابقة مع رُسلها. وهذا الذي دعا المحققين إلى تمحيص أقوالهم ، ولأجل قلة نقل الصحابة عن أهل الكتاب قال ابن تيميّة:(إن القلب إلى ما يقولونه أسكن) ، وقال من قال بأن قول الصحابي في التفسير له حكم المرفوع ، ولم يعط هؤلاء تفسير التابعي هذه الدرجة من القبول ، وإن حكىٰ العلامة الزركشي في «البرهان» قولين للإمام أحمد في الاعتماد على تفسير التابعي ، وذكر أنَّ المفسرين كانوا ينقلون أقوال التابعين معتمدين عليها ، والتابعون في نقلهم عن أهل الكتاب لم يكونوا غير معتمدين علىٰ أصل ، فقد أخرج البخاري عن ابن مسعود رضي الله تعالى عنه-عن النبي ﷺ أنه قال: (بلغوا عني ولو آية ، وحدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج ، ومن كذب عليّ فليتبوأ مقعده من النار).

غير أن بجانب هذه الإباحة في التحديث عن أهل الكتاب نجد النهي عن تصديقهم أو تكذيبهم فيما حدثوا به ما لم يتبين حقه أو باطله ، فقد روى البخاري أيضا عن أبي هريرة-رضي الله عنه-أن النبي ﷺ قال: (إذا حدثكم أهل الكتاب فلا تصدقوهم ولا تكذبوهم ولكن قولوا آمنا بالله وما أُنزل الينا..الخ) ، ومن هنا نفهم أن التحديث لأجل الاستشهاد لا الاعتماد كما يقول الحافظ ابن كثير في مقدمة تفسيره ، وقد أخذ المتأخرون من علماء التفسير وغيرهم يمحصون هذه الروايات تمحيصا علميا فاتضح لهم بطلان كثير منها وقد أدى بهم ذلك إلى تكذيب كثير من أهل الكتاب الذين أسلموا ككعب الأحبار ووهب بن منبّه بسبب عزو هذه الروايات إليهم.وممن صرح بتكذيبهما العلامة السيد محمد رشيد رضا في تفسيره المنار معتمدا في ذلك على خلو نسخ التوراة الموجودة الآن من كثير مما نسبا إليها وأبدى السيد رشيد رضا أسفه البالغ على اغترار الجرح والتعديل بهما ، كما أبدى إعجابه بنباهة ابن تيميّة الذي كان يميل إلى التحفظ من قبول ما يرويان وقد

كان ذلك قبل أن يتبين كذبهما فكيف وقد تبين ، ونحن نرى في المسارعة إلى تكذيبهما شيئا من الخطورة فإنهما بإسلامهما قد جبّا كل ما سبق منهما قبله ، وللمسلم حقوقه وحرماته منها: عدم رميه بكبيرة مالم يصح ارتكابه لها والكذب من الكبائر خصوصا إن كان في أمور الدين ، ورجال الجرح والتعديل قد وثقوهما وقبلوا رواياتهما ولا نشك أنهم كانوا لا يسارعون إلى التوثيق،أما ما نسب إليهما من عزو أشياء إلى التوراة لا توجد فيها فعلينا أن ننظر فيه من زاويتين:

الأولى: أسانيد تلك الروايات التي تتصل بهما ، فإن الناس الذين كذبوا على رسول الله ﷺ ونسبوا إليه ما لم يقله وما لم يفعله لا يتورعون عن الكذب على كعب الأحبار ووهب بن منبه وغيرهما.

الثانية نسخ التوراة الموجودة بيننا من حيث كونها متفقة مع التوراة التي يعزو إليها كعب ووهب بن منبه ما يعزوان أو مختلفة مع علمنا أن اليهود لم يكونوا يتورعون عن إضافة ماليس في التوراة إليها وحذف ماهو ثابت منه في أي وقت ، والقرآن نفسه قد أخبر بذلك عنهم ، ولقد أحسن العلامة ابن كثير فيما قاله في تفسيره عن قصص أهل الكتاب حيث قسم ما يحدثون به إلى ثلاثة أقسام:ــ

القسم الأول: ما اتضح حقه بموافقته الكتاب والسنة فهذا يجب قبوله.

القسم الثاني: مااتضح لنا باطله بمخالفتهما فهذا يجب رفضه.

القسم الثالث: ما لم يكن من هذا القبيل ولا ذلك فهذا يدخل تحت قول الرسول ﷺ (إذا حدثكم أهل الكتاب فلا تصدقوهم ولا تكذبوهم).

وفي هذا الوقت يمكن تمحيص هذه الأخبار وبالمحك العلمي أكثر من ذي قبل ، فإن كثيرا مما حشا به المفسرون والسابقون تفاسيرهم من الإسرائيليات قد اتضح لنا بطلانه على ضوء العلم الحديث وإذا تُسومح في نقل أولئك المفسرين لها في تلك العصور فإنه لا يُتسامح في نقلها في هذا العصر بعدما وضح الصُبح لذي عينين وخصوصا مع ظن الجهله الأغبياء أنَّ هذه الأخبار من صميم دين الإسلام فإذا ظهرت لهم مصادمتها للعلم كان أثر هذه النتيجة السلبي على الإسلام والعياذ بالله.

وفي مقابل هؤلاء العلماء المحققين الذين يتشددون في نقل الأخبار التي تُشم عليها رائحة إسرائيلية نجد جماعة آخرين يبالغون في تبرير النقل عن أهل الكتاب من حيث إنهم كانت لديهم بقية من الكتاب كما صرح بذلك القرآن فلا يصح نسبة كل ما يقولونه إلى الكذب ، كيف ورسول الله ﷺ قد نهىٰ عن تكذيبهم وتصديقهم ، ومن هؤلاء جمال الدين القاسمي ــ من علماء النصف الأول من القرن الرابع عشر الهجري-في تفسيره «محاسن التأويل» وقد عزّز هذا الرأي بنقل كثير من كلام المتقدمين والمتأخرين الذين أباحوا التحديث عن أهل الكتاب واستدل بما رُوي عن بعض الصحابة أنهم كانوا يسألون مسلمة أهل الكتاب عن أشياء تخفى عنهم وكانوا يحدثون بما يقولونه لهم ، كما استدل بما رُوي عن عبدالله بن عمرو بن العاص أنه رجع من بعض المغازي حاملا زاملتين من كُتب أهل الكتاب فكان يقرؤها فيحدث بما فيها ، وممن نقل كلامهم القاسمي في تعزيز القول بجواز التحديث عن أهل الكتاب العلامة البقاعي الدمشقي ومهما قيل في ذلك فلا بد من اشتراط عدم التصادم مع الكتاب والسنة من ناحية وعدم التّصادم مع العلم الحديث من ناحية أخرى.

طبقات المفسرين من التابعين

والمفسرون في عهد التابعين على طبقات بحسب اختلاف المدارس التي تخرجوا منها،وكانت مدرسة حبر الأمة وترجمان القرآن ابن عباس رضي الله عنهما على قمة هذه المدارس في علوم التفسير،لذلك اعتبر تلامذته في مقدمة المفسرين من التابعين وقد اشتهر منهم أربعة ، مجاهد وسعيد بن حبير وعكرمة وطاوس وهم من أهل مكة ، وتلي مدرسة ابن عباس مدرسة ابن مسعود -رضى الله عنه- ، لذلك كان أصحابه كعلقمة بن قيس والأسود بن يَزيد وابراهيم النخعي والشعبي في المرتبة الثانية ،ويلي هؤلاء أهل المدينة أصحاب زيد بن أسلم ، وإذا كان اصحاب ابن عباس على رأس قائمة المفسرين في عهد التابعين فلا ريب أن الإمام أبا الشعثاء جابر بن زيد كان ضليعا بعلوم التفسير فإنه من أشهر من صحب ابن عباس،ومن ألصق تلامذته به وأكثرهم أخذاً عنه،وقد كان ابن عباس-رضي الله عنهما-معتزا بتلميذه جابر بن زيد،رحمه الله إلى حد بعيد،ومعترفا له بما يجدر أن يعترف به مثله لمثله ومما قاله عنه:

عجباً لأهل العراق! يحتاجون إلينا وعندهم جابر بن زيد لو قصدوا نحوه لوسعهم علمه ، هذا مع العلم بأن جُلَّ دراسة الناس في ذلك الوقت أو كلها تدور حول القرآن والحديث ، وهما مقياس التقدم في العلم ثم توالت جماعات التفسير بعد التابعين حاملة أمانة العلم،ومؤدية لها على أحسن ما ينبغي حتى جاء العلامة أبو جعفر محمد بن جرير الطبري الذي جمع في تفسيره الكبير ما تفرق من أقوال المفسرين من قبل وقد بقي كتابه منهلا ثر لكل المفسرين الذين جاءوا من بعده إلى وقتنا هذا لفوائده الجمة ونسبته الأقوال إلى أصحابها بالأسانيد المتصلة بهم وإن كانت هذه الأسانيد لا تخلو من مقال عند علماء النقد.

أشهر المفسرين في القرن الثالث الهجري :

وفي عصر محمد بن جرير الطبري لمع ببلاد المغرب كوكب وقاد من كواكب التفسير هو الإمام هود بن محكم الهواري الإباضي من جبال أوراس بالقطر الجزائري وهو من علماء القرن الثالث الهجري وطريقته في التفسير قريبة من طريقة الطبري .. ، ولايزال تفسيره مخطوطاً في أربعة مجلدات ، وهود بن مُحك الهواري ــ رحمه الله ــ مسبوق في التفسير من أحد كبار أئمة العلم والعمل من الإباضية وهو الإمام عبد الرحمن بن رستم الفارسي الذي اشتهر في تراجمه أنه فسر القرآن كله ، ولكن تفسيره لم يُعثر عليه في زماننا ، والإمام المذكور معدود في طبقة تابعي التابعين فإنه أخذ العلم عن أبي عبيدة بن مسلم بن أبي كريمة التميمي في النصف الأول من القرن الثاني الهجري وأبو عبيدة (رحمه الله) ــ وإن كان جُل ماأخذه عن جابر بن زيد وجعفر بن السماك (رحمهما الله) ــ فإنه معدود في التابعين ، إذ جاء في بعض رواياته في المسند الصحيح لتلميذه الربيع ابن حبيب (رحمه الله) سمعت جماعة من الصحابة .. وقد قال كثير من العلماء الذين ترجموا له أنه أدرك من أدركه جابر من الصحابة وهذا واضح ، فإن البصرة كانت في زمانه مركز إشعاع وقد مات أنس بن مالك الصحابي الجليل بعد موت جابر (رضي الله عنهما) ببضعة أيام ، فلا ريب أن أبا عُبيدة كان يتصل بهؤلاء الصحابة الأعلام للإستفادة منهم لذلك نعتبر تفسير الإمام عبد الرحمن بن رستم من التفاسير التي أُلفت في وقت مبكر من تاريخ الإنتاج العلمي في الإسلام .

أثر العلوم الحديثة على التفسير :

وبعد هذه المرحلة التي ذكرناها من تاريخ التفسير تشعبت المسالك بالمفسرين نتيجة تدفق علوم جديدة على الساحة الإسلامية منها العلوم العربية

بمختلف شُعبها وعُلوم الفلسفة والكلام والتصوف،وكانت همم الناس مختلفة الاتجاهات في أصناف هذه العلوم،وقد ترك ذلك أثرا واضحاً على التفاسير التي أنتجوها فنجد بعضها قد عني بالبلاغة لأجل بيان إعجاز القرآن البياني ، وممن نحا هذا المنحى العلامة الكبير جار الله الزمخشري في تفسيره «الكشاف» فقد عني فيه ببحث الأسلوب البياني في القرآن وما فيه من نكت طريفة ومعانٍ لطيفة ، وقد أجاد وأبدع في ذلك وإن لم يخل تفسيره من مقاصد كان يهدف إليها ، ونجد بعضها قد عني بالإعراب كتفسير الزجاج «معاني القرآن» وتفسيره أبي حَيان الأندلسي «البحر المحيط» ، ونجد بعضها قد عني بمناقشة المذاهب الكلامية،كما نجد جماعة من المفسرين قد عنوا بالأحكام الفقهية وبحث أدلتها والنظر في أصولها ومن هؤلاء الإمام القرطبي في تفسيره «الجامع لأحكام القرآن» الذي جمع فأوعى من أحكام الفقه ما جعله كثيرا مَا يتجاوز حدود التفسير ، وقد عنى بعضهم بتفسير آيات الأحكام وحدها ومن هؤلاء ابن العربي والجصاص وابن خويز منداد وكذلك أبو الحواري العُماني الذي فسر خمسمائة آية من القرآن تدور حول الأحكام الفقهية ويرى بعض الباحثين نسبة هذا التفسير إلي شيخ أبي الحواري وهو العلامة أبو المؤثر الصلت بن خميس.

العناية بتمحيص روايات التفسير:

وقد عني جماعة من المفسرين بتمحيص روايات التفسير وتفنيد الصحيح من غيره من أسانيدها كما صنع ابن كثير ، وعني آخرون بالوعظ والتذكير في القرآن وآخرون اشتغلوا بالقصص فحشروا في تفاسيرهم ما يرفضه العقل ويصادمه النقل من أخبار جلها من كذب اليهود،ومما يؤسف له أن قطب الأئمة في تفسيره هيميان الزاد الذي ألفه في باكورة عمره ومستهل شبابه وثق بما نقله المفسرون من قبله من هذه الأخبار وقد تنبه لذلك بنفسه

وأسف بعد فوات الفرصة بسبب انتشار الكتاب فاستدرك ذلك بتأليف تفسيرين آخرين خالصين مما يشوب الهيميان أحدهما «داعي العمل ليوم الأمل» وثانيهما «تيسير التفسير» ومن حيث إن الهيميان من بواكير عمل مؤلفه-رحمه الله-كانت عنايته فيه بجمع ما قيل قبله أكثر من عنايته بالبحث والتمحيص ، وقد سَمِعت أنه تمنى لو أمكنه جمع نسخ هذا الكتاب لتمزيقها ولكن هيهات ذلك،فقد ملك السهم قصده بعدما طُبع وانتشر في أنحاء مختلفة ، وقد حاول أحد الكاتبين أن يجد من هيميان الزاد ثغرة يوجه منها سهمه المسموم إلى مؤلفه وإلى مذهب المؤلف ظانًّا أنه يستطيع أن ينسج من حقده الأسود رداء يجلل به الشمس ليخفي ضوءها عن الأبصار،ولو أن هذا الكاتب كان من طلاب الحقيقة لحاول النظر في تفسيري القطب الآخرين ومقارنة ما فيهما بما في الهيميان، ولو فكر فيما دونه المفسرون من قبل لعرف أن قطب الأئمة صاحب الهِيميان لم يُحدث بدعا من الأمر في تفسيره بنفسه، وإنما كانت ثقته بأقوال العلماء من قبله على اختلاف مذاهبهم هي منشأ أسلوبه الذي اتبعه في الهِيميان،ولكن التعصب المذهبي البغيض هو الذي أعمى ذلك الكاتب عن هذه الحقائق الماثلة للأبصار.

تفسير المتصوفة:

وعني جماعة مِنْ المفسرين بالتصوف ولم يخل تفسيرهم من غلو مجانب للحق خصوصا عندما تحول التصوف من علم يُعنى بتربية الضمير وتهذيب النفس،والتزهيد في الدنيا والترغيب فيما عند الله إلى علم أشبه بالفلسفات العقيمة التي لا تحل مشكلة ولا تُصلح فسادا في النفس وقد اختلط التصوف بالآراء الباطنية كما يظهر أثر ذلك واضحا في التفسير الذي يُنسب إلى محيي الدين بن عربي ، وذكر العلامة السيد محمد رشيد رضا أن نسبته الصحيحة إلى القاشاني الباطني الكبير.

وقد خلط جماعة مِن المُفسرين بين التفسير بالمأثور والتفسير الصوفي ، كما نجد ذلك في «روح المعاني» للعلامة الألوسي ، فبعد أن يورد أقوال السلف يتبعها بما ينسبه إلى السادة الصوفية من رموز لا يكاد يُفْهم لها معنىً،وكأنه يرى أن للقرآن باطنا وظاهرا،وهذا موضوع قد أطال فيه العلامة الشاطبي ومع انتقاده لهذا المسلك من التفسير حاول أن يبرره أو يبرر أكثره ، والقرآن الكريم كتاب أنزله الله محكما ليكون هدىً للمتقين وذِكرى للعالمين ولن يكون كذلك إلا إذا كان بعبارات يفهمها الناس ، أما أن يكون القرآن لغزا من الألغاز المُعْمّاه فإنه وإن كان هداية فلن تكون في هذه الحالة عامة للناس ، لذلك لا أرىٰ وجها يبرر تفسير القرآن بالرموز الصوفية،ومَنْ تأمل وصف الله تعالى لكتابه في قوله ﴿وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ﴾ (الشعراء ١٩٢ / ١٩٥) أدرك أن القرآن الكريم خال من هذه المصطلحات المعقدة التي لم تَكُنْ مَعْهودة عِند العرب.

ومما يُلاحظ أن كثيرا من المفسرين قد عُني بحشر مصطلحات الفنون التي يُعنون بها في التفسير فاختفت معاني القرآن الحقيقية وراء ضباب هذه المصطلحات ، ومما لا نشك فيه أن جمهور الناس لا تستسيغها أفكارهم ولا تكتنهها أفهامهم.

الحركة الإصلاحية وأثرها في التفسير:

وبعد هذه الأطوار التي مرّ بها التفسير جاء دور الحركة الإصلاحية التي كان يتزعمها الأستاذ الإمام محمد عبده بعدما أرسى جذورها أُستاذه السيد /جمال الدين الأفغاني وقد تركت هذه الحركة آثارها بارزة في تفسير

القرآن خصوصا بعدما قام الأستاذ الإمام يُلْقِي دروسه التفسيرية في الأزهر الشريف،وكان تلميذه الكبير السيد /محمد رشيد رضا يقوم بدور تدوينها ونشرها في مجلة المنار وواصل بعد موت أُستاذه تفسير ما تبقى من القرآن إلى أن انتهى إلى سورة يوسف،وطابع النزعة الإصلاحية واضح على هذا التفسير وعلى كل التفاسير التي أنتجتها عُقول تلامذة مدرسة الإصلاح التي كان على رأسها الإمام محمد عبده ، وقد امتد شعاع هذه المدرسة إلى آفاق واسعة في الأرض فتأثر الكثير من العلماء العَاملين بمنهجها الإصلاحي يبدو أثر ذلك في دروسهم وتآليفهم ، ومن عُلماء التفسير الذين نهجوا هذا النهج الشيخ الإمام إبراهيم بن عُمر بَيُّوض الذي ظل يُفسِر القرآن الكريم لأكثر من نصف قرن في مسجد القرارة في وادي ميزاب بالقطر الجزائري حتى اختتمه قبيل وفاته بقليل.

وإذا كان الاعتراف بالفضل لأهله فضيلة فإننا نعترف للمدرسة الإصلاحية بفضل السبق في معالجة المشاكل المعاصرة على ضوء القرآن والوقوف في وجه التيارات الفكرية الوافدة من الغرب وتفنيد مزاعم المستشرقين وتلامذتهم ضد الإسلام ومكافحة الخرافات والأوهام التي سيطرت على عقول المسلمين آنذاك.. ومن هنا كان ثناء أقطاب العلماء على هذه المدرسة ومسلكها في التفسير،ومن هؤلاء قطب الأئمة الذي نقل عنه تلميذه العلامة أبو إسحاق أطفيش(رحمهما الله)في مجلة «المنهاج» إعجابه البالغ بتفسير المنار وثناءه عليه ، ونجد إمام المسلمين العلامة محمد بن عبدالله الخليلي (رحمه الله)يثني على كتاب الوحي المُحمدي للسيد /محمد رشيد رضا في رسالته التي وجهها إليه ، وإذا كنا في ثنائنا على المدرسة الإصلاحية متأثرين بالواقع ولسنا مندفعين عن العواطف فإن ذلك لا يمنعنا من أن ننبه على بعض

سلبياتها فإن نشأة هذه المدرسة كانت في ظرف حَرِجْ ومرحلة دقيقة إذ كان الإسلام يعاني من أمرين:

أولهما: ما أُصيب به العلماء من الشلل الفكري والتبلد الذهني والتحجر العقلي،وقد انعكس أثر ذلك على عامة المسلمين فسيطرت عليهم الأوهام والخرافات ، واستولت عليهم البدع والضلالات وكان ذلك كله محسوباً على الإسلام ومعدوداً من صميمه.

ثانيهما: ما رَجَعَت به البعثات التعليمية التي ابتعثت إلى أوربا من أفكار هدامة ومبادىء مصادمة للدين ، فإنهم ابتعثوا وهم خلو من تعاليم الإسلام فأعشى أبصارهم بريق الحضارة الأوروبية الخلاب ، واقتنعوا بالقشور عن اللباب إذ انصرفوا إلى الأدب الأوربي وتركوا العلوم الإدارية والصناعية ، وقد كان ذلك نتيجة مخطط رهيب وضعته أوربا لقصد صرف المسلمين عن دينهم مع بقائهم عالة عليها في الإدارة والطب والصناعة ، وقد استغلت هذه الطائفة التي ابتعثت من بلاد الإسلام ليكونوا معاول هدم لدينهم وقيمهم وأخلاقهم ، وكان أهم ما يسعى إليه هؤلاء الشباب المثقفون هو هدم صرح الإيمان بمعاول العلم الحديث تأسيا بأساتذتهم الأوروبيين الذين قضوا على السلطة الكنسية والعقيدة النصرانية بسلطان العلم وقد فات هؤلاء أن الإسلام يختلف عن النصرانية فهو ينسجم مع العلم ولا يصطدم ، والقرآن الكريم من وجوه إعجازه المتنوعة الإعجاز العلمي كما اعترف الأوروبيون أنفسهم بذلك ، وقد بلغ الحال بهذه الشبيبة أنها صارت لا تؤمن إلا بما يخضع لمقاييس العقل وتجارب العلم.

في هذا الظرف القاسي وبين هذين التيارين المتضادين نشأت مدرسة الإصلاح وكان أهم ماعُنيت به محاولة تحرير عُقول المسلمين مِن الأوهام

والخرافات التي تُحْسَب على الإسلام والتصدي للتُّهم التي تُوجه إلى الدين، وقد نتج عن ذلك محاولة تضييق نطاق الغيبيات في القرآن تلافيا لاتهام الإسلام بالتصادم مع العقل ، ونرى أثر ذلك واضحا في تفسير المنار كالذى نراه فيما أملاه الشيخ محمد عبده وفيما حرره تلميذه السيد /محمد رشيد رضا في قصة آدم في سورة البقرة حيث فسرا آدم بالجنس البشري والشجرة بالشر والملائكة بملكات الخير والشيطان بملكة الشر،ونحو هذا ما جاء في سورة الفيل في تفسير جزء عَم للشيخ الإمام محمد عبده مع أن العقل البشري مهما بلغ فإنه لا يتجاوز حدوده التي أرادها الله له ولا يتجاوز محيط الإنسان المحدود.

على أن كثيرا مـــا تؤثر عــليه البيئة التي يتقلب فيها والمحيط الذي يستمد حكمه منه،ولذلك يتطور العقل بتطور الحياه فيتقبل ما كان يرفضه ويكذب ما كان يصدقه ولأجل هذا القصور في طبيعة العقل كان الحكم في العقائد والأعمال إلى الوحي لا إليه ، وإن كان يصلح في بعض الأحيان طريقا لاستلهام بعض المعلومات ، ولو كان العقل وحده جديرا بسياسة الإنسان لما احتيج إلى الوحي ولأقام الله حجته على عباده دون إرسال رُسُلِه مع أن الحجة إنما تقوم بالرُسل لقوله تعالى ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً﴾ الإسراء / ١٥ ، وما منزلة العقل مع نفاذه وقوة إدراكه إلا منزلة الشاهد وإذا رفض ما نزل به الوحي فذلك دليل قصوره لا دليل قصور الوحي ، والإيمان بالغيب هو أساس هداية الناس واستقامتهم فإن الله تعالى يقول ﴿ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾ (البقرة / ٢) فإذا حاولنا أن نُفسر الآيات الغيبية في القرآن بما يتفق مع مفاهيم البشر ومقاييس العقل سلبنا العقيدة الإسلامية أهم عنصر يتكون منها ، ومع هذا الذي لاحظته على المدرسة الإصلاحية فإنني أشكر لأهلها ما قدموه من خدمة جَلِيلَة للإسلام

ولا يفوتني أن أُنوه بشكر أولئك الذين صحّحوا مسيرة هذه المدرسة ونبهوا على سلبياتها كشهيد الإسلام الأستاذ /سيد قطب في تفسيره القيم «في ظلال القرآن».

الاكتشافات العلمية وأثرها على بعض المفسرين

هذا وقد صَحِبَ نشأة المدرسة الإصلاحية الاكتشافات العلمية التي بهرت العقول وتجلى للناس كثير من آيات الله في الآفاق وفي أنفسهم كما وعد -سبحانه-بذلك فترك ذلك أثرا في تفسير القرآن،وقد أفْرط بعض المفسرين فحاول أن يُخضع الآيات القرآنية لتتفق مع النظريات العلمية وهنا تكمن الخطورة،فإن هذه النظريات معرضة للتغيير والتبديل ، وفي مقابل هذه الطائفة هنالك طائفة فرطت في النظر فحصرت تفسير القرآن في المأثور عن العلماء المتقدمين بقطع النظر عن دلائل العلم الحديث ، والمنهج المعتدل هو أن تُفسر الآيات الدالة على الكائنات بما يتفق مع الحقائق العلمية الثابتة لا النظريات المتطورة حذراً من تعريض القرآن لما تتعرض له النظريات من التبديل والتعديل هذا إن كانت الآيات تدل ألفاظها دلالة واضحة على ما ظهر من خلال الاكتشافات العلمية ، أما إذا كانت دلالتها على ذلك غير واضحة فبحسبنا أن نشير إلى احتمالها أن يكون المقصود بها ما دل عليه العلم حذراً من التقول على الله بما لم يرد ، ولا نشك أن آيات الكتاب العزيز دالة على آيات الكون ومشيرة إلى مالم تصل إليه عقول الناس في عصر نزوله.

وقد جاء فيها الوعد باتضاح معانيها مما يكشفه الله-سبحانه-للناس من آياته في الآفاق وفي أنفسهم لتقوم عليهم حجته ، وهذا واضح في قوله تعالى ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللهِ ثُمَّ كَفَرْتُمْ بِهِ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ ، سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِم حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُم أَنَّهُ

الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيْدٌ ، أَلاَ إِنَّهُمْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقَآءِ رَبِهِم أَلاَ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيْطٌ﴾ (فصلت ٥٣، ٥٤) ،وقد صدق الله وعده فإن الآيات التي في الأنفس والآفاق أخذت تتجلىٰ للناس يوماً بعد يوم لتقوم الحجة بإعجاز القرآن بما يتضح من بيان آياته التي تتحدث عن التكوين الإنساني وعن طبيعة الكون من خلال الاكتشافات العلمية،وهذا الذي أدّىٰ بغير المسلمين من الذين درسوا القرآن ودرسوا علوم الكون إلى الاعتراف بأن القرآن لا يمكن أن يكون نابعا من قريحة بشر وأنه الكتاب السماوي الوحيد الذي بقي حسب ما أنزله الله ، لم تتناوله أيدي العابثين بالتحريف والتبديل كما تناولت الكتب السماوية من قبل ومن هؤلاء المعترفين بهذه الحقيقة التي لا تقبل الشك والجدل الطبيب الفرنسي الدكتور «موريس بوكاي» في كتابه الذي سماه «العلم في التوراة والإنجيل والقرآن» فقد اعترف فيه أن ما في التوراة والإنجيل من الآيات الكونية مع قلته متصادم مع الحقائق العلمية التي أثبتها الاكتشاف ، بينما الآيات العلمية في القرآن مع كثرتها بعيدة عن التصادم مع العلم.

وإذا كان هذا الاعتراف ممن لم يعتنق الإسلام فما أجدر المسلمين أن يدرسوا حقائق الإعجاز في القرآن من خلال دراستهم لآياته ودراستهم لطبيعة هذا الكون،حتى يقيموا الحجة على البشر الضالين الحيارىٰ بصدق القرآن وبأنه حق لا يدنو منه الباطل وهدىً لا يقترب منه الضلال ، ومع أنني لا أؤيد الجمود على أقوال العلماء المتقدمين في تفسير آيات الكون في القرآن فإنني كذلك لست أؤيد أولئك الذين اندفعوا إلى حمل الآيات القرآنية على كل ما شاع من النظريات في الوسط العلمي،وإنما أختار المسلك الوسط الذي أشرت إليه ، وأرفض في تفسير القرآن كل طريقة لا تتفق مع روح

القرآن ومع أسلوبه العربي المبين كتفسير كلماته بالأرقام لمنافاته وصف القرآن الذي جاء في قوله تعالى ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ﴾ (الشعراء : ١٩٥)

هذا وإذا كان المتقدمون قد بالغوا في حشر المصطلحات الفنية المتنوعة في التفسير حتى كادت تختفي وراءها معاني القرآن ومقاصده ، فإن جُلَّ المفسرين في العصر الحديث اتجهوا اتجاها مُعاكِساً فرفضوا إيراد هذه المصطلحات ولو اقتضته الضرورة ، والذي أميل إليه وأرجو أن أُوفق له هو الاقتصار على ما اقتضت الضرورة ذكره منها، للتوصل إلى الإفهام بمعاني الآيات والله تعالى ولي التوفيق وهو حسبي وكفى.

نبذة من إعجاز القرآن

معنىٰ الإعجاز الإصطلاحي لا يختلف عن معناه الوضعي فهو لغة بمعنى الغلبة من جهة لأخرى حتى تصير الجهة المغلوبة عاجزة عما قدرت عليه الغالبة ، والعجز ينقسم إلى أقسام ، عجز الضعيف أمام القوي وعجز القوي أمام الأقوى وعجز الأقوى أمام الشاذ وعجز الكل أمام الخالق سبحانه وتعالى الذي لا يعجزه شيء ، والإعجاز اصطلاحا ما ييسره الله سبحانه على يد من يبعثه بدعوته من رسله إلى خلقه من أمر خارق للعادة لا تتوصل إليه طاقات الخلق مصدق لدعوى الرسول.

شروط المعجزة:

واشترط القرطبي للمعجزة خمسة شروط:ـــ

الأول: أن تكون مما لا يقدر عليه البشر ، فلو جاء من يدعي الرسالة في أزمنة النبوات وقال آية نبوتي أن أعمل كذا مما هو مقدور للبشر كالحركة والسكون والأكل والشرب والقيام والقعود لم يكن ذلك من الإعجاز في شيء ولم يكن بالتالي دليلا على صدق نبوته.

الثاني: أن تكون خارقة للعادة ، فلو قال مدعي الرسالة إن آية نبوته أن تطلع الشمس من المشرق أو أن تغرب من الغرب أو أن يتعاقب الليل والنهار أو أن يكون الشتاء بارداً والصيف دافئا فليس ذلك من الإعجاز في شيء، لأنه من المألوف قبل دعواه بخلاف ما إذا كانت آيته مما لم تجر به العادة كنبع الماء من بين الأصابع وتحول العصا إلى ثعبان وخروج ناقة من صخرة.

الثالث: أن تكون مقرونة بدعوى الرسالة ، فلو ظهر الأمر الخارق للعادة على يد من لم يدع النبوة لم يكن ذلك معجزا وإنّما يُنظر في الذي يجري على يديه فإن كان صالحا فكرامة وإن كان كافرا فاستدراج ، وإن كان من عامة الناس فمعونة.

الرابع: أن تكون مؤيدةً لدعواه ، فلو ظهر على مدعي النبوة أمر خارق للعادة دال على كذبه فذلك تكذيب وليس بإعجاز ، وذلك نحو ما روي عن مسيلمة أنه تفل في بئر ليكثر ماؤها فجفت وتفل في عين أعور لتبصر فعورت أختها.

الخامس: ألا يقدر أحد على الإتيان بمثلها فلو جاء أحد بمثل ما جاء به لم يكن ذلك معجزة ، لذلك نجد كتاب الله تحدى الكافرين بأن يأتوا بمثل القرآن إن كانوا صادقين فقد قال عز من قائل ﴿أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ، فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ﴾ (الطور: ٣٣) وقال ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ﴾ (هود: ١٣) وقال ﴿قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنتُم صَادِقِينَ﴾ (يونس: ٣٨) وقال ﴿وَإِنْ كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّنْ مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنتُم صَادِقِينَ﴾ (البقرة: ٢٣)

وقد اقتضت حكمة الله أن تقترن دعوات المرسلين بمعجزات تتحدى الأمم وتبرهن على صدقهم إذ تنزل منزلة قول الحق سبحانه ــ لو أسمعنا قوله ــ ﴿صَدَقَ عَبْدِي فَصَدِّقُوه﴾.

كما اقتضت حكمته تعالى أن تتنوع هذه المعجزات بحسب الظروف التي كانت تُحيط بتلك الرسالات فمعجزة إبراهيم (عليه السلام) كانت تحول النار الموقدة برداً وسلاماً عليه ، وذلك ــ كما استظهر بعض العلماء المحققين ــ بسبب كون عبدة النار على مقربة من هذا الحادث فثبت لهم به أن النار مصرفة وهو دليل كونها مخلوقة فلا تحق لها العبادة.

ومعجزة موسى عليه السلام كانت العصا التي أبطلت سحر الساحرين،وذلك لأن الزمن الذي نشأ فيه موسى كان السحر فيه قد بلغ شأواً بعيدا خصوصا في البقعة التي تنزلت فيها رسالة الله عليه وكان الناس على خبرة بطرق السحر وفنونه فاتضح لهم أن ما جاء به موسى هو أمر فوق السحر وأنه ليس بمقدور الناس أن يأتوا بمثله ، وكذلك بقية الآيات التسع فإن أؤلئك القوم كانوا أهل زرع ، وكانوا على معرفة بما اعتيد حدوثه في الزرع من الآفات ولكنهم لم يألفوا ولم يعرفوا مثل هذه الآفات التي شاء الله-سبحانه أن تكون آيات مفصلات دالة على صدق رسالة موسى عليه السلام.

أما نبي الله عيسى عليه السلام فكانت معجزته إبراء الأكمه والأبرص وإحياء الموتى ، ويرد كثير من العلماء ذلك إلى رقي الطب في عهده ومعرفة الناس بما يمكن علاجه بالوسائل الطبية وما لايمكن ، ومن حيث أن الطب لم يتوصل إلى مثل هذه الأمور دل ذلك على أن ما جاء به عيسى ليس هو من الطب في شيء،وبالتالي ليس من مقدور البشروإنما هو أمرإلهي يدل على صدق رسالته.غير أن العلامة أبا زهرة في كتابه (المعجزة الكبرى) يرى أن بني إسرائيل لم يكونوا أهل طب وإنما كانوا قوما ماديين لا تتجاوز أفهامهم المادة إلى ما وراءها ولا تصدق عقولهم بالأمور الغيبية ولذلك كانت التوراة

الموجودة بين أيدينا اليوم ــ وهي منسوخة من توراتهم المحرفة ــ يقل فيها ذكر الأمور الغيبية حتى أن الروح مفسرة فيها بالدم ، ويرد أبو زهرة انتشار الفلسفة المادية بين الإسرائيليين آنذاك إلى الفلسفة الأيونيّة والفلسفة اليونانية اللتين كانتا تسيطران على عقولهم ، ومن هنا يرى أبو زهرة أن الآيات التي قرنت بها دعوة عيسى عليه السلام جاءت لإبطال سلطان المادة ، وتعزيز جانب الروح وهي ملائمة لجو الرسالة المذكورة،فإن أولئك القوم المرسل إليهم لا يؤمنون إلا بارتباط المسببات بأسبابها ولا يصدقون بإمكان الانفصال بينهما بسبب تأثير الفكرة المادية عليهم حتى أنهم كانوا يردون نشأة الكون إلى فلسفة مادية بحتة وذلك أنهم جعلوا حدوثه بمقتضى النظام القانوني من غير إرادة من الخالق ، وكأن هذه المعجزات كانت مقوية لجانب الروح على جانب المادة فهي أيضا مبطلة لقانون الترابط بين المسببات والأسباب من تلقاء نفسها ، وإنما تدل على أن ترابطها بحكمة قوي قاهر يدبرها ويصرفها ، وقد كانت ولادة عيسى عليه السلام من غير أب مع طهارة أمه وعفتها دليلا على بطلان هذا الترابط عندما يشاء الله-سبحانه-وقوع أي أمر من غير سبب طبيعي مألوف.

ولست أجد أي مانع من الجمع بين رأي العلامة أبي زهرة ورأي العلماء الآخرين الذين يرون أن رسالة عيسى كانت في وسط طب وحكمه ، فإن دعوة عيسى عليه السلام،كانت في القسم الشمالي من الشرق الأوسط وكان نفوذ الإمبراطورية الرومانية ممتدا إليه ، والروم كانوا أهل طب وحكمه كما هو معروف عنهم ويدلنا على ذلك أن رسول الله ﷺ همّ أن ينهى عن الغيلة لولا أنه تذكر أن فارس والروم يفعلونها ولا تضر بأولادهم ، .

وطبيعي أن تمتد الحضارة الرومانية إلى البقاع التي استعمرها الرومان لا سيما مع الاحتكاك الذي يكون بين الحاكمين والمحكومين ، والاحتكاك نفسه هو الذي نقل إلى بني إسرائيل الفلسفة الأيونية والفلسفة اليونانية وعلى أقل تقدير فإن بإمكان بني إسرائيل أن يعرفوا ما يمكن علاجه بوسائل الطب وما لايمكن ، هذا مع أن تلك الأرض التي قامت عليها دعوة عيسى عليه السلام هي ملتقى لحضارات متعددة عبر تاريخ طويل فلا غرو أن كان أهلها على درجه من علم الطب.

الفارق بين معجزة النبيين السابقين ومعجزة القرآن الكريم

وبما أن تلك الرسالات التي جاء بها أولئك المرسلون كانت رسالات موقوتة بأزمنة محدودة فإن أثر معجزاتها كان محدودا أيضا لا يكاد يتجاوز الجيل الذي عايشها بخلاف الرسالة العالمية الخالدة التي تسطع شمسها على الوجود ما بقي الدهر ، وهي رسالة محمد عليه أفضل الصلاة والسلام ، ومن هنا كانت معجزته خالدة خلود رسالته لا يزيدها تعاقب الجديدين إلا تجددا ولا يعتريها من تألق الثقافات في آفاق الفكر إلا مزيد من السطوع والإشراق ولقد أوضح النبي ﷺ الفارق بين معجزته ومعجزات النبيين من قبله في قوله:ـــ(مَا مِنْ الأنبياء من نبي إلا وقد أعطي من الآيات ما مثله آمن عليه البشر وإنما كان الذي أوتيته وحيا أو حاه الله إليّ ، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعا يوم القيامة) « رواه الشيخان وأحمد والنسائي » . وقد أكرم الله رسوله ﷺ بمعجزات أخرى صحت بها الروايات كنبع الماء من بين أصابعه غير أنها لم تكن في مقام التحدي ، وإنما هي إكرام من الله لعبده ورسوله ﷺ ، أما إذا طلب قومه منه أن يأتيهم بآية فإنهم لا يردون إلا إلى القرآن بدليل قوله تعالى ﴿ وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّآ أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ ﴾ (الاسراء ٥٩)

وقوله ﴿ وَقَالُوا لَوْلَا يَأْتِينَا بِآيَةٍ مِنْ رَبِّهِ أَوَ لَمْ تَأْتِيهِمْ بَيِّنَةُ مَافِي الصُّحُفِ الْأُولَىٰ ﴾ (طه ١٣٣) وقوله ﴿ أَوَ لَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ﴾ (العنكبوت ٥١) وهذا لأن الله ــــ سبحانه ــــ أراد أن يُقيم دَلِيلا على صدق نبوته من نفس الرسالة التي بعث بها لتقوم حجتها على الدهر ولو كانت معجزته ﷺ كمعجزات النبيين من قبله لأتىٰ عليها الدهر كما أتى على مَا قبلها وعَادت نسيا منسيا فإنا ليس لنا من دليل على ثبوت تلك المعجزات إلا القرآن الذي هو معجزة الأبد وبقية معجزاته ﷺ لم نحط بها علما إلا من تواتر الأخبار بها بخلاف القرآن فإنه دليل نفسه إلى أن تقوم الساعة .

ثبوت الإعجاز القرآني

والإعجاز القرآني ثابت بالعقل والنقل والتاريخ ، فآيات التحدي فيه شاهدة وصريحة في دعوة المشركين إلى الإتيان بمثله إن كانوا صادقين بطريقة تثير حفائظهم وتلهب مشاعرهم وتؤجج حماسهم ومع ذلك وقفوا حيارى خانعين ، وطولبوا بأن يأتوا بعشر سور مثله وبسورة واحدة فقط ، فما الذي منعهم ـــ وهم الذين كانوا يتلاعبون بالبيان كما شاءوا ويتصرفون في أساليب البلاغة كما أرادوا ـــ أن يحشدوا فرسان البلاغة الذين لا يشق لهم غبار وأئمة البيان الذين كانوا كأنما خُلقوا من مَادته واستخلصت أرواحهم من روحه ليضافروا جهودهم على تلفيق سورة من مثل القرآن؟ ، وما الذي دعاهم إلى تشريع الأسنة دون إطلاق الألسنة والتضحية بأرواحهم بدلا من استعراض ملكاتهم لو كانوا يحسون أنهم على مقدرة من معارضة الكتاب فيريحوا أنفسهم من هذا العنت الطويل والمحن المتلاحقة ، أو ليس في ذلك ما يكفي دليلًا على هول الأمر الذي واجهوه ، وتعذر المطلب الذي طولبوا به ، مع العلم أن الخصم لا يقر له قرار ولا يهدأ له بال ولا تطيب له نفس مالم يتفوق على خصمه حتى ولو لم يَتَحَده ، فكيف والتحدي يقرع مسامعهم ويؤنب ضمائرهم ، ويسفه آراءهم ، وما كان منهم إلا أن يصفوا هذا الصوت الذي أخرس ألسنتهم وختم على أفواههم تارة بالسحر وتارة بالكهانة ، وأخرى بالجنون ، ومع هذا فإن القرآن قد كتبت مصاحفه ونشرت في أرجاء الأرض حاملة هذا التحدي ، ولو استطاع فرد أو شعب أو أمة معارضته والإتيان بمثله لاشتهر ذلك اشتهار القرآن نفسه ولكانت ردة فعل تتمخض عن ارتداد مالايحصى عددا من اتباعه.

القرآن الكريم يتفق ومطالب كل عصر

ولقد ظل القرآن الكريم طوال أربعة عشر قرنا خلت منارةً شامخة تسطع على الدنيا لا يهزها تتابع أعاصير الأفكار المختلفة ولا يرجها طغيان فيضانات المعارف المتنوعة التي محت كل رسم من رسوم الفلسفات السابقة وأتت كل أثر من آثار الثقافات القديمة؛ بل كان ذلك كله مما يزيد برهانه وضوحا وإعجازه سطوعا ، وأعجب من ذلك أن يواجه القرآن كل جيل من أجيال هذه القرون المتتابعة بما يحل مشاكله ويروي ظمأه ويشفي علله ، فكأنما أنزل على كل جيل إنزالا جديداً بقدر مقاييس عقله ومعايير فكره ، وأطوار حياته ومطالب عصره حتى إنه ليخيل للناشيء في أي زمان وفي أي مكان أنه لم يُنزل إلا ليشفي أمراض المجتمع الذي هو فيه لأنه يراه كالثوب الذي فُصِّل بقدر قامة مجتمعه ، ذلك لأن الله جعله نبعا نورانيا يروي كل نفس ويتدفق بكل دهر؛ ولعمري مَا ألفاظ القرآن إلا كلمات نورانية تجلت من الغيب فتألقت في أفق البيان كما تتألق النجوم في أفق الفضاء وإنما الفارق بين تلك وهذه أن تلك تهدي الأبصار وهذه تهدى البصائر ، وأن تلك من شأنها الأفول وهذه لاتغور ولاتزول ، فالقرآن يصلنا بالغيب ويعكس لنا حقائق الوجود ، وينير لنا مهيع الحياة ، ويمدنا بعطائه الذي لا ينفد بعبارات لا ترقي إليها ملكات البشر إلا بقدر ما ترقى الأبصار إلى النجوم ، وكلما حاول محاول سولت له نفسه أن يأتي بمثله انتكس على أم رأسه وكان مثار السخرية والاستخفاف إلى يوم الدين ، ومن ثم أحجم كفرة قريش الماردون كعتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة والوليد بن عتبة والوليد بن المغيره وأبي جهل ابن هشام عن الاقتراب من معارضته ولم تسول لهم أنفسهم ذلك لأنهم يدركون أنهم لو حاولوا ذلك لما كان منهم إلا الإسفاف الذي يربئون بأنفسهم

عنه ويأنفون من نسبته إليهم ، وقد كان عند هؤلاء الكفرة الماردين من التفكير مالم يكن عند أولئك السخفاء المجانين الذين أعماهم الغُرور واقتادهم الهوى إلى مَهاوى المغامرات المردية كمسيلمة الكذاب ، وسجاح وابن المقفع ــ إن صح ما حكي عنه من ذلك ــ ولم يخرجوا من مغامراتهم إلا بكلمات يسخر منها حتى المجانين ، واقترن اسم مسيلمة بلقب «الكذاب» لا ينفك عنه كأنه لم يعرف الكذب إلا به.

وعندما نشأت الديانة البهائية الضالة الكافرة حاول البهائيون معارضة القرآن فألفوا مقالات لتكون ــ فيما يزعمون ــ مثل سور القرآن في الهداية والإعجاز ، فما كان من أمرهم إلا أن شعروا بالهزيمة والفضيحه فعادوا إلى ما ألفوه فمزقوه ، وما تبقي بأيديهم من نسخ هذا التأليف حالوا بينه وبين أعين الناس خشية السخرية والاستهزاء.

اعتراف الحاقدين
بإعجاز القرآن

ولعل قائلا يقول إن الشعور بإعجاز القرآن ناشيء عن العقيدة الإسلامية المتوارثة ، أما غير المسلمين فقد لا يحسون بهذا الشعور.

وجوابنا لهؤلاء أن عين الرضى إن كانت كليلة عن العيوب فإن عين السّخط من شأنها إبداء المساويء،وقد كان الاعتراف بإعجاز القرآن من الحاقدين عليه لا يقل عن اعتراف المؤمنين به سواء الذين عايشوا نزوله من الكفار المناوئين أو الذين جاءوا من بعدهم،ومن هذا القبيل ما رواه الحاكم وصححه والبيهقي في (دلائل النبوة)عن ابن عباس(رضى الله عنهما)أن الوليد

ابن المغيرة جاء إلى رسول الله ﷺ وسمع منه القرآن،فكأنه رقّ له فلما عاد إلى قومه عاتبه أبو جهل وقال له: ياعم إن قومك يريدون أن يجمعوا لك مالا لأنك أتيت إلى محمد لتعرض له.

فقال له: لقد علمت قريش أنني من أكثرها مالا.

قال له: فقل فيه قولا يبلغ قومك أنك منكر له.

قال له: وماذا عسى أن أقول فيه ، إنكم لتعلمون أني أعلمكم بالشعر ، رجزه وقصيده ، وبشعر الجن ، والله مايشبه هذا شيئا مما يقوله محمد ، وإن لكلامه لحلاوة وإن عليه لطلاوة ، وإنه لمغدق أسفله ومثمر أعلاه ، وإنه يغلب ولا يُغلب ، وإنه ليحطم ما دونه.

فلم يزل أبو جهل يفتل منه في الذروة والغارب حتى قال دعني أفكر ، ثم قال إنه لَسِحْرٌ يُؤثَر بأثره عن غيره فأنزل الله فيه:ـــ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا... الآيات .. إلى قوله:ـــ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ سَأُصْلِيهِ سَقَرَ﴾(المدثر/١١ ، ٢٦).

ومثل هذا الاعتراف كان من عتبة بن ربيعة عندما جاء إلى النبيّ ﷺ ليعاتبه على ماكان منه من سب آلهتهم وتسفيه أحلامهم وتضليل آبائهم فأسمعه رسول الله ﷺ أول سورة «فصلت» فكان أثر ما سمع عميقاً في نفسه،بالغا من حسه،فما كان منه إلّا أن جاء إلى قريش مدلياً بنصيحته ليتركوا رسول الله ﷺ وما يدعو إليه ، ليقينه أن أمره ظاهر وحجته بالغة وإذا كان هذا التأثير من القرآن الكريم على فصحاء العرب الذين لا يضمرون له إلا الكراهية في عصر نزوله فإن تأثيره على أدباء العربية من غير المسلمين في العصر الحديث لا يقل عن تأثيره على أولئك،ولذلك لم يملكوا ألسنتهم فانطلقت معبرة عما وقر في قلوبهم من إعجازه الباهر،ومن هؤلاء (جبر ضومط)الأديب النصراني الذي كان في الجامعة الأمريكية و(خليل

مطران)و(إبراهيم اليازجي) ووالده (نصيف اليازجي) الذي نصح ابنه بحفظ القرآن لتقوية ملكته البيانية و(شبلي شميّل) الذي كان كاثوليكيا ثم انتقل من الكاثوليكية إلى الإلحاد وهو القائل:

دع من محمد في سدى قرآنه ماقد نحاه للحمة الغاياتِ

إني وإن أكُ قد كفرت بدينه هل أكفرن بمحكم الآياتِ

أو ماحوت في ناصع الألفاظ من حكم روادع للهوى وعظاتِ

وشرائع لو أنهم عقلوا بها ما قيدوا العمران بالعاداتِ

نعم المدبر والحكيم وإنه رب الفصاحة مصطفى الكلماتِ

رجل الحجى رجل السياسة والدها بطل حليف النصر في الغاراتِ

ببلاغة القرآن قد غلب النهى وبسيفه أنحىٰ على الهاماتِ

وقد ذكر العلامة الكبير السيد /محمد رشيد رضا أن كثيرا من أدباء النصارى يذهبون في ليالي رمضان إلى بيوت أصدقائهم من المسلمين، ليرهفوا حسهم، ويمتعوا ذوقهم بسماع آي الذكر الحكيم.

وليس الاعتراف بإعجاز القرآن البياني مقصورا على العرب وحدهم بل اعترف بذلك المنصفون، أو بالأحرى الذين حاموا حول الإنصاف من المستشرقين ومنهم مستشرق فرنسي رد على دعاة النصرانية الذين زعموا أن رسول الله ﷺ لم تقترن رسالته بمعجزات النبيين من قبل ، رد عليهم بما معناه:

إن محمدا كان يتلو القرآن والهاً مدلها خاشعا متصدعاً فيفعل في جذب القلوب إلى الإيمان به مالم تفعله آيات النبيين من قبله.

حيرة العلماء في وجوه
الإعجاز القرآني وأسراره

ومن حيث أن عظمة القرآن أسمى من مدارك الأفهام حار العلماء في وجه إعجازه حتى بلغ الأمر ببعضهم أن ادعى أن أعجازه بالصدفة، وقد تعقب رأي هؤلاء بالرد جل الذين كتبوا عن إعجاز القرآن من المتقدمين والمتأخرين وقالوا عنهم لإنهم كسالى لايريدون أن يحملوا أنفسهم مؤونة البحث في وجوه الإعجاز، فلذلك اكتفوا بدعوى أن إعجازه يصرف الناس عن الإتيان بمثله ، وقال عنهم السيد /محمد رشيد رضا في المنار:

قد عجزوا عن إحالة قدح الفكر في استخراج أسرار هذا الأمر..واحتج عليهم القرطبي بالإجماع لاتفاق كلمة المسلمين قبل ظهور خلاف هؤلاء أن إعجاز القرآن بذاته وليس بالصرف عن الإتيان بمثله ، ورد عليهم الإمام أبو حيان الأندلسي في «البحر المحيط» قائلا :إنهم لم يتذوقوا بلاغة القرآن العظيم ولم تبلغ أفهامهم شأو إعجازه ، وضرب لهم مثلا المرأة التي رأت زوجها يواقع جاريته فلما عاتبته أنكر فقالت له إن كنت صادقا فاقرأ شيئا من القرآن فأنشدها أبياتا من الشعر ذكر فيها الله ورسوله وكتابه فصدقته وكذبت عينيها ولم تفرق بين القرآن والشعر ، وذكر عن أستاذه أبي جعفر أن رجلا ممن أوتي حظا من العلوم الإسلامية وكان جامعا للعلوم القديمة قال له:

يا أبا جعفر إني لا أحس بفرق بين القرآن وسائر الكلام وذكر أن أحد شيوخه كان متضلعا بالمعقول وآخذا حظه من المنقول ، لكنه أراد أن يكتب فقرات بليغه كلف أحد طلبته إنشاءها ، وذكر عن آخر أنه كان يروي الشعر فتسقط كلمة من البيت ولربما سقط ربع البيت وهو لا يشعر باختلال الوزن ، ثم قال أين هؤلاء من أولئك الذين يعرفون انكسار البيت لتسكين المتحرك أو تحريك الساكن.

ونجد العلامة أبا زهرة في كتابه «المعجزة الكبرى» يتفق مع غيره من المؤلفين في الإعجاز القرآني على إنكار مذهب الصرفه ولكنه يختلف معهم في تحديد سبب نشأته ، إذ لا يرده إلى الكسل كما يقول الآخرون وإنما يرده إلى نزعة التجديد والرغبة في اتباع كل غريب ، وقال إن فلسفة هؤلاء تنساق وراء الفلسفات المستوردة،لا لأجل أصالتها وإنما لأجل غرابتها فهم عشاق لكل غريب ، ومن هنا يرى أبو زهرة أن فكرة الصرفه التي قالها بعض الإسلاميين هي وليدة فلسفة الديانة البرهمية الهندية وذلك أن البراهمة يعتقدون أن فيدا ـــ وهو الكتاب المقدس عندهم ـــ لايستطيع أحد أن يأتي بمثل الأشعار والمقالات التي يجمعها ويردون ذلك إلى المنع لا إلى ذات تلك المقالات ، كما جاء ذلك في كتاب البيروني «ماللهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذولة» فقد حكى ـــ كما ذكر أبو زهرة ـــ عن خاصة البراهمه أنهم يقولون إنهم بإمكانهم أن يأتوا بمثل تلك المقالات والأشعار ، ولكن براهما منعهم من ذلك ، وقد تساءل:

هل هو منع تكليفي أو تكويني ؟ ورجح أنه تكويني ويرى أبو زهرة أن منشأ هذه الفكرة الاغترار بمثل هذه الفلسفات المستوردة ، فقد أراد القائلون بالصرفه أن يطبقوا على القرآن ماقرءوه أو سمعوه عن فيدا ، وأول من اشتهر بهذا المذهب إبراهيم بن سيار المعروف بالنّظام وكان أول من رد عليه تلميذه الجاحظ.

وحكي عن الشريف المرتضى من أئمة الشيعة أنه يرى رأى النظام لكنه يرد ذلك إلى جهل الناس بالعلوم التي يحتويها القرآن،ومفهوم قوله أنه لولا الجهل لأمكنهم الإتيان بمثله ، ولابن حزم في كتابه «الفصل في الملل والأهواء والنِّحل» كلام يفيد أنه يميل إلى القائلين بالصرفة ، وإن تعجب فعجب أن يجمع هذا المذهب بين المعتزلي الذي يعتمد على مقاييس العقل في العقائد

والأعمال بحيث يرفض النص إن خالف العقل أو يؤوِّله بما يتفق مع دلائله ومقتضياته ، وبين الظاهري الذي هو أسير ظاهر النص لا يتجاوز نظره شكله إلى مضمونه ، هذا ويرىٰ أبو زهره أن مذهب ابن حزم الظاهري يقتضي عدم النظر في إعجاز القرآن ما دام النص لم يأت ببيان وجه إعجازه، إذ في التفتيش عن وجوه الإعجاز تجاوز لحدود النص واقتحام إلى جهة النظر والقياس وهما مرفوضان في المذهب الظاهري، ومن العجب أيضا أن نرى العلامة السيد /محمد رشيد رضا يرد في تفسيره «المنار» على مذهب الصرفة بينما نجده في مقدمته التي صدر بها كتاب «إعجاز القرآن» للأستاذ الكبير مصطفى صادق الرافعي يسوغ هذا المذهب إذ يقول:

إن القرآن قد ثبت إعجازه بالوجدان والبرهان فلا يرقىٰ إلى بيانه أي بيان ، ولا يحيط بمقاصده تفسير ، ومعرفة أسرار إعجازه تعني القدرة على استخراج هذه الأسرار ، والمقام مقام عجز مطلق.. ومثل للقرآن بالروح في الجسم والأثير في المادة والكهرباء في الكون، لأنَّ هذه الأشياء تعرف بآثارها دون ماهيتها ومع ذلك فإن النفس تجد لذة عقلية عندما تكتشف بعض أسرارها وهكذا تشعر النفس بهذه اللذة عندما تكتشف ناحية من الإعجاز القرآني.

هذا وقد أخذ الكاتبون قديما وحديثا يكشفون عما وصلت إليه أفهامهم من أسرار الإعجاز ، وخصوصا الناحية البيانية ، وقد أفرد كثير منهم هذا الموضوع بتآليف خاصة ، ولكن مهما قيل فإن أسرار الإعجاز تتجلى بين حين وآخر فلذلك كان الموضوع في كل زمن بحاجة إلى دراسة جديدة ، وأرجو أن أوفق في هذه النبذة الوجيزة لإيضاح جوانب من وجوه الإعجاز والله ولي التوفيق.

١ــ الإعجاز البياني

التأثير النفسي للقرآن الكريم
على العرب ونتائجه

لقد أنزل الله القرآن الكريم على النبي العَربي ﷺ بلغة العرب بعدما هذبتها الألسن ، وارتقت بها إلى أوجها وكأنما كان كل طور من الأطوار التي مرت بها تمهيداً لوصولها إلى هذا المستوى الرفيع حتى تتهيأ لأن تكون وعاءً لكلام الله سبحانه،والعَرب عندما بعث النبي ﷺ كانوا أرسخ في الضلالة قدما ، وأعمى عن الحق قلبا ، قد استولت على عقولهم العقائد الفاسدة واستحكمت في نفوسهم العادات السيئة،فأصبح ذلك كله جزءًا من طبيعتهم بحكم تأثير العامل الوراثي،ومع هذا فقد كانوا يتصفون بحدة الذهن وصفائه ، ودربة اللسان وملكته ، فلذلك كانوا أقوى الناس على تصور الحقائق من العبارات ،كما كانوا أقدرهم على تصويرها لأن الفصاحة قد ترسخت في نفوسهم ، وطبعت عليها ألسنتهم ، واعتاد الجم الغفير منهم على مساجلات البيان شعرا ونثرا ، كما يحدث ذلك في عكاظ وذي المجاز وغيرهما ولم يقفوا أبدا موقف الهيبة والقلق من خوض معركة الكلام ، فلو كان القرآن الكريم من جنس ما ألفوا من الكلام في جزالته وتأثيره وعمق معناه لكان بإمكانهم أن يحشروا من جزيرة العرب عشرات الألوف أو مئاتها من الشعراء النوابغ والخطباء المصاقع الذين محصتهم البلاغة ومحصوها فأصبحت سيماهم التي بها يميزون ومفخرتهم التي بها يباهون ،غير أنهم أدركوا بحسهم المرهف أن لهذا الكلام روحا لا توجد في كلامهم وسلطانا لاتجد النفس أمامه إلا أن تستسلم وتنقاد،وعمقا يصل إلى الفطرة الإنسانية فيوقظها من نومها ويصفيها من كدرها،فلا تجد الفطرة مناصا عن التسليم لما يوحى به إليها ، والاستجابة

لندائه الذي يحولها إلى آلة سمع حساسة ، فلم يكن لديهم في وجه هذا البيان المدهش إلا تجاهل ألسنتهم لما تحس به فطرهم ، وإنكارها للأثر الذي يشعرون به من أعماق نفوسهم ، فكانوا أشد عناداً من الذي يكذب حسه وينكر نفسه.

وقد تستعلي أحيانا الفطر على عنادهم فلا تملك ألسنتهم إلا الاعتراف بما للقرآن من أثر في نفوسهم،كما حدث للوليد بن المغيرة وعتبة بن ربيعة اللذين لم يملكا إلا أن يصرحا بما يجيش في صدورهم ، أما الذين تجردوا من هذه المكابرة فلم يكن منهم إلا أن سلموا تسليما بمجرد ما قرع صوت القرآن مسامعهم،إذ لم يقف حتى نفذ إلى أعماق وجدانهم كما كان من خبر أنيس وأبي ذر (رضي الله عنهما)، ومثله ما وقع لعمر بن الخطاب رضي الله عنه بعد عدائه المستحكم للدعوة التي يرفع القرآن لواءها ، فإنه بعد قسوته البالغة على أخته وزوجها رق قلبه بعد قسوته عندما تلا الصحيفة التي سطرت فيها آيات بينات من الكتاب فأحس بروحها تسري في روحه وكأنما أخذت عليه مسالك نفسه، فاستجاب لندائها وأسلس لها القياد،وكانت منه تلك النقلة السريعة من الجهل إلى العلم ، ومن الكفر إلى الإيمان ، ومن الغلظة إلى اللين ، ولم يكن أحد من قريش ينكر هذا التأثير النفسي للقرآن ولذلك كانوا يتواصون بالتصامم عنه واللغو فيه خشية أن ينفذ إلى قلوبهم فتنجذب إليه ، وإلى عقولهم فتنقاد له.

وهذا الذي ذكره الله عنهم في قوله ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَٰذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾(فصلت/٢٦)ومع هذه المحاولات المختلفة لإطفاء نوره وإخفات صوته فقد تألق ومزق بسطوعه ظلمات الجاهلية فما

لبثت جزيرة العرب أن تحولت برمتها إلى الإسلام ، كل ذلك في ظرف عقدين من السنين وهو أمر غريب في تاريخ الدعوات،ومن درس تاريخ الأمم وحركات الإصلاح أدْرك أن هذا التحول ليس من مألوف البشر بل دعوات المرسلين السابقين لم يكن لها هذا الأثر في الأمم وإن كانت مقترنة بمعجزات حسية والقرآن نفسه يقص علينا نبأ نوح الذى لبث في قومه ألف سنة إلا خمسين عاما يدعوهم إلى الله ويخوفهم عقابه فما كان منهم إلا أن أعاروه آذانا صما ونبزوه بالألقاب ورموه بالسخرية ، وموسى-عليه السلام-الذي شق له البحر شقا فجازه مع بني إسرائيل ما كاد قومه يستقرون بعد اجتياز البحر حتى قالوا له ﴿اجْعَلْ لَنَا إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ﴾(الأعراف/١٣٨) ﴿وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً﴾(البقرة/٥٥)وظل يعاني منهم عنتا طويلا مع كل الآيات التي تتجلى لهم،وبقوا في التيه أربعين عاما حتى نشأ جيل آخر لم يتلوث بما تلوث به ذلك الجيل العنيد ، وهذا يدلنا على أن نقل أمة من طبيعتها في جيل واحد ليس من الأمور المألوفة ولا يكون إلا بمدد غيبي من عزيز حكيم.

تحول العرب من حياة الجاهلية إلى الإسلام

وقد كان تحول العرب في هذه المدة القصيرة من حياة الجاهلية إلى الإسلام تحولا جذريا عميقا،فقد انسلخوا من كل العقائد والعبادات والأخلاق والعادات التي كانوا عليها،حتى ليحسبهم الإنسان أنهم أُنشئوا نشأة أخرى أو أن دورة الزمن دارت عليهم فنشرتهم ـــ بعد مَا طوتهم ـــ بأرواح غير أرواحهم ، وفطر غير فطرهم أو أنَّ هذا القرآن الذي طهرهم من تلك العقائد الزائفة والأخلاق المذمومة والعادات السيئة بدأ يسرى في نفوسهم منذ قرون طويلة يتنقل معهم في أصلاب الآباء أبا بعد أب وكان على موعد منهم للخروج إلى عالم الشهود بعد أن صفاهم بنوره وطهرهم بسره فظهر كل منهم وكأنما هو نسخة من هدايته ، ولم يكتف أولئك القوم بنقلتهم هذه من الجاهلية إلى الإسلام وإنما شعروا بعظم المسئولية في واجب الدعوة إلى الله فانطلقوا في أرجاء الأرض وكأن كل فرد منهم رسول إلى أمة فما أسرع هذا التحول العجيب كيف كانوا بالأمس القريب يحاولون طمس نور هذه الدعوة وإسكات صوتها واليوم هم الذين يرفعون لواءها ويشقون بها كل طريق وعر ويذللون بها كل عقبة كئود.

الاختلاف في معرفة السر الإعجازي للقرآن الكريم

ونحن إذا أردنا أن نستجلي هذا السر الإعجازي في هذا القرآن شعرنا أننا في خضم زاخر لا نستطيع الاقتراب منه ، وأمام نور ساطع لا نقدر على فتح أبصارنا عليه ، فالحقيقة القرآنية المطلقة أوسع من أن تحيط بها العقول البشرية المحدودة وإنما يتحدث كل إنسان بحسب ما أوتي من قوة فقدر على مد البصر إلى هذا النور الغيبي الباهر ، ولذلك نجد الذين حاولوا الكشف عن السر سلكوا طرائق قددا منهم من رد الإعجاز إلى الألفاظ ، ومنهم من

رآه من سر المعاني ، ومنهم من جعله من خصائص النظم الذي ينتظم المعاني والألفاظ ، والذين نظروا إلى الألفاظ منهم من رد الإعجاز إلى سر التآخي بين الكلمات والتناسق بين الجُمل،ومنهم من راعى مع ذلك التناسب بين الحروف وفنية تركيبها بحسب مخارجها وصفاتها وإيحاءاتها،وهذا الاختلاف بينهم قديم قدم الخوض في بيان إعجاز القرآن يتضح مما كتبه الكاتبون في ذلك ابتداء بأبي عبيدة معمر بن المثنى والجاحظ والواسطي والرماني والخطابي والعسكري والباقلاني والخفاجي والجرجاني والزمخشري ، ومرورا بالقاضي عياض والرازي واليماني والسيوطي والألوسي ، وانتهاء بالإمام محمد عبده والسيد /محمد رشيد رضا والرافعي وأبي زهرة وعبد الكريم الخطيب ومحمد حفني شرف وشهيد الإسلام سيد قطب ، ومنشأ الاختلاف تردد النظر بين المعاني والألفاظ ، فمن نظر إلى تلاطم مبانيه بأنوار معانيه وقع في قرارة نفسه أن معانيه منساقة لألفاظه ، ثم لا يلبث إذا أمعن الفكر أن يرى الألفاظ منساقة للمعاني ، ثم لا يلبث كذلك أن يتهم رأيه الثاني فيبقى مترددا بين انجذاب المعاني للألفاظ أو انجذاب الألفاظ لها ، وفي هذا الترداد الطويل الذي يدأب عليه الفكر بين الألفاظ السَّاطعة والمعاني الجامعة يؤدي في النهاية إلى وقوفه بعد إعيائه عند نقطة معينة راجيا أن تكون هي الحقيقة المطلوبة والغاية المنشودة.

القرآن الكريم يقدر الجانب العقلي
والجانب العاطفي من الإنسان

ولعَمْري إن الذي يتجاذبه جمال المبنى وسمو المعنى في آيات القرآن لا يملك إلا أن يسلم تسليما ويقول ﴿ رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنْزَلْتَ واتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴾ (آل عمران / ٥٣) وقبل الحديث عن بلاغة القرآن يجمل الحديث عن أصل البلاغة والذي أراه أن البَلَاغة لا تكون إلا بعمق التصور وفنية التصوير ، فإن المعاني لا تحيا في العبارات حتى تحيا في الأنفس ولذلك استحسن قــول الأخطل :ـــ

لايعجبنك من خطيب خطبة حتى يكون مع الكلام أصيلا
إن الكلام لفي الفؤاد وإنما جعل اللسان على الفؤاد دليلا

وهذا يعني أن تترتب المعاني في الذهن بتصور عميق فإذا فاضت بعد على اللسان أو القلم خرجت مترتبة بحسب ترتبها في الذهن،فتتمثل أمام السامعين أو القارئين وكأنما هي مشاهد حية وصور ماثلة ، وبهذا أمكن للبليغ أن يحول المعاني الذهنية والانفعالات النفسية والمشاهد الغائبة إلى حقائق مرئية وأمور محسوسة ، وإذا كانت هاتان الصفتان هما منشأ بلاغة البلغاء فإن القرآن الكريم ـــ وهو كلام الخالق سبحانه الذي لاتخفى عنه خافية ، والذي يهب النفوس القدرة على التصور ويمنح الألسنة موهبة التصوير ـــ لأجدر بأن يكون أعلى طبقة من كل بلاغات البلغاء ، وأوفى دلالة وأغزر معنى وأعمق أثرا ، وأسمى مقصداً وأرصف لفظا؛لأنه صادر عن العليم بكل شيء والقدير على كل شيء ، ومن هنا كان القرآن الكريم يقدر في خطابه للإنسان الجانب العقلي والجانب العاطفي منه...وهذا مما يميزه عن سائر الكلام،ذلك لأن إمتاع العاطفة بالحديث العاطفي وإقناع العقل بالكلام

العقلي ، وبقدر ما يكون المتكلم واقعا تحت تأثير أحد هذين الأمرين يكون متحرراً من تأثير الأمر الآخر ، فحكمة الحكماء نابعة عن العقل ولا أثر فيها لسلطان العاطفة ، وشعر الشعراء من وحي العاطفة ولا أثر فيه للعقل، ولذلك كان في كلام الحكماء إقناع العقل وفي كلام الشعراء إمتاع العاطفة ، فلو أمعنت النظر في قول الحكماء:ـ

«الحكم على الشيء فرع تصوره» لوجدته ينجذب إليه عقلك انجذابا، لأنها حقيقة لا يماري فيها العقل لكنك لا تجد في قولهم هذا ما يحرك ما سكن من مشاعرك، أو يؤجج ما خمد من عواطفك ، ولو طرق سمعك قول امرىء القيس:ـ

«قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل» لوجدت نفسك تفيض مشاعرها وتتحرك أوتار شعورها حتى ليكاد قلبك ينخلع من بين جنبيك فيطير مما استهواه من كلام يتدفق بفيض عَاطفي ، لكنك لو فتشت من بين هذا الكلام عن حقيقة تقدمها غذاء لعقلك فإنك لن تعود بشيء إلا بما يعود به الظمآن الذي يلاحق السراب، ولا تكاد تجد في كلام الناس ما يجمع بين طلبة العقل ومتعة الوجدان في آن واحد ، أما القرآن الكريم فبما أنه كلام الله المنزه عن الانفعالات والتأثيرات الذي وجهه إلى الفطرة الإنسانية فهو يجمع في ثنايا عباراته بين ما يمتع الذوق ويرهف الحس وبين ما يغذي العقل ويرضي الضمير سواء كان خطابه في الأمر والنهي أو في الوعد والوعيد ، أم في القصص والأمثال ، أم في الوعظ والتذكير ، فلو نظرت مثلا إلى قول الحق سبحانه ﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَانْتَهَىٰ فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾(البقرة/٢٧٥)لوجدت من

الحقائق التي لا يكابر فيها إلا من كابر عقله مع ما تجده من جمال التعبير ودقة التصوير مما يمتع ذوقك ويحرك شعورك ويبعث الكامن في وجدانك ، وانظر أيضا إلى قول الله سبحانه:

﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا إِعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾(المائدة/٨)
تجد ما يجمع لك بين طلبة عقلك ومتعة عاطفتك في هذه الكلمات القليلة ولو أن ألسنة الثقلين أديرت على كلام يجمع ما بين هذا المعنى الغزير وما اقترن به من جمال التصوير ، ولطافة التعبير ، وسلاسة الأسلوب ، وسلامة التركيب لم يتأت ذلك أبدا إلا في هذه الحروف بعينها وبنفس هذا الترتيب ، وقل مثل ذلك في مطلق الآيات بغير استثناء.

دقة التصوير القرآني دليل على أنه ممن أحاط بكل شيء علما

وإذا أخذت تفكر فيما يجليه القرآن من معان ذهنية وحالات نفسية ومشاهد غائبة أدركت من دقة تصويره لها عدم إمكان صدور هذا البيان إلا ممن أحاط بكل شيء علما ، فانظر إلى قول الله تعالى في المرائين الذين ينفقون أموالهم لكسب المحمدة والثناء من الناس ﴿فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لَا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِمَّا كَسَبُوا﴾(البقرة/٢٦٤) تشاهد هذه الصورة وكأنما هي ماثلة أمامك صورة الحجر الصلد الذي غطته طبقة خفيفة من التراب قد يُظن أنه منبت فإذا أصابه الغيث ورُجي خِصبه ونباته إذا به يأتي على هذا التراب فيمحوه ويكشف عن هذا المنظر الكريه من الحجر فينقطع الرجاء من منفعته ويستحكم اليأس ، وتقابل هذه الصورة صورة مغايرة لها ضربها الله مثلا للذين لا يريدون بإنفاقهم إلا وجه الله ولا يبتغون إلا مرضاته وهي في قوله ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُم ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ

اللهِ وَتَثْبِيتًا مِنْ أَنْفُسِهِم كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِنْ لَمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ﴾(البقرة/٢٦٥) فانظر كيف يصور لك هذا الوصف بهذه الصورة المحببة إلى النفس صورة جنة عالية على ربوة أرضها خصبة من طبيعتها الإنبات،إن أصابها وابل ضاعفت إنتاجها،وإن لم يصيبها وابل كفاها الطل لجودة الأرض وخصوبة المناخ ، وهكذا تتجلى هذه المعاني الذهنية المختلفة بين الذين يراءون الناس والذين ينفقون ابتغاء مرضاة الله في هذا التصوير الذي يوحي بما بين هاتين الطائفتين من البون الشاسع.

وتأمل قول الله تعالى ﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلاَّ كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ﴾(البقرة/٢٧٥) تشاهد هذا المنظر الكريه كأنما هو ماثل أمام ناظريك:منظر رجل يطمح إلى القيام وكلما حاوله اعتراه من مس الشيطان ما يكبه على وجهه تارة ويلقيه على ظهره تارة أخرى ، وتجد المشاهد الغائبة المألوفة وغير المألوفة تتمثل بين يديك إذا تلوت القرآن وسمعته ، فتأمل قصة أصحاب الجنة التي جاءت في سورة القلم تجد نفسك كأنك بينهم وداخل في أعماق نفوسهم تستجلى منها حالاتها وتتأمل انفعالاتها ، وانظر في قول الله سبحانه ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ،حَتَّى إذا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ وَقَالُوا لِجُلُودِهِم لِمَ شَهِدْتُم عَلَينَا قَالُوا أَنْطَقَنَا اللهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُو خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَةٍ وَإِلَيْه تُرْجَعُونَ ، وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَتِرونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُم سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَارُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِمَّا تَعْمَلُونَ﴾(فصلت/١٩ ، ٢٢) تجد نفسك كأنها واقفة أمام هذا المشهد الرهيب الذي لم يؤلَف له نظير ، مشهد الخِصام بين الإنسان وجوارحه التي تسجل عليه أعماله لتعلنها عليه في ذلك اليوم الذي هو أحوج

ما يكون فيه إلى الستر،وتحس كأنك تسمع بأُذنيك ما يدور من نقاش بين الجوارح وصاحبها وما تقطع به الجوارح هذا الحوار وتستأصل به هذا النقاش إذ تعلن أن الله هو الذي أنطقها وهو الذي أنطق كل شيء بما جعل من أسباب البيان وهو الذي خلق هؤلاء أول مرة وإليه يُرجعون فلم يبق ما يبعث على التعجب من نطقها ، وتأمل قول الله تعالى ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ ، وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ﴾(الأعراف/ ١٧٥ ، ١٧٦) تجد نفسك أمام صورة حسية لرجل أكرمه الله بما آتاه مِنَ آياتِه فصارت له لباسا جامعا بين الجمال والجلال ولكنه خلع ما لبسه كالذي ينشق عن جلده فأتبعه الشيطان فأزاغه عن الصراط السوي الذي كان يهتدي إليه بما أوتيه من آيات ، والتصق بالأرض ظاناً أن التصاقه بها سبب لخلوده فيها ، ويتصور لك من قوله ﴿وَاتَّبَعَ هَوَاهُ﴾ أن الهوى أمامه وهو يعدو خلفه،كما تتصور لك تلك الحالة النفسية التي تجعله دائم اللهث من قوله ﴿فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ﴾ وبالجملة فإن أي آية تتأملها من القرآن تجد فيها ما يملك شعاب نفسك،ويستهوي شعورك،من تصوير للحقائق،وتجسيد للمعاني يجعلانك تلمس المعاني كالمحسوسات وتبصر الغائب كالشاهد.

ألفاظ القرآن ومعانيه من أسرار الإعجاز البياني

ولعلك إذا قلبت النظر بين ألفاظ القرآن ومعانيه تجد إعجازه يشع عليك منهما معاً،فترتب حروفه بمالها من صفات وإيحاءات،وتناسق كلماته بما لها من شعاع يتألق من رصفها وترتيبها وتساوق المعاني التي تسابق إلى النفس

وقع ألفاظها في السمع ، كل ذلك من أسرار الإعجاز البياني في القرآن،فقد قدر في ترتيب حروفه مخارجها ونبراتها وصفاتها وما يوحي به كل حرف من أثر في النفس،كما قدر في ترتيب الكلمات التناسق العجيب بحيث تكون كل كلمة منها لقف أختها فلا تجد ما بينها ما ينبو عنه السمع أو ينفر منه الطبع، وما أجمل وصف الأستاذ الرافعي لحروف القرآن إذ وصف كل حرف منها بأنه يمسك الكلمة ليمسك بها الجملة ، وما أروع المثل الذي ضربه للقرآن حيث جعل مثله مثل نظام الكون في ترتيبه الدقيق وتناسقه العجيب بكل ما فيه من الذرة إلى المجرة،وإذا كان الأستاذ الرافعي يراعي في هذا المثل الشبه بين نظام القرآن ونظام الكون في تناسقهما فإن هناك وجها آخر للشبه بينهما وهو ما يستجلى بين حين وآخر من أسرار آيات الله الكونية وآياته القرآنية سواء ما يتعلق ببيان القرآن المعجز أم معانيه الباهرة ، ولنعد إلى ذكر بعض الأمثلة لما ذكرنا...

من مميزات التعبير القرآني:

يقول تعالى مصورا عاقبة قوم نوح وما أصابهم من الغرق ﴿وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَاسَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الأَمْرُ واسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾(هود/٤٤) ، إن كل من أوتي نصيبا من الذوق والحس يشعر بتلاوة هذه الآية إن تلاها أو تُليت عليه بهاجس نفسي يستوقفه عند كل كلمة بل عند كل حرف منها وما ذلك إلا لما فيها من دقة الترتيب وجمال التنسيق بين الحروف وبين الكلمات وما يصحب ذلك من ترتسب المعاني وتساوقها فكان كل حرف منها له إشعاعه الخاص،ويبدأ تجلى ما فيها من جمال وجلال بتصدير الآية بالقول مبنيا للمجهول ، «وَقِيل» وماولي ذلك من نداء الأرض باسمها الصريح بيا من أحرف النداء دون غيرها،وأمرها

بأن تبلع الماء وإضافة الماء إليها واتباع نداء الأرض بنداء السماء بنفس الأداة وأمرها بالإقلاع وإظهار النتيجة وهي غيض الماء وقضاء الأمر بصياغة فعل مبني للمجهول من كل منهما واستواء السفينة على الجودي وإعلان النهاية وهي بعد القوم الظالمين ، ولو أن حرفا من هذه الحروف انتزع من مكانه لم يسد غيره مسدّه ، وبهذا يظهر أن البلاغة كما تكون في الجمل تكون في المفردات أيضا مع الترتيب ، وإن كانت الكلمات المفردة لا يتجلى جمالها ولا يسطع ضياؤها إلا إذا قُرنت بما يناسبها بحيث تكون كل واحدة منها آخذة بحجزة أختها بحسب ترتب المعاني في النفس ، وإن شئت فانظر في قوله تعالى ﴿وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ﴾(التكوير/١٨) تجد من الروعة والجمال باجتماع كلمتي الصبح وتنفس ما لا تجده لو جيء بأي كلمة لتوضع مكان إحدى الكلمتين ، فلو قلت مثلا والفجر إذا تنفس لم تخالط نفسك هذه الروعة ولم تحس بهذا التأثر فإن كلمة الفجر وإن كانت رديفة لكلمة الصبح فهي تختلف معها في الاشتقاق لأنها مشتقة من الانفجار وهذا يعني أن الفجر أول سطوع ينشق عنه ظلام الليل والصبح مأخوذ من الإصباح وهو سريان الضوء في الظلام ،كما تسري الروح في الجسم،والماء في الشجر،وذلك بأن تمتد أسنة الضوء لتمزق رداء الظلام الذي يجلل الفضاء ، ولذلك كانت كلمة الصبح هنا أليق وأنسب من كلمة الفجر لاقترانها بذكر التنفس والتنفس دليل الحياة لأنه عبارة عن جذب الأنفاس إلى داخل الجسم وإخراجها منه ، وبدخول الأنفاس في الجسم تعطي الجسم مادة الحياة؛وخروجها استمرار للحياة ، وهذا لا يناسب ذكر الفجر كما يناسب ذكر الصبح لما تصوره جملة «وَالصُبح إذا تَنَفَّسَ» من ذلك المشهد الذي ينساب فيه ضوء الصباح في الفضاء فيطوي رداء الظلام وتسري الحياة في عالم الأرض ، فتغنى الطيور ، وتحيا الحركة إذ ترى الناس بين آت وذاهب يغدون إلى

أعمالهم ، والحيوانات تنطلق من مرابضها، ساعية وراء رزق الله، والأشجار تستقبل أزهارها وأوراقها هذا الضياء استقبال العاشق لمعشوقه ، ومثل ذلك قل في تناسب جميع الكلمات وتآخيها ، انظر إلى قوله تعالى ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَٰكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ﴾ (الشورى/٥٢ ـ ٥٣) تجد هاتين الآيتين مسبوقتين بذكر الوحي وكيفيته في قوله تعالى ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ... الآية﴾ وهنا وجه الخطاب بأسلوب الالتفات إلى رسول الله ﷺ في قوله ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾ يعني أنه سبحانه أوحى إلى عبده محمد ﷺ بنفس الطريقة التي كان يوحي بها إلى النبيين من قبل ، ولم يقل عز من قائل وكذلك أرسلنا بدلا من أوحينا لما في الإيحاء من معنى لطيف فهو يدل على الخفاء الذي لايدل عليه الإرسال.

والوحي إلى النبيين يكون بطريقة خفية بحيث لا يشعر من حولهم بما أوحي إليهم به ، وبيَّن سبحانه أن الموحىٰ به روح من أمره والروح أنسب بالوحي لما في الروح من اللطف والخفاء ، ويظهر أن الأرجح تفسير الروح هنا بالقرآن لا جبريل فإن الموحىٰ به هو القرآن وحمله على جبريل ــ كما يقول كثير من المفسرين ــ لايتأتى إلا إذا فسر أوحينا بأرسلنا ، وبيَّن سبحانه في الآية أن الروح الموحىٰ به من أمره فلا دخل لأهواء الناس ونزعاتهم فيما أوحى به ولا تأثير لشيء عليه وفي التعبير بالروح أيضا ما يشعر بأن الموحىٰ به سبب للحياة ، كما أن الروح التي تنفخ في الجسم سبب لحياته ، وإنما حياة الناس بالروح الموحىٰ به حياة معنوية فهي حياة العقول والأفكار وحياة المشاعر والأحاسيس ، ثم أتبع ذلك قوله ﴿مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ

﴿وَلَا الإِيمَانُ﴾ لإظهار المنة على النبي ﷺ الذي أكرمه الله بالوحي وهداه به ولم يكن يقرأ قبله من كتاب ولايعرف تفاصيل الايمان وإن وقر مجمل الإيمان في قلبه، إذ لم تؤثر حياة الجاهلية على عقله ولا على سلوكه ، ثم تلا ذلك قوله ﴿نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾ لبيان أثر القرآن فهو نور من الله يشرق على العقول فيهديها ويطوي من النفس ظلمات الطبع ، ثم بَين-تعالى-تَشريفه لرسوله ﷺ بجعله هاديا إلى صراط مستقيم يهدي ببيان ما أنزل إليه من الكتاب ، يفصل مجملاته ويوضح مبهماته وينشر طواياه ، فانظر إلى هذا التناسق بين الكلمات والتساوق في المعاني وما تجده من لذة وقع الكلمات في سمعك ، وأثر معانيها في نفسك ، وتجد التآلف بين الحروف كالتآلف بين الكلمات ، وخذ مثلا لذلك قول الله تعالى عن إخوة يوسف ﴿قَالُوا تَاللَّهِ تَفْتَأُ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّى تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ﴾[(١)] تجد تصدير المحكي عنهم بالقسم ولم يكن القسم بالباء أو الواو وإنما كان بالتاء وهي من الحروف الشديدة الثقيلة على اللسان ، والقسم بها نادر ولكنها هنا مقرونة بما يضاهيها من الحروف والكلمات في الشدة والندره ، منها كلمة «تفتأ» التي تكررت فيها التاء وتلتها الهمزة وهى من الحروف الشديدة أيضا ، وجردت تفتأ من لا النافية لتخلص الشدة في التركيب ثم جاءت كلمة «تذكر يوسف» وتذكر فيها حرفان من حروف الشدة وهي التاء والكاف ، ثم جاءت جملة «حتى تكون حرضا» وفي كل من حتى وتكون حروف شديدة ، ووُضعت كلمة «حرضا» في هذا الموضع لتتم ندرة التعبير فإنها مع ثقلها نادرة الوقوع ، وهذا التعبير القرآني يعكس الحالة النفسية التي كان عليها المحكى عنهم ، فإنهم كانوا يشعرون كلما طرق ذكر يوسف مسامعهم أو خطر على قلوبهم ببشاعة جريمتهم فتتصور لهم في سويداء قلوبهم وتتمثل لهم أمام سواد أعينهم وتجرد لهم ضمائرهم سياطا من الملامة تلذعهم بوقعها في نفوسهم ،

فقد جنوا على أبيهم الشيخ الكبير الحاني وعلى أخيهم الناشيء الصغير الضعيف،وهم يرغبون في التخلص من الإحراج الذي يواجهونه كلما دار اسم يوسف على لسان لا سيما لسان أبيهم الذي لا ينفك عن ذكره ولا تبارح نفسه ذكراه.

فلا غرو إذا جيء بمثل هذه الكلمات الشديدة النادرة في الحكاية عنهم ، وقل مثل ذلك فيما حكي عنهم من قولهم ﴿تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ﴾(يوسف/٧٣) فإن حكاية قسمهم بالتاء تعكس انفعالهم،وكذلك ما ذكر عن إبراهيم عليه السلام من قوله ﴿تَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ﴾(الأنبياء/٥٧) فإن المقام مقام غضب وانفعال من أبي الأنبياء إبراهيم عليه السلام بسبب تعنت قومه في الكفر وإصرارهم عليه واتخاذهم الأنداد للهسبحانه.

سر ميزة التعبير القرآني

وقد يتساءل بعض الناس كيف تكون هذه الميزه للتعبير القرآني؟ وكيف يعجز العرب عن الإتيان بمثله؟ مع أنه لم يأت بجديد من الحروف والكلمات ، فحروفه هي حروفهم التي ألفوها وكلماته هى كلماتهم التي عرفوها ، وأرى أن أترك الإجابة هنا للباحث الكبير الدكتور محمد دراز الذي أجاب عن مثله في كتابه «النبأ العظيم»،بأن صنعة البيان كصنعة البنيان ، فالمهندس الماهر لا يأتي بمادة جديدة في البنيان ولكن يظهر تفوقه بحسن التصميم وباختيار النوع الجيد من مادة البناء وترتيبه للغرف والأبهاء حتى تتسع المساحة الصغيرة من الأرض لكثير من الحجر التي لم تكن لتتسع لها لولا حسن الترتيب وحتى يتخللها الضوء والهواء إلى غير ذلك من نحو خفة السقف ومتانة الأسس،فكذلك يكون التفاوت في صنعة البيان في جودة

المعاني وترتيب الكلمات وإلا فالحروف هي الحروف والكلمات هي الكلمات ، وأريد أن أضيف إلى ما يقوله العلامة دراز شيئا آخر وهو أن التفاوت بين صنعة الحق وصنعة الخلق ــ ولو اتحدت مادة الصنعة ــ تفاوت لا تمكن معه المقارنة، فالناس يصنعون من مادة التراب أنواع الأوعية الخزفية والآجر وسائر المصنوعات المألوفة وهي كلها من أنواع الجمادات الميتة والله تعالى صنع من التراب نفسه الإنسان وجميع عناصر التراب موجودة في جسمه ، وقد نفخ الله فيه من روحه فسرت الحياة إلى كل خلية من خلاياه، وجعل فيه من الغرائز والطبائع والأحاسيس والأفكار ما يؤهله لأن يكون خليفة في الأرض ، وجعل فيه من عجائب التكوين مايبهر الباحثين فجسمه يشتمل على ملايين الملايين من الخلايا ولكل خلية وظيفتها ولكل خلية مطالبها التى هيأها الله تعالى لها ، وهكذا مثل الفارق بين كلام الله وكلام الناس فالحروف هي الحروف والكلمات هي الكلمات ولكن لكلام الله روح تميزه ليست في كلام الناس ، وبسبب هذه الروح كان هذا القرآن يسري في نفس أي إنسان سريان الروح في الجسم والضوء في الفضاء والماء في الشجر.

ويتميز القرآن عن كل كلام بأنك لاترى فيه أثرا للسأم ، ولا تجد فيه مايشير إلى الملل ولذلك لا تستطيع أن تفاضل بين عبارة وأخرى منه فهو كنهر من النور كل حرف منه لمعة نورانية ساطعة بينما كلام الخلق تظهر فيه طبائعهم فترى فيه آثار السأم والملل مهما أوتوا من موهبة البيان وقد يكبو بأحدهم جواد البيان، فترى في كلامه الإسفاف الذي لا يقارن ببليغ كلامه، فهذا امرؤ القيس من نوابغ شعراء الجاهلية تجد له كبوات في شعره، ومثله المتنبي من كبار شعراء المولدين، وقل مثل ذلك في جميع الشعراء والخطباء والكتاب بدون استثناء.

عجز العرب عن الطعن في القرآن أو معارضته

وقد ترصد العرب للقرآن وأمعنوا النظر في حروفه حرفا حرفا علهم يجدون ما يأملونه من مطعن،ولكن وجدوا كل جملة تبهرهم بتركيب كلماتها وتناسق حروفها وتآخي معانيها وجمال تصويرها وسعة مدلولها ، بحيث لا تبقى خاطرة تخطر بالنفس إلا وقد استوفتها في الدلالة ، والناس مهما أوتوا من ملكة البيان فبيانهم لا يفي بما في نفوسهم من التصورات ، فقد تتناسق في نفس أحدهم المعاني الكثيرة فإذا جاء يعبر عنها أخفق في التعبير وجاء بيانه دون ما يرمي إليه،وهذا لأن فنية التصوير تكون دائما وأبدا أقل من عُمق التصور وهذا أمر مشترك بين جميع البلغاء لا فرق فيه بين العرب وغيرهم ، وقد قسم أحد الكاتبين الكلام إلى ثلاثة أقسام (صوت النفس وصوت العقل وصوت الحس).

فصوت النفس هو الكلمة التي تخرج حاملة معها نبرات حروفها مع ماتوحيه تلك الحروف باختلاف مخارجها وتعدد صفاتها من إيحاءات خاصة فهذه الكلمة هي خطوة من خطوات المعاني تتقدم بها إلى النفس.

وصوت العقل هو ما يشد الإنسان ويثير انتباهه من معانٍ تؤدي بالعبارات البليغة التي تصل إلى موضع الإقناع من العقل والوجدان من القلب.

وصوت الحس هو أعمق أثرا وأقوى تأثيرا من ذلك كله وهو أن يستولى الكلام على حس الإنسان استيلاء يجعل النفس تشعر أنها منساقة إلى هذا التعبير انسياقا لا تملك دفعه وتنجذب إليه انجذابا لا تستطيع تصوره ولا تصور أسبابه،ذلك لما في الكلام من روح غيبية فوق مدارك الأفهام وهذا الصوت إن وُجد في كلام الناس فهو نادر الوقوع ولا يكون إلا في كلمات معدودة ، أما أن يكون في جميع الكلام أوله وآخره فهو لم يُعهد إلا في القرآن

وحده ، فكل حرف من حروفه تسري فيه هذه الروح الغيبية فتجعله نابضا بحياة لا توجد فيه لو أزيل من موضعه ووضع في أي موضع من كلام بلغاء البشر، وبهذه الروح التي يتميز بها القرآن ملأ قلوب العرب سر إعجازه فكان هذا الإعجاز راسخا في قرارة كل نفس من نفوسهم وإن أنكروه بأطراف ألسنتهم وكان هذا الإحساس لا ينفك عنهم ، فلو حاولوا أن يأتوا بأي كلام آخر ليعارضوه به لشعروا بذلك الإحساس يسد عليهم مسالك التعبير ، ولو استطاعوا ترتيب المعاني الذهنية في نفوسهم بعمق تصورهم وسعة خيالهم لخانتهم ألسنتهم وتعثرت في نهج البيان ، وإذا عجز العرب ـــ الذين كان البيان سجية من سجاياهم ـــ عن معارضته، فمن بعدهم من المولَّدين أوغل في العجز وإن تعمقوا في دراسة سر البيان واستجلوا لطائف التعبير إذ ليس التطبع كالطبع «ليس التكحل في العينين كالكحل».

ولو حاولوا ذلك لبدا لهم عجزهم من حيث يتخيلون قدرتهم فلو اشتغلوا بالحروف ينظمونها مع رعاية مخارجها ونبراتها وإيحاءاتها لفاتتهم المعاني وجاءوا بكلام لا يجدون له معنى، ولو اشتغلوا بالمعاني وتحرروا من التقيد بأسلوب القرآن لوجدوا الطباع نافرة عن تقبل ما يقولون مع العلم أن الكلام البليغ لا يوجد في فقرات قصيرة إلا في بعض الأمثلة التي تُضْرَب وتأثير هذه الأمثلة على النفس موقوف على شرحها وبيان المناسبات التي قيلت فيها ، وأين ذلك كله من كلام الله الذي تجد الفقرة منه تغوص في أعماق النفس فتمتلك لبها بمجرد وصول حروفها إلى السمع.

ولم أكن أظن أحدا من الناس وإن غلظ طبعه لا يحس بالفارق بين القرآن وغيره إذا تليت آية منه في وسط أي كلام مهما بلغ من شأو في

حسن التركيب وجزالة المعنى ، وقد سمعت أن امرأة أوروبية لاتفقه العربية أصغت إلى خطيب عربي كانت تتخلل خطبته آيات من القرآن فأخبرت الخطيب أنها شعرت بكلام من غير جنس كلامه يتخلل عباراته فأخبرها أن ذلك هو القرآن ، وما أعجب إلا من حال الذين حُرموا من هذا الذوق فلا يحسون بالفرق بين القرآن وغيره مع معرفتهم باللسان العربي وانطلاق ألسنتهم به.

من دلائل الإعجاز في التعبيرالقرآني

ومن دلائل الإعجاز في عبارة القرآن تميزه عن غيره من الكلام البليغ بكثرة الإحتمالات، فإن كلام البشر كلما كان أبلغ كان أدل على المطلوب وأبعد عن الإحتمالات ، ولكن القرآن بما أنه صوت الغيب الموجه إلى مسامع الدهر يعى كل زمن من أزمنة الدهر من معانيه بقدر ما يكون فيه من مقاييس الفكر وتطورات العلم ومن ثم تجد الإنسان في كل عصر يشعر إذا تلا القرآن أن حقائقه تتجلى أكثر ما تتجلى في العصر الذي هو فيه ، فتجد الأعرابي البدائي الذي ما كان يتخيل المراصد الجوية ولا درس شيئا من الهيئة الكونية إذا تلا قول الله تعالى ﴿وَآيَةٌ لَهُمُ اللَّيلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ ، وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍ لَهَا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ، وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَى عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ ، لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌ فِي فَلَكٍ يَسْبحُونَ﴾(يس/ ٣٧ ـ ٣٩)يتصور منه المعاني التي تنطبق على فكره ، ويتسع لها أفقه العلمي ، كما تجد عالم الفلك الذي يستعين بالآلات المستحدثة المتنوعة على مهمته العلمية يتصور أن هذه الآيات ما جاءت إلا لتخاطب عقله وعقول نظرائه من العلماء الباحثين ، ومثل هذه الآيات قول الله تعالى ﴿تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُجًا وَجَعَلَ

فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُنِيرًا ، وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا﴾(الفرقان/٦٢) وقوله تعالى﴿يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا﴾(الأعراف/٥٤) وقوله ﴿يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ﴾(الزمر/٥) بل تجد صاحب كل تخصص علمي في كل عصر يستخرج من القرآن الحقائق العلمية بحسب ما أوتي من فهم وما وصل إليه من اكتشاف ولا تجد ما يدل على التصادم بين نصوص القرآن ومدلولات العلم وإن اختلفت أطوار العلماء وتباينت مذاهبهم العلمية فكيف وسع هذا القرآن الدهر كله وجاءت عباراته-مع بلاغتها التي تنحط دونها بلاغة البلغاء ــ منسجمة مع أفهام الناس المختلفة باختلاف الأطوار الثقافية.

ما تمتاز به بلاغة القرآن

ومما يميز بلاغة القرآن أنك تجد آياته تتناول الموضوعات المتعددة من غير تبويب وترتيب،فبينما تجدها تأمر وتنهي تجدها تعد وتتوعد أو تعظ وتذكر أو تكشف عن طبيعة الكون أو تكوين الإنسان أو تقص أنباء الأمم السالفة وأخبار الأنبياء الغابرين ، ومع ذلك فلا تجد ما يدل على انحطاط في التعبير أو ما يشير إلى خلخلة في البلاغة ، ولكن تجده طبقة واحدة في قوة التعبير وجزالة المعاني وانسجام الألفاظ وحسن التركيب بحيث لايمكنك أن تفضل بيانه في جانب عليه في جانب آخر ، بينما كلام نبغاء البشر لا يتيسر له قدرما من البلاغة في كل شيء ولذلك يتفاضل الشعراء والخطباء والكتاب باختلاف الموضوعات التي يطرقونها،فقد يفضل شاعر غيره في الوعظ أو الرثاء أو الحماس أو الغزل أو الفخر ولاتجد شاعراً واحدا بعينه يتفوق على الشعراء في جميع أغراض الشعر ومثلهم الخطباء والكتاب ، وبالجملة فإن وجوه الإعجاز في بيان القرآن أكثر من أن تحصى وما قصدت بهذا النموذج

اليسير الذي ذكرته إلا تحريك الهمم وبعث العزائم في نفوس شبابنا خصوصا إلى دراسة الأدب منهم ، علهم يصرفون همتهم إلى القرآن الكريم فإنهم ـــ ولاريب ـــ سيجدون منه النبع الذي لا ينقطع،والنور الذي لا يأفل، والكنز الذي لا يفنى،وفي هذا ما يغنيهم عن المستنقعات الآسنة من الأدب الساقط كغزليات عمر بن أبي ربيعه ، وخمريات أبي نواس ، وغيرها من الأدب المكشوف الداعر الذي تقذفه سموما قرائح الفساق الحاقدين على الإسلام والمناوئين لأهله ، وما أكثر هؤلاء في كل عصر خصوصا في عصرنا الذي تميعت فيه الأخلاق ، وانحدرت فيه القيم وحورب فيه الإسلام بأنواع الشعارات التي ظاهرها الرحمة وباطنها شرٌّ أنواع العذاب ، ولا يفوتني أن أهيب بشبابنا الذين يدرسون الطب والعلوم والاجتماع والاقتصاد وغيرها من فنون العلم أن يجعلوا محور دراستهم القرآن الكريم حتى يكشفوا عن أسرار إعجازه التي لا تزال في الخفاء ، وأسأل الله لي ولهم ولكل المسلمين التوفيق والعون والتسديد.

٢ــ الإعجاز التشريعي

التشريع القرآني لم ينتج عن فكرة أو تجربة

لقد أنزل الله القرآن على محمد بن عبدالله النبي العربي الأمي صلوات الله وسلامه عليه في بيئة أمية وعلى جزء من جزيرة العرب لم يمتد إليه شعاع الحضارة ، ولم تقم على ترابه دولة ، ولم يخضع لسلطة خارجية فكانت هذه البقعة بالذات أبعد بقاع جزيرة العرب عن معرفة نظام الحكم ومناهج التشريع ، والنبي ﷺ الذي أكرمه الله باصطفائه لهذا الأمر العظيم لم يكن يخطر بباله البحث عن الشئون السياسية،ولا المناهج الاقتصادية،ولا دراسة علم النفس،ولا أي ناحية من النواحي التي تتصل بحياة الناس ، وإنما كانت نشأته كنشأة عامة شباب قريش من هذه الناحية ، وقد كان منطويا على نفسه لا يطمح إلى الظهور ، ولا يتطلع إلى منصب ولذلك لم يكن يشارك فصحاء العرب من الشعراء والخطباء في مجامعهم بسوق عكاظ أو غيره ليتألق كوكبه في أفق البيان شعرا أو نثرا ، ولم يكن مهتما بالمنافسة في الوسط الذي يعيش فيه ، فلذلك لم يكن يشترك في مجالس الشورى التي كانت تعقد في دار الندوة بمكة إلا بالحضور والإنصات،اللهم إلا ماكان منه ﷺ من مشاركته في حلف الفضول الذي كان يعتز به في الإسلام ويصفه بأنه أحب إليه من حمر النعم ، ويعلن أنه لو دُعِي إليه لأجاب ، كل هذه النواحي تثبت لنا استحالة كون التشريع القرآني ناتجا عن فكره أو صادرًا عن تجربته،فإنه من المعروف في تاريخ التشريع البشري أنه يحتاج إلى سلسلة من التجارب والدراسات في أحوال الناس النفسية والاجتماعية ،كما يحتاج إلى أن تتضافر عليه جهود ذوي الخبرات المتنوعة.

فالتشريع الروماني مثلا هو وليد تجربة دامت زهاء ثلاثة عشر قرنا وقد تضافرت على صياغته وإخراجه جهود كثير من النبغاء والمفكرين منهم(سولون) الذي وضع قانون أثينا(وليكورغ)الذي وضع نظام أسبرطه فأنّى لعربي نشأ في أرض الحجاز بين الأميين أن يضع في ظرف عقد من السنين نظاما تقوم عليه حياة الإنسان إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها ، مع أن كل التشريعات البشرية لا تكاد تمر عليها فترة من الزمن حتى تتكشف عن ضروب من الخلل فتفتقر دائما إلى التبديل والتعديل ، ولو أخذنا نقيس التشريعات التي سبقت في الوضع نزول القرآن أو التي أحدثت بعد نزوله بالتشريع القرآني لرأينا تعذر المقارنة بينه وبينها .ولو جازت المقارنة بين الذبالة والغزاله أو بين الضريح والضراح ، وكيف تمكن المقارنة بين ماكان من قبل الله الذي يعلم خفايا الطبائع كما يعلم ظواهرها وبين ما يكون من مخلوق عاجز لا يحيط علما بضرورات نفسه وما سيحدث من أطوار حياته فضلا عن الإحاطة بضرورات جميع البشر وأطوار حياتهم ، ولعمري إن نظرة يلقيها العاقل على البيئة التي نشأ فيها رسول الله ﷺ تعود إليه باليقين القاطع بتعَذر أن يضع الإنسان الناشيء فيها نظاما من الأنظمة البشرية سواءًا كان إجتماعيا أو سياسيا أو إقتصاديًا فكيف بتشريع محكم دقيق يتناول هذه الجوانب كلها بل يتناول المشاكل الإنسانية المعاصرة وغير المعاصرة مما تفرزه التطورات المتتالية إلى أن تقوم الساعة بحلول شاملة عميقة الأثر لا تقف عند ظواهر الأمور فحسب، بل تأتي على كل مشكلة من أصلها لأنها تغوص إلى أعماق فطرة الإنسان مراعية جميع خصائصها كما تراعى طبيعة الكون الذي جعل الله فيه مباءة للإنسان والعلاقة التي بين طبيعة الكون وفطرة الإنسان الذي هو محور التشريع،ومن مراعاة هذه الفطرة إعطاء كل نوع من الجنس البشري أحكامه التي تلبي ضروراته ، وتنسجم مع خصائص تكوينه ، فإن حكمة الله قد

قضت أن يتنوع الجنس الإنساني كغيره إلى نوعين ذكر وأنثى ، ولكل منهما خصائص تكوينية ومطالب ضرورية لا يصح تجاهلها في بناء الحياة المدنية التي خص الله بها النوع الإنساني، إذ لو أُعطيت المرأة أحكام الرجل في كل شيء لفاتت حكمة التنويع في الخلق ، وكذلك لو أعطي الرجل أحكام المرأة ، ومن الجهل المركب والتعسف الظاهر ، ماينادي به المفتونون بالنظريات المستوردة من المساواة بين الرجل والمرأة لما في ذلك من التجاهل لخصائص الفطرة في كل منهما ، فالرجل خُلق ليكون ذكرا وطُبع بطابع الذكورة، والمرأة خُلِقَت أنثى وطُبعت بطابع الأنوثة، وهذا التنويع، ليس محصورا في الجنس البشري ولكنه مشترك بين الإنسان والحيوان والجمادات والنباتات بدليل قول الله ﴿وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ﴾(الذاريات/٤٩) وقوله ﴿سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ﴾(يس/٣٦) وفي طي هذا التنويع حِكْمة بالغة ، فإن كل واحد من النوعين يكمل النوع الآخر.

والذين نظروا نظرة واقعية إلى طبيعة البشر أدركوا سر التفرقة بين الذكر والأنثى في التشريع الإسلامي رغم نشأتهم في بيئة ترفض هذا المنطق ، وقد نعى هؤلاء على قومهم جهلهم أو تجاهلهم لما تتميز به كل واحدة من طبيعة الذكوره أو الأنوثة في الرجل والمرأة ومن هؤلاء الكاتب الفرنسي الأمريكي الدكتور ألكسيس كاريل صاحب كتاب «الإنسان ذلك المجهول» الذي بيَّن الفوارق التكوينية بين الرجل والمرأة وقال إن المرأة لا تختلف عن الرجل باختلاف الأعضاء التناسلية وبالولادة والرحم فحسب ، بل الفارق بينهما جد عميق ، فإن كل حجيرة في جسمها تحمل طابع جنسها ، وأضاف إلى ذلك أن الرجل والمرأة يختلفان في العواطف والمشاعر والأفكار، كما أنه انتقد

تسوية المرأة بالرجل في الثقافة منبهًا على وجوب مراعاة خصائص الأنثى في المناهج الدراسية لتعليم الفتيات ، وقد ذكرت باحثة إجتماعية فرنسية أن المرأة تتميز بقوة العاطفة فلذلك تستولى العاطفة على كلا جانبي دماغها بخلاف الرجل فإنه وإن التهبت عاطفته لا تشغل إلا جانبا منه والجانب الآخر يبقى فارغا للتفكير ، وهنا يظهر سر التشريع الإلٰهي في شهادة النساء إذ اعتبرت المرأتان عن رجل وجاء تعليل ذلك في قوله تعالىٰ ﴿«أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَىٰ﴾(البقرة/٢٨٢) وقد أوضح علماء التشريح عمق الإختلاف بين المرأة والرجُل في تكوين الجسم.. ومما قالوه أن جسم كل منهما يشتمل على ستين مليون خلية وكل خلية من خلايا الرجل عليها طابع الذكورة بخلاف خلايا المرأة فعلى كل خلية منها طابع الأنوثة ، والإختلاف غير مقصور على الطبع بل هو حتى في الشكل كما شاهدناه في الصور المكبرة ، ولا يقف الفرق بين الجنسين عند هذا الحد بل هو أعمق وأدق فهناك طبقة دهنية تغطي هذه الخلايا وهي الكروموسومات وتسمّى الأصباغ والجسيمات اللونية وهي من الدقة بحيث تقاس بالواحد على بليون من الملليميتر ومع هذه الدقة في الجسيمات فهي تختلف في المرأة شكلا وطبعا عنها في الرجل ، والقرآن الكريم يوضح لنا هذا الاختلاف بين طبيعة المرأة وطبيعة الرجل فيما حكاه عن امرأة صالحة من بني إسرائيل من قولها ﴿وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالأُنْثَىٰ﴾(آل عمران/٣٦)

هذا ومن درس تاريخ الأمم وحضاراتها وعقائدها وأفكارها يَرى أن المرأة لم تتبوأ مكانها الطبيعي إلا في ظل نظام الإسلام ، فاليونان والرومان وغيرهم من الأمم المتحضرة دخلوا التاريخ وهم ينظرون إلى المرأة نظرة تقزز واستهجان فقد كانوا يشكون في إنسانيتها ويعتبرونها رجسا من عمل الشيطان،ويقيسون

نزاهة النفس بالبعد عنها ولا يولونها شيئا من الحقوق الاجتماعية التي تفتقر إليها، ثم أخذت نظرتهم إليها تتطور شيئًا فشيئًا بتطور الفكر ونُمو الوعي ، ولكنها لم تكد تقف عند نقطة الإعتدال حتى هوت بهم إلى الجانب الآخر،فإذا بهم يغالون في تمجيد المرأة ويكلون إليها من الواجبات الإجتماعية والسياسية مالا تتحمله طبيعتها وبلغ بهم الحال أن الومسات أصبحن عندهم يدرن سياسة الأمة،وأصبحت بيوت الدعارة هي مقر السياسة مما أدى بهم إلى تفكك روابطهم وانحلال مجدهم وتقلص عزهم وما العالم المتحضر في العصر الحديث من ذلك ببعيد ، أما إذا عدنا إلى التشريع القرآني فإنا نجد المرأة قد بوئت مكانها اللائق وأعطيت حقوقها التي تقتضيها طبيعتها من غير إفراط ولا تفريط ونجد هذه الرعاية من شريعة الله في القرآن تصحب المرأة منذ ولادتها إلى موتها بل تبقى لها حتى بعد الموت.

فالإسلام كرم المرأة وهي وليدة وكرمها وهي ناشئة بين أبويها وكرمها وهي شابة يافعة ، وكرمها وهي زوج ، وكرمها وهي أم ، فنجد القرآن الكريم يؤنب ذوي النفوس الجاهلية الذين يكرهون البنات ويمتعضون إذا بشروا بهن في قوله ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالْأُنْثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾(النحل/٥٨-٥٩) وفي هذا التأنيب البالغ ما يـــــدل على أن الإسلام يوصي أن تستقبل الأنثى بما يُستقبل به الذكر من الفرحة والإستبشار ، فالأنثى والذكر هبة من الله ﴿يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ﴾(الشورى/٤٩) وفي تصدير ذكر الإناث في الآية على ذكر الذكور مالا يخفى من لطف الإشارة إلى واجب رعاية جانبهن واستقبالهن بالبشرى والفرحة لا بالأسف والامتعاض،فإن ذلك من عادات الجاهلية التي جاء الإسلام ليستأصلها ، وجاء في الحديث الشريف عن رسول الله ﷺ أنَّ من رُزق

بنات فرباهن وأحسن تربيتهن كن له يوم القيامة حجابًا من النار ، وكُرِّمت المرأة في شبابها في ظل نظام الإسلام إذ مُنع تزويجها بمن تكره ، كما جاء في الحديث «الثيب أحق بنفسها من وليها ، والبكر تستأذن في نفسها وإذنها صماتها» وإنما اشترط الولي في عقد زواجها حذر أن تندفع وراء عاطفتها فتربط نفسها بمن لا تحمد أمره من بعد،وفي هذا أيضا رعاية لجانب المرأة ومحافظة على حقوقها ، وجاء في كتاب الله وفي سنة رسوله عليه أفضل الصلاة والسلام من الوصية بالمرأة وهي زوج ما لو حافظ عليه الناس لغمرت البيوت السعادة ، وملأ قلوب العائلات الإطـــــــــمئنان والإستقرار ، فقد أمر الله تعالى الرجل بأن يعاشر أهله بالمعروف سواء أحبها أو كرهها إذ لايقف كرهه لها أمام حقوقها الزوجية ، يقول تعالى ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْراً كَثِيرًا﴾(النساء/١٩) وكما أمر الله تعالى أن تعاشر المرأة بالمعروف أمر أيضا أن يكون تسريحها بإحسان حيث قال ﴿فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ﴾(البقرة/٢٢٩) وحذر من مضايقتها حتى تلجأ إلى الإفتداء من الرجل ولو بقسط مما آتاها من الصداق في قوله ﴿وَإِنْ أَرَدْتُمُ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَكَانَ زَوْجٍ وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنْطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنْكُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا﴾(النساء/٢٠، ٢١) وفي قوله ﴿وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا آتَيْتُمُوهُنَّ﴾(النساء/١٩).

أما الأم فهي التي رُفعت بحكم الإسلام إلى مقام لا يرقى إليه غيرها حتى الأب ، فالله تعالى يقول ﴿وَوَصَّيْنَا الإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا﴾(الأحقاف) فانظر كيف وصى الإنسان بكلا والديه ثم أوضح ما كان من تضحيات من قبل الأم لإيقاظ المشاعر

النائمة في نفس الولد وتحريك العواطف الساكنة نحو أمه التي قدمت تلك التضحيات الجسيمة لأجله ، فقد تحملت مشقة الحمل وهو جنين ، وعانت من حضانته ورضاعه وهو طفل ، فما أجدرها ببذل الوسع واستنفاد الطاقة في برها ، وإذا كانت دلالة الآية على تفوقها على الأب في الحقوق غير صريحة فإن السنة النبوية قد جاءت بما يستأصل الشك وينفي اللبس، فقد أخرج الشيخان أن رجلا جاء إلى النبي ﷺ فقال له: أي الناس أحق مني بحسن الصحبة ؟ قال له:«أمك» قال له: ثم من ؟ قال له: «أمك» ، قال له: ثم من ؟ قال له: «أمك» ، قال له: ثم من ؟ قال له: «أبوك ثم الأقرب فالأقرب.

فانظر كيف أكد الرسول ﷺ على حق الأم ثلاث مرات ولم يذكر حق الأب إلا مرة واحدة معطوفا على حق الأم بثم التي تقتضي المهلة والترتيب ، ونجد الإسلام لاينسى المرأة من رعايتها بعد موتها ، والنبي ﷺ يضرب لنا المثل الحي في ذلك ، فقد كان يرعى السيدة خديجة رضي الله تعالى عنها بعد موتها ، فإذا ذُبحت شاة في بيته يقول: (أرسلوا منها لأصدقاء خديجة) فتقول له عائشة رضي الله عنها: ولم ذلك يارسول الله ؟ فيجيبها (إني لأحب حبيبها) وقد صادف أن سمع النبي ﷺ في بيته بالمدينة صوت أختها هالة وكان يشبه صوت خديجة فأخذته الأريحيه وقال: (اللهم هالة) فأخذت الغيرة أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها وقالت له: يارسول الله ما تذكر من عجوز من عجائز قريش حمراء الشدقين أبدلك الله خيراً منها ؟ فغضب النبي ﷺ وقال: (والله ماأبدلني الله خيرا منها ، والله ماأنت بخير منها ، لقدصدقتني إذ كذبني الناس ، وآمنت بي إذ كفر بي الناس ، وواستني بمالها إذ حرمني الناس ، ورزقني الله منها الولد دون غيرها من النساء ، فجزاها الله عني خير جزاء ، اللهم اجز عني خديجة بنت خويلد).

ونرى الإسلام الحنيف يحوط الحياة الزوجية بسياج من الأحكام يضمن لها الهدوء والإستقرار والإطمئنان،ويبدأ بالحض على الزواج تلبية لنداء الفطرة لما يترتب على معاكستها من أمراض نفسية وعصبية،وحذرا من انفجار الغريزة الذي يتبعه تحطم الأخلاق وتلاشي الفضائل والقضاء على حياة المجتمع بانتشار الفساد ، وشيوع الرذيلة ، ونجد في كتاب الله الامتنان على الناس بالحياة الزوجية في قوله تعالى ﴿الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً﴾ (النساء/١) وقوله ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾(الروم/٢١)وجاء فيه مايشير إلى الأمر بالزواج،ويُصرح بوجوب تيسيره في قوله تعالى﴿وَأَنْكِحُوا الْأَيَامَىٰ مِنْكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾(النور/٣٢)وجاءت سنة رسول الله ﷺ مصرحة بالترغيب في الزواج حيث يقول عليه أفضل الصلاة والسلام:(يامعشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء).

ومن مراعاة الإسلام للطبيعة البشرية وضروراتها أباح الطلاق وهو مع إباحته أبغض الحلال إلى الله ، ولكن أُبيح لما فيه من رفع المشقة عن الزوجين ، فقد تتنافر طبائعهما ويؤدي بقاؤهما مرتبطين بحبل الزوجية إلى معاناة حياة أشبه بالجحيم،فجعل في الطلاق فكاكا للرجل والمرأة من حياة العذاب الذي لا يُطاق وإباحة الطلاق مقيدة بقيود تدل على أنه لم يُبح إلا لرفع الحرج فالله تعالى يقول: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ﴾(الطلاق/١).

ولقد جاء في حديث رسول الله ﷺ إيضاح ما انبهم من مدلول الآية ، وذلك عندما طلق ابن عمر رضي الله عنهما امرأته وهي حائض وجاء عمر رضى الله عنه إلى رسول الله ﷺ وأخبره بما حدث ، فقال له النبي

ﷺ (مره فليراجعها حتى تطهر ثم تحيض ثم تطهر ، فإن شاء أمسك ، وإن شاء طلق ، فتلك العدة التي أمر الله أن يطلق لها النساء) وهذا يعني أن الطلاق المباح هو في الطهر الذى لم يباشرها فيه الرجل،أما في الحيض أو الطهر الذي باشرها فيه فهو حرام ، وقد استظهر العلماء علة ذلك فقالوا: «إن الرجل لا ينتفع بشيء من المرأة في حالة الحيض ، وقد يتقزز منها فلا يبالي بتطليقها في هذه الحالة لأتفه الأسباب ، وعندما يباشرها بعد الطهر ويقضي منها شهوته قد يزهد فيها ، أما في الطهر الذي لم يباشرها فيه فإن نفسه تكون إليها أميل وفيها أرغب ، لطول عهده بها ، وإمكان قضاء نهمته منها ، فلن يطلقها في هذه الحالة إلا لضرورة لا محيص عنها،ومن دقة الإسلام في رعاية الحقوق الزوجية (ولو بعد انحلال عقد الزواج)ما شرعه من تربص المرأة بعد الطلاق ليتم استبراء الرحم فلا تختلط المياه فتختلط بالتالي الأنساب ولإعطاء الرجل فرصة لمراجعة المرأة إذا ما أحس بالندم ولم يصبر عنها وبعد انتهاء أمد التربص يكون كواحد من الخطاب تحل له بعقد جديد مع كل لوازمه الشرعية وهي رضا المرأة وإذن الولي وصداق جديد وشهادة شاهدين ، ولم يعط الإسلام الرجل فرصة لمضايقة المرأة فيتلاعب بحياتها الزوجية يطلق ثم يراجع كما يشاء بل جعل أقصى حد للطلاق الذي تصح بعده المراجعة مرتين فإن طلقها بعدهما لم تحل له أُبداً حتى تنكح رجلا غيره نكاحًا صحيحا لا يشوبه تدليس،فلا يصح أن يتفق المطلق مع رجل آخر أو تتفق هي مع رجل على أن يتزوجها فيحللها للزوج الأول وإنما يجب أن يكون قصد المرأة والرجل الذي يتزوجها بناء حياة زوجية جديدة ويشترط مع ذلك أن يدخل بها الزوج الثاني ويقضي منها رغبته من الاستمتاع كما أصاب منها من قبله وفي هذا تأديب للمسيء من الرجل أو المرأة فإن كانت الإساءة منه فبحسبه أدباً أن يرى المرأة التي كانت شريكة حياته في حضن غيره من

الرجال،وإن كانت هي مبعث الشقاق فإنها بانتقالها إلى الزوج الآخر وتذوقها لونا جديدًا من الحياة عنده قد يكسبها ذلك مرونة وعقلا فإذا ما طلقها الأخير وعادت إلى الأول رجعت وقد انكسرت حدتها بما مر بها من تجربة الحياة فهذه نماذج من الأحكام التي يحوط بها الإسلام الأسرة المسلمة.

وهناك العديد من الأحكام التي لا يمكنني الآن استعراضها وإنما أرجو إن-وفق الله-أن أتحدث عنها عندما أصل إلى محلها من الآيات التي جاءت بها وحسب العاقل ما أشرنا إليه دليلًا على عمق التشريع الإسلامي الذي نزل به القرآن وتعذر كونه ناتجا عن فكر بشر لا سيما من كان في مثل المحيط المكي الذي نزل فيه القرآن.

وإذا ألقينا نظرة إلى النظام المالي في الإسلام وجدناه أرقى نظام عرفته الإنسانية في جميع أدوار تأريخها لما يتجلى فيه من العدل ويتميز به من الاعتدال فهو بعيد عن عيوب الرأسمالية والشيوعية ليس فيه ما في الرأسمالية من إعطاء الفرد مطلق الحرية ولو على حساب المجتمع ، ولا مافي الشيوعية من غمط الفرد حقه وإذابة ذاتيته في بوتقة المجتمع ولكنه نظام وسط لاإفراط فيه ولا تفريط يعطي الفرد من الحرية بقدر مصالحه ومصالح أمته فله أن ينمي ثروته مالم تكن هذه التنمية على حساب الأمة أو المجتمع وذلك واضح في تعليل قسمة الفيء التي جاءت في سورة الحشر حيث يقول تعالى: ﴿كَيْلَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ﴾(الحشر/٧) وفي نفس الوقت هو مطالب برعاية عدة حقوق منها حقوق الأقربين واليتامىٰ والمساكين وابن السبيل والمكاتبين ومطالب بالإنفاق في سبيل الله ، وتأتي هذه الحقوق كلها مبيّنة في آية من كتاب الله مع ماتشتمل عليه تلك الآية من العقيدة والأخلاق والعبادات

والتربية العسكرية وهي قول الحق تعالى: ﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَ الْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَ الْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِم إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَقُونَ﴾(البقرة/١٧٧) وفي عطف «أَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ» على «آتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى...الخ» دلالة على أن الإنفاق في الإسلام ينقسم إلى قسمين إنفاق منظم،وإنفاق غير منظم فالأول هو الزكاة التي تجب في أصناف مخصوصة من المال مع بلوغه حداً معينا لأصناف مخصوصة من الناس،والثاني هو سد حاجة المحتاجين من أموال الأغنياء بقدر سداد عوزهم من غير التفات إلى مقادير مخصوصة في الإيتاء ولا نظر إلى جنس ما يدفع ولا إلى حد ما يبلغ إليه المال المدفوع منه وإنما يتوقف هذا الدفع على حاجة المحتاجين فلو وجد غني مضطرا بعد أن دفع زكاته وجب عليه أن يعطيه من بقية ماله بقدر ما يستعين به على دفع ضرورته حتى قال بعض العلماء «من كان لايملك إلا رغيفا ووجد جائعا مضطرا إليه وكان في غنى عنه وجب عليه أن يعطيه الرغيف..وقد جاء في بعض الروايات عن رسول الله ﷺ (إن في المال حقا سوى الزكاة) وإذا كانت الرواية مطعونا في إسنادها فإنها تعتضد بما دلت عليه هذه الآية ، فأين هذا النظام من النظام الرأسمالي والنظام الإشتراكي ، أما النظام الرأسمالي فإن الفرد يجد فيه حريته المطلقة في تنمية ثروته ولو على حساب غيره ولذلك يجتمع في هذا النظام الغنى المفحش والفقر المدقع ولا ينبض قلب الغني بشيء من الرحمة على الفقير.

وبمثل هذه الأسباب تتأجج الأحقاد في الصدور وتتولد السخائم في القلوب وتعشش البغضاء والكراهية في النفوس فتؤدي إلى الانفجار عن النظام المعاكس وهوالنظام الشيوعي ، ولا يقل هذا النظام شرا وخطورة عن الذي قبله فهو يأتي على الأخضر واليابس بناره الحمراء التي لاتبقي ولاتذر ، ويبتلع الطارف والتليد من ثروات الأمة في جوفه المنهوم فيفقر الغني ويزيد الفقير فقرًا ويسلب الإنسان الحرية والاختيار ويحط قيمته بحيث لا تزيد عن قيمة الآلة الصماء التي تتوقف قيمتها على إنتاجها،فإذا عجز الإنسان عن الإنتاج لم يبالِ بمصيره الذي يرى فيه ، والإسلام لايختلف عن الرأسمالية في تقييده حرية الفرد في التصرف في الثروة فحسب بل هو يختلف معها بما يفرضه من القيود على طرق اكتساب المال فيمنع كل استغلال يضر بالآخرين ومن هذا الباب تحريم الغش والرشوة والربا والاحتيال كتحريم السرقة والاختلاس فالله تعالى يقول: ﴿وَلَاتَأْكُلُوٓا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ وأَنْتُم تَعْلَمُونَ﴾(البقرة/١٨٨) ويقول سبحانه: ﴿يَآأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَاتأْكُلوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُم ، وَلاتَقْتُلُوا أَنْفُسَكُم إِنَّ اللهَ كَانَ بِكُم رَحِيمًا وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ عُدْوَانًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيرًا ﴾ (النساء : ٢٩) ويقول سبحانه : ﴿ يَآأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَذَرُوا مَابَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ° فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللهِ وَرَسُولِهِ وَإِنْ تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ ° وَإِنْ كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ وَأَنْ تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ (البقرة ٢٧٨ : ٢٨٠) هذه الآيات كلها تأتي لتقييد حرية الفرد في إكتساب المال ، فليس له أن ينمي ثروته من طريق الباطل ، والباطل في الإسلام هو كل مالا يقره ، فيدخل في ذلك الغش والخداع والإختلاس وكل ما كان من

شأنه أن يحس من أخذ منه المال بالضيم ، وأباحت آية النساء التجارة بشرط أن تكـون عن تراضٍ بين المتبايعين وحرمت آيـة البقـرة الربـا تحريما لا هـوادة فيـه حيث جعلتـه حربـا بين النـاس وربهم ، وفي هـذا ما يضمن للفقـراء والمحتـاجين حيـاة الإستقرار والطمأنينة بحيث لا يهـدد ثرواتهم القليلة جشـع المكثرين من المـال .

وكما يأمر الإسلام برعاية الفقراء يحض على رعاية اليتامىٰ الذين فقدوا الكفيل الذي يقوم بتربيتهم ورعاية مصالحهم لئلا يتولد في نفوسهم الشعور بالحرمان كما يأمر برعاية الأرقاء ومساعدتهم على فكاكهم من ربقة الرق ليتساووا مع الآخرين في حياة الحرية ، ويوصي برعاية ابن السبيل وعونه ، وهو المنقطع عن أهله في سفر لا يريد به معصية ، وإن كانت أمواله طائلة في بلده ، ويوصي برعاية حق الجوار ولو بين مسلم ومشرك ، ويوصي بعون كل مستضعف حتى البهائم العجماء ، ففي الحديث (في كل ذي كبد رطبة أجر) وهناك كثير من الدقائق في نظام الإسلام المالي لا يتسع لها المقام أرجو أن أُوفق للتعرض لها في مواضعها من آي الكتاب.

نظام العقوبات في الاسـلام

أما نظام العقوبات على الجنايات فنجده في الإسلام هو النظام الوحيد الذي يضمن الأمن ويحافظ على استقرار الحياة ، ولم تُشرع العقوبات المتنوعة في الإسلام إلا لردع الذين يشذون عن منهج الحياة الإسلامية السليم ، وهؤلاء هم الذين لم يجد فيهم الإصلاح التربوي بسبب شذوذ طبائعهم عن الفطرة الإنسانية السليمة ، والعقوبات في نظام الإسلام متنوعة ، منها مارُسمت له حدود لايصح تجاوزها ومنها ماوكل إلى نظر الحكام واجتهادهم ، والحدود المشروعة منها ما شرع لصون الأنفس ، ومنها ما شُرع

لصون الأعراض ، ومنها ماشُرع لصون الأموال ، فقد شُرِع لصون الأنفس حد الحرابه الذي نطق به قول الله تعالى : ﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلَافٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ﴾ (المائدة/٣٣) واختلاف أنواع العقاب باختلاف أنواع الجرائم التي يرتكبونها ، كما سيأتي في محله إن شاء الله ، وشرع لأجل ذلك أيضا القصاص وعلة مشروعيته ظاهرة في قوله سبحانه : ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ﴾ ومع أن القصاص حق ثابت لولي الدم يحبب إليه التنازل عنه بعد أن يمكن منه إما إلى العفو المطلق أو إلى الدية ، وفي هذا ما يعطي دليلا على تفوق الإسلام على كل الأنظمة الأخرى ، فهو يحبب إلى ولي الدم العفو لما فيه من شعور إنساني ، ولكنه لا يفرضه عليه لئلا يشعر بحرمان من هو له ، ولئلا يجد أيضا المجرمون الباب مفتوحا أمامهم للعبث في الأرض وسفك دماء الأبرياء .

حد الزنا

وشُرع لأجل صون الأعراض حد الزنا وحد القذف ، أما حد الزنا فمنه ما نص عليه القرآن وهو الجلد الذي جاء في سورة النور في قوله تعالى : ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللهِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (النور/٢) وقد بينت السنة أن هذا الحد مخصوص بالبكر من الزناة دون المحصن ، ومنه ما ثبت بسنة النبي ﷺ القولية والفعلية وهو الرجم للزاني المحصن وهذا التشديد في الزنا لما فيه من الخطورة والفُحْش ، فهو من أسباب وأد النسل وانقراض ، كما أنه سبب لتفكك الأسر وتصدع

المجتمع واضمحلال المدنية ، فهو يعود بالإنسان إلى حالة يكون فيها أشبه بالبهيمة العجماء ، ومن هنا لم يكتف الإسلام بما فرضه من عقوبة على الزنا بل أمر بشهود طائفة من المؤمنين لما يحل بهم من العذاب لئلا تسول لأحد نفسه أن يعمل كعملهم والتشديد على المُحصن لفحش جريمته ، وليس الحد الذي يعاقب به الزاني من الأمور الهينة ، فلا يقام إلا بصحة شرعية ، إما باعتراف الزاني على نفسه بالزنا مرارا أمام الحاكم الشرعي مع ثبوت سلامة عقله وهدوء باله بحيث لا يحوم حول إقراره ريب وإما بشهادة أربعة عدول يشهدون أمام الحاكم الشرعي بأنهم رأوا عملية الزنا بين المتزانيين في منتهَى الوضوح والانكشاف بحيث رأوا دخول الآلة في الآلة كدخول الميل في المكحلة ، وإن قصرت الشهادة عن هذا العدد أو هذا الوصف اعتبر الشهود قذفة يستحقون حد القاذف .

حد القذف

وأما حد القذف فهو ثمانون جلدة نص عليها القرآن في قذف المحصنات في قوله عز من قائل :

﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً ، وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ، إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (النور / ٤،٥) وفي رفض قبول شهادة الذين يقذفون المحصنات عقاب أدبي لهم بجانب العقاب الحسي ليكون في هذا ردع لذوي النفوس الدنيئة والألسنة البذيئة عن هتك أعراض الناس والتلذذ بذكر مساوئهم أو نسبة المساويء إليهم ، وقد جاء النص في

قذف المحصنات،لأن الجرائم الخلقية في النساء أفحش،ولأنَّ السفهاء كثيرا ما يتطاولون على أعراض النساء غير مبالين بما يعود من عار ذلك عليهن وعلى أسرهن وفي هذا ما يدل على محافظة الإسلام على كرامة المرأة وشرفها ، وقد حمل المحصنون على المحصنات في الحكم بالسنة والإجماع.

حـد السـرقة

وشُرع حد السرقة لصون أموال الناس عن أيدي العابثين الذين يؤثرون الدعة والكسل ما داموا تواتيهم الفرصة لسلب الناس ما جمعوه من المال بكد اليمين وعرق الجبين ، وهذا الحد مما نص عليه أيضا الكتاب في قوله تعالى: ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوٓا أَيدِيَهُمَا جَزَآءً بِمَا كَسَبَا نَكَالًا مِنَ اللّهِ.﴾(المائدة /٣٨) وقد قيدت السنة هذا الإطلاق في الآية فبينت نصابًا للسرقة يجب معه الحد ولا يحد فيما دونه ، كما بينت أن الحد مشروط بأن تكون السرقة من حرز ، كل ذلك من دلائل عمق الإسلام في التشريع.

حـد الخمـر

ومن حيث الخمر هي أم المعاصي وجماع الإثم فقد جاء في السنة عقوبة شاربها بجلد أربعين ثم لما تفشى شرب الخمر في أوساط الناس في عهد عمر رضي الله عنه استشار أصحاب رسول الله ﷺ فأشاروا عليه أن يعاقب الشارب بأقل الحدود وهو ثمانون جلدة لما يترتب على شربها من الهذيان الذي يؤدي إلى القذف وهتك الأعراض واستقر على ذلك العمل.

عدالة التشريع الإسلامي

هذا ويراعى في إقامة الحدود ألا تكون هنالك شبه ولو كانت ضعيفة فالشبه تسقط الحدود كما جاء في حديث (ادرءوا الحدود بالشبهات) كما تراعى فيها العدالة فلا تقام على الضعاف دون الأقوياء بل يساوى بين القوي والضعيف فيها ، ولربما كانت العقوبة على القوى أشد منها على الضعيف كما هو الشأن في عقوبة الزنا في الأحرار والمماليك ، وقد سرقت امرأة مخزومية في عهد رسول الله ﷺ فحكم النبي ﷺ بقطع يدها وقد كبر ذلك على قومها فاستشفعوا إلى رسول الله بأسامة بن زيد ــ وكان حِبَّ رسول الله ﷺ ــ فلم يكد يدلي بشفاعته إليه حتى غضب النبي ﷺ وقال: (أتشفع في حد من حدود الله ياأسامة ؟ إنما أهلك من كان قبلكم أنهم إذا سرق فيهم القوي تركوه وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد) ثم قال عليه أفضل الصلاة والسلام: (والذي نفسي بيده لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها) وفي هذا ما يؤكد العدالة الجزائية في الإسلام فلا تفرقة ولامحاباة ولكن عدالة ومساواة لا يلتفت معهما إلى قرب وبعد ولا إلى قوة وضعف ولا إلى غنىً وفقر ولا إلى محبة وبغضاء ولا إلى جنس وآخر بل يلتقي الجميع في ظل العدالة السماوية التي يرفع شعارها قول الله تعالى ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى﴾(المائدة/٨) وقوله سبحانه ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِين آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَى بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَى أَنْ تَعْدِلُوا ، وَإِنْ تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾(النساء/١٣٥) وليست هذه العدالة في الإسلام شعارا يردد أو شارة ترفع ، وإنما حقيقة يجدها كل من يتلمسها ،

وإذا كانت العدالة في سائر الأنظمة هي مجرد نظرية تذكر ولا تبصر فإن الإسلام قد أثبت صدق هذه العدالة بمنهجه الحق الذي كان عليه الرسول الأمين عليه أفضل الصلاة والتسليم وخلفاؤه الراشدون وكل من كان على هديهم ، ولا أدل على ذلك مما أصاب النبي ﷺ من الانفعال بمجرد ما سمع شفاعة في حد من حدود الله أدلى بها من هو من أحب الناس إليه وأحظاهم عنده ، وقد اتفق أن سرقت درع بالمدينة وأُلقيت في بيت يهودي لأجل المكر به حتى يغضب عليه النبي ﷺ ، فما لبث أن نزل قرآن من الله يفضح المؤامرة ويبريء اليهودي مما نُسِبَ إليه ، هذا مع العلم بأن اليهود والمشركين أشد الناس عداوة للذين آمنوا ، وقد رُوي أن رسولا وفد إلى النبي ﷺ مِن أكثم بن صفي ــ وهو أحد حكماء العرب ــ ليسأله عما يدعو إليه فقرأ عليه النبي ﷺ آية من سورة النحل وهي قوله جل جلاله ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾(النحل/٩٠) فلما رجع الرسول إلى أكثم تلا عليه الآية التي سمعها ، فقال أكثم «إن هذا إن لم يكن دينا فهو أخلاق ، وحض قومه على المسابقة إلى الإسلام ذلك لما رآه من العدالة ، ولمسه من المثل والقيم في هذه الآية الكريمة.

من آثار التشريع الإسلامي في العقوبات

وقد حققت عدالة الإسلام الماثلة في تشريعه الحكيم أمن الإنسانية واستقرارها في كل البقاع التي امتد إليها نفوذ الدولة الإسلامية في وقت لم تكن فيه أجهزة للأمن ، ولم تعرف فيه مباحث أمن الدولة ، ولا مباحث التحقيقات الجنائية ، ولا أجهزة المخابرات ، ولا عدة عسكرية هائلة ، ولا

وسائل للكشف والاستخبار ، وإنما كانت الشريعة الإسلامية وحدها تضفي على تلك الأنحاء المترامية من الأرض الأمن والاطمئنان اللذين نعم بهما المسلم وغيره من مواطنى الدولة الإسلامية ، وذلك كله من إعجاز هذا التشريع ، وهودليل على أنه من عند الله تعالى ، إذ ليست فيه المفارقات والتناقضات التي في الأنظمة البشرية ، وليس هو مجرد سياط لاذعةوسيف صارم كما يحلو للبعض ، وإنما هو تربية للضمير الإنساني ، وربط للفرد بمجتمعه ، ووصل للإنسان بخالقه ، ومن هنا كان كل فرد من الأمة يشعر بمسئوليته في حفظ النظام ، والمحافظة على تنفيذ جميع بنود تشريعه ، وكانت النفوس سرعان ما تتفاعل مع ما يقتضيه هذا التشريع ولا تتردد في تقبله وتطبيقه عمليا ولو اقتضى ترك أحب شيء إلى النفوس.

فالعرب كانت الخمر عندهم من أحب الأشياء إلى قلوبهم ، والإنفاق فيها من أحسن السخاء عندهم كما تدل على ذلك أشعارهم التي يفتخرون فيها بمعاقرة الخمر والقضاء على الطارف والتليد فيها ، ولكن لم يكد يقرع مسامعهم قول الله تعالى ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِن عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ، إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُم مُنْتَهُونَ﴾(المائدة ٩٠ ، ٩١) حتى نزعوا الأقداح من الشفاه وأراقوا ما فيها من شراب كانت تصدى إليه أكبادهم ، وتتشوق إليه قلوبُهم ، ولم يكتفوا بذلك حتى قاموا إلى الدنان فحطموها ، فكانت الخمر التي هي من أعز الأشياء عندهم تجري أنهارا في زقاق المدينة ولم يكن شيء من ذلك خشية من صوت لاذع ، أو سيف صارم ، أو سجن رهيب ، وإنما كان ذلك لما وقر في قلوبهم من الإيمان ، واستقر فيها من حب الله وخوفه ورجائه ، وإن شئت فقس ذلك إلى ماذكره بعض الكاتبين أن

الولايات المتحدة الأمريكية حاولت لمدة أربعة عشر عاما أن تحرم الخمر فلم تبق وسيلة من وسائل المدنية الحديثة كالصحافة والأفلام إلا استعملتها للكشف عن مضار الخمر وتنفير الناس عنها ، كما استعملت كل قسوة وشدة في العقوبة عليها وكان ما أنفقت على إشاعة مضار الخمر ستين مليونا من الدولارات ، وعدد مانشرته من الصحف عشرة ملايين صحيفة ، وتكلفت في تنفيذ هذا القانون ربع مليون جنيه ، وصادرت من الأموال أربعمائه وأربعة ملايين من الجنيهات ، وعاقبت بالإعدام ثلاثمائة شخص ، وبالسجن خمسمائه ألف واثنين وثلاثين ألفا وثلاثمائه وخمسة وثلاثين ، ومع ذلك فإن الناس ازدادوا إقبالا على الخمر وتفننا في الاحتيال على حصولها مما اضطر الحكومة الأمريكية إلي إلغاء قرارها ، وفي هذا ما يكفي دليلا على فشل الأنظمة البشرية ، وتعذر مقارنتها بنظام القرآن الذي يُصلح النفوس ، ويُحيي الضمائر ، ويصقل الفطر ، ويغرس في القلوب مراقبة الله تعالى ، وفيما يحدث في زماننا هذا من الجرائم التي تقاس بالثواني في أكبر دولة في العالم تُرهب الدنيا بقوتها وتسع الأرض بمخابراتها وتتفوق في التقنية والإنتاج على غيرها ، دليل واضح على أن القوة المادية لا تضفي على الناس الهدوء والاستقرار ، ولا تكفي لإصلاح النفوس الفاسدة ، وتقويم السلوك المنحرف.

هذه نبذة عن الإعجاز التشريعي في القرآن ، وأرجو إن شاء الله أن أُوفق لتفصيل ما أجملته هنا عندما آتي بعون الله وتوفيقه إلى آيات الأحكام في القرآن الكريم والله ولي التوفيق.

٣ ـــ الإعجاز الاجتماعي والخلقي

صلة الاجتماع بالأخلاق

لاتمكن التفرقة بين الاجتماع والأخلاق في الإسلام ، فإن الأخلاق هي أسس الاجتماع،بل أستطيع الجزم بأن العنصر الخلقي لايُعدم في أي جزء من التشريع القرآني ، والنبي ﷺ قد حدد الغاية من رسالته في قوله (إنما بُعثت لأتمم مكارم الأخلاق) ، والله تعالى عندما أثنى عليه ﷺ وصفه بالخلق العظيم حيث قال فيه ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾(القلم/٤) وما أجل هذا الوصف وأعظم هذا الثناء وأفخم هذا الشرف الذي ألبسه الله تعالى عبده ورسوله ﷺ ليبقى متلوا على لسان الدهر ما بقي الزمن ، وأهم مانستفيده من هذه الآية ومن ذلك الحديث أهمية الأخلاق في الإسلام ، وإذا تدبرنا آي القرآن وجدناها تهدف إلى بناء صرح الأمة الإسلامية على أسس متينة من الأخلاق ودعائم ثابته من الاجتماع ، ولذلك كان العنصر الخلقي ملموسا في كل جزئية من جزئيات تشريعه ، وبالإجمال فإن القرآن الكريم جاء حاضا على مكارم الأخلاق وداعيا إليها ، فهو يدعو إلى الصدق والأمانة والوفاء والكرم والعفاف والتواضع من غير ذل والترفع من غير استكبار وتجنب كل إساءة إلى الغير سواءً أكانت باللسان أم اليد أم إشارة العين ، والرسول عليه أفضل الصلاة والسلام أجدر الناس بأن يتجسد فيه الخلق القرآني لأن الله تعالى قد اصطفاه من بين خَلْقِه بإنزال القرآن عليه ليبلغه الناس بلسانه ، وليترجمه بفعله ، ومن ثم كان كما وصفته الصديقة ابنة الصديق أم المؤمنين عائشة رضي الله عن أبيها وعنها في قولتها التأريخية الصادقة عندما سُئلت عن خُلقه ﷺ فقالت «كان خُلقه القرآن الكريم» وبما أن الإنسان مدنيٌّ بطبعه ، اجتماعي بفطرته ، تتداخل مصالح بني جنسه وتتشابك معاملاتهم ـــ كان ميزان التعامل السليم فيما بينهم الخلق الفاضل.

مقاييس الأخلاق في القرآن

ومقاييس الأخلاق في القرآن ، وفي سنة الرسول عليه أفضل الصلاة والسلام ليست نابتة من التراب ، وإنما هي نازلة من السماء ، فلا تُستخرج من بيئات الناس ، فالبيئات كثيرًا ماتتلوث وتتعفن ، وقد تستحسن بيئة ماتستقبحه أخرى ، وأفكار الناس كثيرا ماتتأثر بطبع البيئة وما يدور فيها ، وإذا كان الإسلام قد أبقى بعض العادات التي كان عليها أهل الجاهلية فإن ذلك لا يعود إلى استحسان الجاهلية وإنما يعود إلى استحسان الحسن بقطع النظر عمّن يتلبس به من الناس ، ومدار الأخلاق والاجتماع في الإسلام على الطهارة ، فهو يدعو إلى طهارة الضمير وطهارة الفكر ، وطهارة الوجدان ، وطهارة اللسان ، وطهارة واقع الحياة ، ومن هنا نرى الآيات القرآنية والأحاديث النبوية تحرص على طهارة المسلم في نفسه وطهارة صلته بالآخرين ، وقد أحاط الإسلام الأسرة المسلمة بسياج يمنع تسرب أي تلوث إليها ، ولو أخذنا نستعرض الآيات التي جاءت بذلك لطال بنا المقام ، ولكن نكتفي بذكر مثالين لما قلناه مرجئين البسط إلى وصولنا إلى تلك الآيات في التفسير إن مَنَّ الله علينا بالتوفيق.

أمثلتهـــــــــا

أولهما:ـــ نظام الاستئذان الذي يضبط الحياة الأسرية ضبطا محكما وهو ينقسم إلى نوعين: إستئذان من في خارج الدار ، وإستئذان ساكن الدار ، فعن النوع الأول يقول الحق تعالى ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا ذَلِكُم خَيْرٌ لَكُمْ لَعَلَّكُمْ

تَذَكَّرُونَ ، فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّى يُؤْذَنَ لَكُمْ وَإِنْ قِيلَ لَكُمُ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا هُوَ أَزْكَى لَكُمْ﴾(النور/٢٧ ، ٢٨) وفي قوله عز من قائل ﴿حَتَّى تَسْتَأْنِسُوا﴾ إشارة إلى أن حكمة الإستئذان حصول الأنس ، فإن دخول الإنسان بيت أخيه من غير إذن منه هو مصدر للوحشه وسبب للجفوة،لأن من طبع الإنسان ستر العوره ، والعورة كما تكون في البدن تكون في الأطعمه ، وفي الملابس وفي الأثاث.

وفي الهيئة التي يكون عليها مكان الاستقبال ، لأن من طبيعة الإنسان الرغبة في أن يظهر أمام غيره على أحسن حال ، فإذا فوجيء بمن يلج عليه في بيته على أي حال كانت هذه المفاجأة مثار الوحشة والانزعاج ، والله يريد لعباده الطهر والنقاء ، لذلك قال ﴿هُوَ أَزْكَى لَكُمْ﴾ فالاستئذان وما يقترن به من التسليم ويستصحبه من الأنس مما يصفي القلوب من أكدارها ، ويسكن الوحشة والانزعاج ، وهذا النوع من الاستئذان حكمه العموم ، يشمل جميع طبقات الناس الذين يختلفون إلى بيوت غيرهم.

وامَّا النوع الثاني فقد قال الله فيه ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَسْتَأْذِنْكُمُ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنكُمْ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ مِنْ قَبْلِ صَلَاةِ الْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُمْ مِنَ الظَّهِيرَةِ وَمِنْ بَعْدِ صَلَاةِ الْعِشَاءِ ثَلَاثُ عَوْرَاتٍ لَكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ﴾(النور/٥٨) في هذه الآية تعليم لنظام الأدب والأخلاق في البيوت ، فليس للأطفال والأرقاء أن يندفعوا إلى داخل بيوت الآباء والأمهات والسادة متى أرادوا ، وإذا تُسومح في دخولهم بدون استئذان في غير أوقات الحرج ، فإنه لا يُتسامح في الأوقات التي يكون فيها الدخول سببا للحرج ومثاراً للانزعاج ، لذلك كانت هذه الثلاثة الأوقات عورات لا يباح فيها للرقيق ولا للطفل دخول البيوت إلا بعد

الاستئذان ثلاث مرات ، وهي قبل صلاة الفجر وقت الانتباه من النوم ، فإنه مظنة أن يكون الإنسان في هيئة لايحب أن يشاهد عليها ، ووقت القيلولة في الظهيرة للعلة نفسها ، وبعد صلاة العشاء عندما تتشوق النفس إلى الاستراحة ، ويسرع الإنسان إلى الفراش فإن هيئة النوم غير هيئة اليقظة ، وخصوصا النوم مع الأهل ،والأطفال الذين أُعطوا هذا الحكم هنا يُسلب منهم بعدما يبلغون الحلم ﴿وَإِذَا بَلَغَ الْأَطْفَالُ مِنْكُمُ الْحُلُمَ فَلْيَسْتَأْذِنُوا كَمَا اسْتَأْذَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾(النور/٥٩) فليس حكم البلوغ كحكم الصبا وإنما على البالغين أن يستأذنوا في مطلق الأوقات ، الاستئذان العام الذي سبق ذكره ، والإسلام بهذه الآداب البيتية يرعى الحالات النفسية والواجبات الخلقية ، فإن رؤية الطفل لأبويه في بعض الحالات التي تكون بينهما قد تسبب ردة فعل نفسية وعصبية وخُلُقية في نفسه كما يقرر ذلك علماء النفس ، وقد اكتشف ذلك بعد قرون خلت منذ نزول كتاب الله بهذا الأدب الرباني ، ودخول الناس فجأة من غير استئذان في بيوت غيرهم مما يسبب الريبة ويجر إلى الفساد ، فقد تتسلط أبصارهم على عورات النساء ، والنظرة وإن كانت عابرة فإنها قد تترك أثراً لايستهان به في النفس ، فيجر إما إلى الانطلاق من قيود الفضائل والأخلاق أو إلى آلام نفسية وأمراض عصبية ، وقد أغلق الإسلام بحكمته البالغة هذا الباب بما سنه من الآداب التي تطهر الوجدان وتنظم العلاقات ، فلا تقوم إلا على أساس الاستقامة والطهر والعفاف.

ثانيهما الحجاب الشرعي الذي فرضه الله تعالى على النساء بعدما فرض على الرجال واجبات اجتماعية تشق عليهم مع تبرج النساء وعدم احتشامهن وهذا لأن الله تعالى طالب الرجال بغض الأبصار وحفظ الفروج حيث قال ﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَٰلِكَ

﴿أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾(النور/٣٠) والبصر هو أول نافذة من نوافذ الشيطان لذلك أمر الله بإغلاقها مقاومة للشيطان وسدًا للمسالك عليه، وهذا لأن من أطلق لبصره العنان لن يستطيع مقاومة مكايد الشيطان بعد دخوله عليه من هذه النافذة ، وقد أجاد أمير الشعراء في قوله:

نظـــرة فابتسامة فســـلام فكلام فمـــوعد فلقـــاء

وحفظ الفرج ثمرة غض البصر، لذلك أمر الله به بعد الأمر بمقدمته وهو غض البصر ، وقد أوضح الله سبحانه في الآية أنه أراد لعباده بما فرض عليهم الطهارة والنقاء حيث قال ﴿ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ﴾ والإسلام بعيد عن التناقضات والمفارقات فلا يكتفى أن حرم شيئًا بسد بعض أبوابه دون بعض ، ومن المعلوم أنه يتعذر على الرجال غض الأبصار في حالة عدم فرض قيود اجتماعية على النساء تكون عونا للرجال على امتثال هذا الواجب،لذلك أتبع الله سبحانه وتعالى ما أوجبه على الرجال من غض الأبصار وحفظ الفروج بما فرضه على النساء في قوله ﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَاظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَامَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِي الْإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَىٰ عَوْرَاتِ النِّسَاءِ ، وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾(النور/٣١) ليتم المطلوب من صيانة المجتمع الإسلامي وتنقيته من الأدران الشهوانية وقد ابتدأ الله (سبحانه) فيما أوجبه على النساء بغض

الأبصار وحفظ الفروج،لأن إرسال المرأة نظراتها غير المحتشمة قد يخلب لب الرجال فلذلك أمرها الله بالرزانة والحشمة في نظراتها،وعدم حفظها لفرجها يعني بلوغ أقصى حدود الفساد من جانبها ومن جانب الرجل الذي يتعامل معها ، ثم أتبع ذلك ما أوجبه عليها من صون جسمها بالحجاب الشرعي لتصون بذلك عفتها.

والإسلام الحنيف لا يحارب الفطرة ولكن ينظمها لتصبح غير هدامة ومما ركز في فطرة المرأة حب الظهور بمظهر الجمال والزينة،وقد لبى الإسلام رَغْبَتَهَا ولكنه نظمها حيث أمرها أن تتجه بمطلق زينتها إلى الرجل الذي تحرص كل امرأة عَادة على كَسْب وده وهو شريك حياتها الذي يربطها به رباط الزوجية المقدس ، كما أباح لها أن تبدي بعض زينتها لذوي المحارم منها لما طبع الله تعالى عليه ذوي المحارم من عدم تأثرهم وهيجان غرائزهم برؤية ذوات محارمهم وإن كن متفننات في الزينة ، أما سائر الرجال فلا يحل للمرأة المسلمة أن تبدي لهم شيئا من زينتها إلا ما ظهر منها واختلف في المقصود به فقيل الوجه والكفان ، وقيل ظاهر ثيابها.

هدف المقاييس الخلقية

والإسلام الحنيف يريد بهذه القيود والآداب أخذ المسالك على الفساد وإغلاق أبواب الفتنة وسد منافذ الشيطان إلى النفس ، فالمرأة ذات أثر كبير على الرجل،فقد تشعل نار الفتنة في قلبه بنظرة عابرة تنفلت منه فكيف إذا تتابع نظره إليها؟ ومَا بالك إذا التقت نظراتهما وتبادلت وحي الغرام؟ وقد تستيقظ الفتنة بنبرة صوتها وبرنة حليها وبنفحة طيبها،لما يترتب على كل من

ذلك من خواطر نفسية تؤرق النفس وتقض عليها مضجعها ، وقد تثير هذه الأمور أنواعا من الخيال تراود النفس بين لحظة وأخرى،حتى تتركها تهيم في أودية الخيال السحيقة فتفقد اتزانها وهل كانت مآسى العشاق إلا بمثل هذه الأسباب ؟ وقد أوصد الإسلام هذه الأبواب بهذه القيود الاجتماعية،لتسير حياة الذكر والأنثى سيرا سليما لا يستثير الغرائز ولا يهيج العواطف وهي تأديب نفسي وتأديب اجتماعي،لأن أثره كما يظهر على النفس ينعكس على المجتمع فتسوده الطهارة والعفة.ومما لا يشك فيه أنه لو أمر الرجال وحدهم بغض الأبصار وحفظ الفروج وتركت النساء وشأنهن لكان ذلك من أكبر المفارقات وأقبح التناقضات ، كيف يمكن للرجال أن يخضعوا لهذه القيود الثقيلة وأجسام النساء العارية تتراقص من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم ، وأعينهن الفتاكة ترنو إليهم ، وأصواتهن الرخيمة تستفز مشاعرهم ، وأصوات حليهن تداعب خيالهم؟.

هذا وليست فتنة النظر تُخشى على الرجال وحدهم ، فللمرأة قلب ، كما أن للرجل قلبا ،وقلب كل منهما معرض للتقلب ، وكثيرا ماكانت نظرة المرأة إلى الرجل مفتاحا لباب فتنة اصطلت سعيرها طوال حياتها ، وحفظ الفرج في كل منهما ثمرة لغض البصر،لذلك قرن الله سبحانه بين الأمر بغض البصر والأمر بحفظ الفروج في خطابه للمؤمنين وخطابه للمؤمنات ، وهذه التعليمات صادرة عمن فطر الرجل والمرأة ، وطبع كلا منهما بخصائصه وهو العليم بما تنطوي عليه طبيعة كل منهما﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾(الملك ١٤) فلا تخضع هذه التعاليم للنقد ولا للاختبار وإنما على المؤمنين والمؤمنات التسليم والطاعة ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ

وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا﴾(الأحزاب/٣٦) أما أولئك الذين يرددون نظريات دعاة الفساد ورواد الفجور ، الذين لا يقيمون للفضيلة وزنا ، ولا يعرفون للعفة معنى ، كفرويد ونظرائه ، فإنهم أشبه بالببغاء التي لا حيلة لها إلا تقليد ما تسمع ، ولا نشك أن أولئك جُل همهم في الحياة تعرية الإنسان من ثوب الفضيلة ، وسلبه خصائص الإنسانية ، ومن هنا أرادوا له عيشة البهيمة العجماء في عدم التقيد بالأخلاق ، ومن معاول هدمهم لصرح كرامة الإنسان مايرددونه من النظرية القائلة «إن اجتماع الرجل بالمرأة وتبادلهما المزاح والفكاهات والحديث المرح ، واطلاع الرجل باستمرار على مخابيء الفتنة ، وأماكن الإغراء من المرأة ، كل ذلك مما يروح عن النفس ، ويطلقها من كبت الضغط الجنسي ، ويهذب الغريزة الجنسية» مع أن هذه النظرية لم تُبن على مقاييس علمية ، ولا على أسس تجريبية ، وإنما منشؤها ما تحمله النفوس من حقد على القيم الإنسانية ، والفضائل والأخلاق ، وقد كذبها الواقع التاريخي ، فإن البلاد التي تحررت من جميع القيود الخلقية والاجتماعية وانطلقت بغير حدود في الفساد وإرضاء العواطف والشهوات لم تزدد بذلك إلا هيجان الشهوات الحيوانية في الرجال والنساء معا..مع ما يتبع ذلك من جرائم كثيرا ما يذهب ضحيتها الأطفال والأبرياء ، ولقد قرأت منذ سنتين في إحدى الصحف السيارة أن أمريكيا اغتصب أكثر من ثلاثين طفلا ثم قتلهم فهل كان بروز مفاتن النساء في تلك البلاد واختلاطهن بالرجال من غير قيود قانونية ولا خلقية مهذبا للغريزة الجنسية أو مؤججاً لنيرانها حتى خرجت بهم عن الفطرة إلى الشذوذ بحيث صار الرجال لا يقتنعون بالنساء فيندفعون إلى الأطفال يرزأونهم في رجولتهم المستقبله وحياتهم الغالية كما يحصل الشذوذ أيضا في كثير من النساء.

موقف المخالفين من النوع الإنساني

ومما لانشك فيه أن أولئك الذين يروجون لمثل هذه النظريات في البلاد الإسلامية يهمهم أن تلقى المجتمعات الإسلامية مثل هذا المصير المؤلم بحيث يصير كل أحد مهددا في أطفاله ونسائه ، والإنسان تختلف طيعته الجنسية عن الحيوان،فالحيوان لاتعدو رغبته مقدار طاقته فلا تستفزه رؤية إناث جنسه إذا استنفد طاقته الجنسيه ، بينما الإنسان يزيد ميل كل واحد من نوعي جنسه إلى النوع الآخر عما أودع في طبيعته من الطاقة الجنسية ولله في ذلك حكمة،فإنه يريد بذلك أن تكون حياة الإنسان حياة مدنية،وأول لبنة لبنائها التعايش الزوجي بين الذكر والأنثى ، وطبيعة الإنسان تدعو إلى التقليل من المثيرات الجنسية لما يترتب على عكس ذلك من إنهاك قواه الجسمية والعقلية مع أنه مطالب بوظائف متنوعة في الحياة ، ويترتب على تأجيج الشهوات الحيوانية في الإنسان فساد حياة النوع الإنساني بانعدام الأخلاق وتلاشي الفضائل وتقطع العلاقات بين الناس فلا تبقى رحمة ولا تعاطف بينهم ، وتفشي الزنا — والعياذ بالله — في أي شعب أو مجتمع أو أمة من المؤشرات الخطيرة التي تنذر بشر كبير،إذ يبقى القلق النفسي يساور كل أحد فلا يأمن على عرضه أو على بيته ولا يأمن أن يكون الأولاد الذين ولدوا على فراشه من ذرية قوم آخرين،كما أن ذلك من دواعي قلة النسل إذ المرأة التي تحمل من الزنا لا تبالي بالإجهاض إما للتخلص من العار أو للتخلص من تبعات تربية المولود التي لايشاركها فيه أب شرعي له ، وكثيرا ماتتقي الزواني الحمل باستعمال الموانع الواقية منه وبهذا تتجلى حكمة الله فيما فرضه من القيود الأخلاقية والاجتماعية لصون الأعراض وحفظ الأنساب.

حماية الإسلام لتشريعاته الخلقية

هـذا وإذا كان الإسـلام يهدف بتشريعاته وأخـلاقه إلى الطهارة ، طهارة اللسان وطهارة الوجدان وطهارة واقع الحياة ، فلا غرو إذا وجدناه يقطع الألسنة البذيئة لئلا تلغ في أعراض الناس فتؤذيهم ، أو تنتقص شيئا من أقدارهم ، أو تسيء إلى العلاقات والصلات فيما بينهم ، ولنسمع إلى ما يقوله الحق تعالى في ذلك ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ عَسَى أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلَاتَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾(الحجرات/١١).

فلا مجال للسخرية بين الناس ، لايسخر رجال من رجال ولا نساء من نساء ، فقد يكون المسخور منه عند الله خيرا من الساخر ، ولو كان في هذه الدنيا أضعف وأفقر وأقل جاها عند الناس ممن سخر منه ، وفي هذا ما يمنع الناس أن يتطاولوا بما آتاهم الله على من يرونهم دونهم ، فلايهزأ غني بفقير ، ولا قوي بضعيف ، ولا شريف بوضيع ، ولا أبيض بأسود ، إذ لايعلم لعله عند الله خير منه ، وكذلك النساء ، ليس لامرأة أن تتطاول على غيرها بجمالها أو مالها ، أو منزلتها ، أو أصالتها لأن هذه الأمور كلها لا وزن لها عند الله وإنما الوزن للتقوى وهي منافية لها ، ولا يصح لأحد أن يلمز أخاه لأنه كأنه يلمز بذلك نفسه ، ولذلك قال الله في الآية ﴿وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ وفي ذلك ما يوحي بوجوب ترابط المشاعر والأحاسيس بين المسلمين ، فكل ما يصيب الفرد يصيب المجموعه ، واللمز هو الطعن باللسان ، ونبرات حروف هذه الكلمة تجسد وقع هذا الطعن كأنما يحسه القاريء أو السامع واقعا عليه ، وكثيرا ما يخلع الناس على غيرهم ألقابا توحي

بالسخرية وتؤذي أصحابها ، فلذلك شدد الله تعالى في الألقاب في قوله ﴿وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ﴾ وأكد هذا المنع بقوله ﴿بِئْسَ الْإِسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ﴾ فليس لأحد أن يدعو أو أن يذكر أخاه إلا بأحب أسمائه إليه، لأن من واجب كل أحد أن يحب لأخيه ما يحب لنفسه ، وبين ــ تعالى ــ خطورة الإصرار على مثل هذه الأعمال حيث قال ﴿وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ ولأجل المحافظة على متانة الصلة بين المسلمين حُرِم اتباع الشكوك والظنون في قوله ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ﴾(الحجرات/١٢) فلا يحق لمسلم أن يظن بأخيه إلا خيرا ، وإذا رأى منه شيئا حمله على أحسن الظنون مادام هنالك احتمال ، كما حُرِّم التجسس ولا تقتصر هذه الحرمة على المسلم وحده ، بل التجسس ممنوع على المسلم وغيره ليبقى كل إنسان آمنا في ظل الإسلام ، والتجسس إنما هو استكشاف للعورات ، وتنقيب عن المساوىء ، وهذا يتنافى مع طهر الإسلام وقداسته ، ولأجل عموم حكم التجسس على المسلم وعلى غيره أطلق في الآية حيث قال فيها الحق تعالى ﴿وَلَا تَجَسَّسُوا﴾(الحجرات/١٢) ولم يقل ولاتجسسوا على أنفسكم أو ولاتجسسوا على إخوانكم ، كما قال﴿وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُم وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ﴾ وكما قال ﴿وَلَا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضًا﴾(الحجرات/١٢) لأن المشرك أو الفاسق بشركه أو فسقه لا يُمْنع ما دام في ذلك تنفير عن الشرك والفسوق مالم يفض إلى الزيادة عن الواقع كما أُطلق في صدر الإسلام على عمرو بن هشام لقب أبي جهل مع أن كنيته كانت أبا الحكم ، وكما لُقِب مسيلمة بالكذاب.

ومثل ذلك حكم الغيبة فهي حرام في المسلم وتحل غيبة المشرك والفاسق المجاهر بمعصية الله، لأجل التحذير من الشرك والفسوق ، لا لأجل

التلذذ بذكر المساوىء ، ومن ثم حرمت غيبة المستتر بستر الله وإن كان فاسقا،لأن فسقه يضر به نفسه ، والإسلام يبني أحكامه في العلاقات بين أبنائه على ما يظهر من أعمالهم دون ما يختفي ، والغيبة التي نهت عنها الآية فسرها الرسول عليه أفضل الصلاة والسلام بقوله (ذكرك أخاك بما يكره) قيل له أرأيت إن كان في أخي ما أقوله؟ قال (إن كان فيه ما تقوله فقد اغتبته وإن لم يكن فيه ما تقول فقد بهته) والله تعالى عندما حرم الغيبة في الآية أكد التنفير عنها حيث صورها في صورة هي من أبشع الصور يتقزز منها الإنسان بطبعه، وذلك حيث شبه الاغتياب بنهش الإنسان لحم أخيه وهو ميت حيث قال ﴿أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ﴾(الحجرات /١٢)

وفي هذا التمثيل ما يجعل اللبيب كلما أراد لسانه تمزيق عرض أخيه يتصور هذه الصوره الشائنة الكريهه كأنها أمام ناظريه ، وقد جاء في الحديث أن رسول الله ﷺ عندما أقام الحد على ماعز بعد اعترافه بالزنى سمع أحد الصحابة يقول «انظروا إلى هذا ، أما كان الأولى له أن يستر ماستره الله ، فقد رُجم كما يرجم الكلب» فسكت رسول الله ﷺ حتى رأى جيفة حمار ، فقال (أين فلان وفلان ؟) يريد القائل والمقول له ـــ فأتياه فأمرهما أن يأكلا من تلك الجيفة ، فقالا، غفر الله لك يارسول الله ، أهذا مما يُؤكل منه ؟ قال لهما (ما أصبتما من أخيكما أعظم) ثم أخبر النبي ﷺ عن ماعز رضي الله عنه أنه يسبح في أنهار الجنة ، لقطع الألسن عن قالة السوء فيه ، ولتطهير النفوس عن الظن السيء به.

وإذا كان الإنسان مُطالبا بتطهير لسانه من أرجاس الغيبة مطلقًا ، فإن قذف المحصنين والمحصنات أشد في النهي وأوغل في الإثم ، لذلك شرع الله سبحانه وتعالى الحد في مقابل رمي

المحصنات ، حيث قال ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾(النور/٤) والنص قد جاء في رمي المحصنات ،لأن فضيحة المرأة تزيد عن فضيحة الرجل لما ينعكس منها من الأثر السيء على أسرتها ومجتمعها ، بينما فضيحة الرجل تكون محسوبة عليه وحده ، ولأن الأوغاد والسفلة كثيرا ما يتلذذون في مجالسهم بهتك أعراض النساء ، وحُمل رمي المحصنين على رمي المحصنات بالسنة والإجماع ، وكما فرض الله سبحانه عقوبتين صارمتين في الدنيا على رمي المحصنات بالسوء ، وهما الحد وإسقاط الشهادة ، بين الله تعالى عقوبة هؤلاء في الدار الآخرة حيث قال ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ، يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ﴾(النور/٢٣ . ٢٥) ويراد بهذا وذاك أن تكون حياة الأمة الإسلامية قائمة على أساس طهارة النفوس ، وطهارة الألسن ، وتبادل مشاعر الحب ، والتقزز من الفحشاء ، بحيث يأنف الناس من ذكرها فضلا عن ارتكابها ، وهذا لأن ذكر الفحشاء إن شاع بين الناس أصبحت أمرا عاديا ، لا يبالي أحدهم بارتكابه ، بخلاف ما إذا استُعظم ذكرها في الألسن ، وهذا معدود من عمق نظام الاجتماع في الإسلام ومن دلائل إعجاز الكتاب المبين ، فإن العقول البشرية لا تهتدي بنفسها إلى الدقائق ، فسبحان مَنْ أدهشت حكمته عقول المستبصرين.

مثل من تفوق الإسلام فى فلسفة الاجتماع

ومن تفوق الإسلام الظاهر في فلسفة الاجتماع ما يفرضه على الأولاد من رعاية حقوق الآباء والأمهات، لتبقى الفروع موصولة بأصولها ، ولتبقى الأجيال المتلاحقة حلقات مترابطة في سلسلة واحدة لا ينفك آخرها عن أولها ، ولم يوجد في أي فلسفة أخلاقية تعظيم الأبوة والأمومة كما هو في الإسلام ، فالله تعالى قد قرن بين حقوق الوالدين وحقه حيث قال ﴿وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَ بِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا﴾ (الإسراء/٢٣ ، ٢٤) وجمع بين شكرهما وشكره في قوله ﴿وَوَصَّيْنَا الإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ﴾ (لقمان/١٤) . وفي طوايا هذه الكلمات القرآنية التي توصي برعاية حقوق الوالدين من المعاني القيمة والإشارات اللطيفة مالا يمكن أن يفي به تعبير آخر ، ويكفينا أن نشير إلى قوله سبحانه ﴿إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ، وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا﴾ فإن بلوغ الكبر من الرجل والمرأة قد يسبب صدور إيذاء منهما لمن يقوم بأمرهما، ولكن الولد في هذه الحال مطالب بالاحتمال والصبر وعدم التضجر والتأفف مما يلقاه منهما وخفض الجناح لهما وعدم مقابلة إساءتهما بمثلها وتذكر ما كان منهما من تربية له واحتمال لإيذائه وصبر على بلواه من غير أن يتأففا أو يتضجرا ، ومن غير أن يخطر ببالهما حب التخلص منه ، وفي هذا التذكير ما يجعل اللسان يفيض بالضراعة والابتهال إلى الله بأن

يرحمهما كما ربياه صغيرا ، فإن ذلك غاية مايستطيعه،إذ ليس في وسعه أن يكافئهما على إحسانهما فقد أحسنا إليه وهما لايشعران بالملل أو السأم مما يلقيان منه في طفولته بل كانا يهشان له ويبشان في وجهه مهما صدر منه من هفوة أو إيذاء لهما.

وإذا كان الوالدان مشركين فإن شركهما لا يمنع حقهما منه بل عليه أن يتلطف بهما ويطيع أمرهما مالم يأمراه بعصيان الخالق تعالى فإنه «لاطاعة لمخلوق في معصية الخالق» لذلك قال الحق تعالى بعد التوصية بهما ﴿وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ..﴾(لقمان/١٥).

وفي قصة إبراهيم عليه السلام التي ذكرها الله في سورة مريم مثل للأولاد الذين يبتلون بآباء كفرة أو فسقة.فقد كان إبراهيم متلطفا بأبيه في خطابه له مشفقا عليه من سوء المنقلب وشر المصير ، وقد حكى الله ذلك كله في قوله تعالى ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا ، إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا ، يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطاً سَوِيًّا ، يَاأَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيّاً ، يَا أَبَتِ إِنِي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا﴾(مريم / ٤١ - ٤٥) ، ثم حكى ما كان من شراسة الأب في الجواب وما كان من إبراهيم عليه السلام من الاعتزال لأبيه بعد يأسه منه حيث قال ﴿قَالَ أَرَاغِبٌ أَنْتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ لَإِنْ لَمْ تَنْتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا ، قَالَ سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِي إِنَّهُ كَانَ بِيَ حَفِيًّا ، وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ وَأَدْعُو رَبِّي عَسَى أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ وَهَبْنَا لَهُ

إِسْحَاقَ وَ يَعْقُوبَ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا ، وَوَهَبْنَا لَهُ مِنْ رَحْمَتِنَا ، وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا﴾ (مريم / ٤٩ - ٥٠).

أثر هذه الفلسفة على الأسرة

وفي هذه الحقوق التي يلقي الله مسئوليتها على الأولاد ما يكفي دليلا لكل مستبصر على أن هذه التوصيات لا تصدر من فكر إنسان وإنما هي تتنزل من حكيم حميد يعلم طوايا الأنفس وطبائعها فليس من الممكن أن تصدر من فكر إنسان معرض لتأثير العواطف والعوارض الداخلية والخارجية ولو وهب ما وهب من الوعي والحكمة فضلا أن تصدر من أُمي لم يقرأ كتابا ولم يدرس أوضاع البشر، وفي هذه التوصيات البالغة بحقوق الأبوين ما يمنح الأسرة في الإسلام القوة والمتانة ويضفي عليها السعادة والهناء ، ولو ألقى إنسان نظرة اليوم إلى العالم المتحضر الذي أطغته المادة ، واستبدت به الشهوات ، واستحكمت فيه الأنانيات ، فحلت وشائج الرحم ، وقطعت صلات القربى لم يجد له علاجا إلا إرشاد القرآن ، ولو ألقى أحد نظره إلى أى مجتمع غربى وما يعانيه من القطيعة بين الآباء والأمهات من جهة وبين البنين والبنات من جهة أخرى ، وبين مطلق ذوي القربى لرأى أن المشكلة لا يمكن أن تُحل بفلسفة بشرية ، فالمكتبات الغربية زاخرة بفلسفات الاجتماع والأخلاق ، وعلم النفس ، ولكنها هل أغنت شيئا عن الإنسان التعيس الحائر هناك ، أما إذا قرأت مثلا قول الله تبارك وتعالى ﴿وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا ،

رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ إِنْ تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلأَوَّابِينَ غَفُوراً وَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ، إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُوراً ، وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ابْتِغَاءَ رَحْمَةٍ مِنْ رَبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُلْ لَهُمْ قَوْلًا مَيْسُورًا وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَحْسُوراً ، إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا ، وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُم خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْأً كَبِيرًا وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَى إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا ، وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِى حَرَّمَ اللهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَانًا فَلَا يُسْرِفْ فِي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُوراً وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِى هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولاً ، وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمَ ذلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً ، وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولَا ، وَلَا تَمْشِ فِى الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا ، كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا ، ذَلِكَ مِمَّا أَوْحَىٰ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللهِ إِلَهًا آخَرَ فَتُلْقَى فِى جَهَنَّمَ مَلُومًا مَدْحُورًا ﴾

(الآيات ٢٢ــ٣٩ سورة الاسراء) لوجدت فى ثنايا هذه الآيات علاج كل مشكلة ينوء بها المجتمع الغربي فى زماننا حتى إنه ليُخيل لك أن الآيات المذكورة أُنزلت لعلاج مشاكل هذا العصر خاصة لا سيما فى المجتمع الغربى الذى يعانى من ضلال العقيدة وانحدار الأخلاق ، وطغيان المادة ، وغرور النفس ، والقطيعة بين الأقربين ، ولو اجتمعت طاقات البشر الفكرية على إنتاج شيء من هذه الحلول لارتدت خاسئة ولجاءت بالداء من حيث تظن أنه الدواء ، فسبحان

القائل : ﴿ وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلعَالَمِينَ ﴾ (الآية ٥٢ سورة القلم) فنور القرآن لم يسطع ليقتبس منه شعب دون شعب ، أو جيل دون آخـر وإنما هو نور الله المبين الذى يسطـع على جميع العالمين .

٤ ـ الإعجاز الخبري

إن القرآن الكريم حافل بالأخبار الغيبية ، وتنقسم إلى ثلاثة أقسام : خبر عما مضى ، وخبر عن حاضر ، وخبر عن مستقبل ، أما خبر الماضى فهو الإخبار عن النبيين وما كان يلقاه المرسلون من عنت قومهم ، والأمم الماضية وأحداثها المتنوعة مع أن هذه الأخبار لم تكن معروفة فى المحيط الأمي الذى نشأ وعاش فيه رسول الله ﷺ وهو عليه أفضل الصلاة والسلام لم يكن على اتصال بأهل الكتاب اتصالا يمكنه من معرفة ما فى الكتاب من أخبار الأمم وتواريخها وأحداث النبيين مع قومهم ، ولم يكن النبي ﷺ يتلو قبل القرآن من كتاب ولا يخطه بيمينه ، وقومه كانوا بعيدى العهد بالنبوات وأخبارها ، وأهل الكتاب المنبثون فى جزيرة العرب كانوا أشبه بالأميين فى الوصف، إذ جلهم كانوا معدودين فى عوام أهل الكتاب ، وقليل منهم كان يُعنى بقراءة الكتاب كما أوضح ذلك ابن خلدون فى (العبر) ، ومع هذا كله فقد جاء القرآن المنزل على الرسول ﷺ بأخبار النبيين والأمم التى لا مجال لتكذيبها ، ولا مكان لتفنيدها لوضوحها وضوح الشمس فى رابعة النهار، فضلا عما جاء فيه من بيان كثير مما يخفيه أهل الكتاب وتفنيد كثير من مزاعمهم وضلالاتهم وتبيين أحوال أحبارهم الذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هو من عند الله ليشتروا به ثمنا قليلا ، وفى القرآن نفسه ما يدل دلالة قاطعة على أن هذه الأخبار لم تكن معلومة فى المحيط الذى نشأ فيه عليه أفضل الصلاة والسلام ، ففى سورة آل عمران نجد بعد قصة مريم ما يثبت أنها من الغيبيات التى لم تكن معلومة لقوم الرسول ﷺ حيث قال تعالى ﴿ ذَٰلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ

يَخْتَصِمُونَ﴾ (الآية ٤٤ آل عمران) وفى سورة هود عليه السلام بَعد ذكر قصة نوح يأتى قول الله سبحانه ﴿تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ (الآية ٤٩ سورة هود) مع العلم أن سورة هود من السور المكية ، فلو كانت هذه الأنباء أو بعضها مما تعلمه قريش لبادرت إلى تكذيب الرسول عليه أفضل الصلاة والسلام ورد ما جاء به بإثبات أنها على علم بهذه الأخبار أو ببعضها ، وفى سورة يوسف ما يؤكد أن قصة يوسف عليه السلام مع إخوته لم تكن معلومة لدى قريش ، وذلك قول الحق تعالى ﴿ ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِالْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ ﴾ (الآية ١٠٢ سورة يوسف) ونحو ذلك ما جاء فى سورة القصص بعد ذكر قصة موسى عليه السلام مع فرعون لعنه الله

ومع بنى إسرائيل ، فهل يبقى مع ذلك شك أن الرسول ﷺ موحى إليه بهذه الأنباء من عند العزيز الحكيم ؟ وأهل الكتاب لم يكونوا على إحاطة تامة بهذه الأخبار لما أدخله أحبارهم ورهبانهم من التحريف والتبديل فى الكتاب .

وقد حاول المشركون أن يجدوا ما يتشبثون به في تكذيب الرسول ﷺ زاعمين تارة أن النبي ﷺ يهذى بهذه الأخبار التى في القرآن من قبل نفسه ، وتارة أنه يستند إلى من يلقنه إياها ، والله تعالى يرد عليهم هذه الدعوى بقوله ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِسَانُ الَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ﴾ (النحل / ١٦) فأنى للأعجمي أن يستطيع صياغة هذه القصص والأخبار والمواعظ والأمثال إلى ما وراء ذلك مما فى القرآن هذا الصوغ العجيب الذى تلاشت بين يديه بلاغة بلغاء العرب ، مع أن الرجل الأعجمى الذى زعموا أن الرسول ﷺ يستمد منه القرآن لم

يكن يعرف من اللغـة العربية إلا ما يدور من حديث المجاملات فحسب ، وقد اختلف المفسرون فى اسمه ووصفه ، منهم من قال اسمه (يعيش) ، ومنهم من قال اسمه (جبر) ، ومنهم من قال اسمه (بالعام) ، وقيل كان أعجميا بياعا بمكة ، وقيل كان قينا روميـا ، وهذا الاختلاف لا يضير الاتفاق أنه لم يكن يحسن العربية كما يدل على ذلك القرآن نفسه ، وإذا كان أولئك المكذبون يتشبثون بهذه الدعوى الواهية فى تلك العصور فإن ملاحـظة اليوم يعيدونها فى صورة أخرى ، فنجد فى مقررات الروس الشيوعيين زعما بأن مسيلمة الكذاب ــ لعنه الله ــ كان من أساتذة الرسول (عليه السلام) ، وأن كثيرا من سور القـرآن من وضـع مسيلمة ، وإنما استأثر رسول الله ﷺ بهذا الأمر دونه ، وزعموا أن القـرآن الكريم تضافرت عليه جهود كثير من الناس لفوا بالكرة الأرضية وأحاطوا بما فيها من العجائب واستظهروا ما أمكنهم من الأخبار ، وكانت حصيلة ما جمعـوه هي مصدر ما فى هذا القـرآن من عجائب يتعـذر على الفرد أن يحيط بها ، وهذا كله إنما هو ناتج عن سـوء التدبر فى الظروف التى أحاطت بنزول القـرآن الكريم ، بـل هـو ناجم عن مكابرة الحقيقة التى لا يمكن إنكارها وإلا فكيف يمكن لأبناء جزيرة العـرب ــ فى الوقت الذى تتعذر فيه وسائـل النقل التى تمكن من الدوران بالكرة الأرضيـــة ــ أن يحيطوا علما بأخبـار الأرض وعجائبها مع أنهم قليلا ما كانوا يخرجون من جزيرتهم ولم يكونوا على عـــلم بما يدور فى العـالم من حولهم .

وأحفظ أننى قرأت لمستشرق نصراني دعـوى أن رسـول الله ﷺ لم يكن على عـلم بأخبار النبيين كإبراهيم وموسى وعيسى قبل هجرته إلى المدينة المنـورة وإنما بدأ يقتبس بعـد الهجرة أخبارهم من أهل الكتاب فى المدينة ، وقد فات هذا المستشرق أن أكثر سور القـران خبراً عن النبيين هي السور

المكيــة لا المدنيـة كسورة يونس وهـود ويوسف وإبراهيم والإسراء والأنبيــاء والقصص وغيرهـا .

وأما خبر الحاضر فهو الإخبار عن الشئون المعاصرة للرسول ﷺ مما لا يمكن لبشر أن يجزم فيه بشيء كقوله تعالى :﴿ غُلِبَتِ الرُّومُ فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ فِي بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ ، وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ بِنَصْرِ اللهِ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ .. ﴾ (الآية ٢، ٣ الروم) فقد كان نزول هذه الآيات فى حال ما اشتد الصدام بين الإمبراطوريتين الكبيرتين آنذاك : الإمبراطورية الرومانية التى كان على رأسها قيصر ، واندحرت جموع بنى الأصفر أمام الزحف الساسانى وسر العرب المشركون لكون الروم يشاركون المسلمين فى الإيمان بكتاب سماوى بينما الفرس كانوا مجوسا يجامعون مشركي العرب فى عــدم الإيمــان بعقيدة سماوية وساء المسلمين هذا الانتصار الوثنيعلى قــوم من أهــل الكتاب فأنزل الله (تعالى) هـذه الآيات تحمل بشرى إلى المؤمنين بأن المنتصرين لا يلبثون أن يندحروا ، وأن الروم المغلوبين سوف يظهرون على عدوهم فى بعض سنين ، ولم يكن ذلك يدور بخلد أحد من الناس فمن الذى يستطيع أن يجزم بأن المغلوب سيصبح غالبا وأن الغالب سينقلب مغلوبا ؟ وقد كانت ثقة المؤمنين بالوحي ثقة لا تعادلها ثقة ، وهذا الذى دفع أبا بكــر الصديق (رضى الله عنــه) إلى مراهنة المشـركين على ما وعد الله به وذلك قبل حرمـة الرهـان فى الإسلام فقـد راهنهم على أربع قلائص لمــدة سبع سنين ، فمضت السبع ولم ينتصر الـروم على الفرس ، فشق ذلك على المسلمين فأمره رســول الله ﷺ أن يزايدهم فى الرهان وأن يستزيدهم سنتين فلم تمض السنتان حتى جاءت الأخبار بانتصار الروم على مجوس فارس ، وثبت ما وعــد الله بــه المؤمنين من هـذا الانتصار الذى يفرحون بــه،فلو أن هذا الوعـد كان ناتجا عن تفكير

إنسان يعتمـد على مقاييس الناس فى تجاربهم لكان ذلك معدودا من الأوهام التى لا يعتمد عليها عاقل، فإن الحـرب وإن كانت سجالا ينتصر فيها المغلوب ويهزم فيها الغالب فقـد يكون الانتصار فى بعض المواقف لعدو على عـدوه مفتاحـا لنصر طويل ، حتى يتمكن الغالب من القضاء على المغلوب وقـد حـدث ذلك كثيرا فى تاريخ الحروب القديمـة والحديثة فلا يمكن الجزم بظهور المغلوب على الغالب ، وخصوصا مـع تحديد الزمن ببضع سنين إلا بوحي ممن يعـلم السر وأخفى ، وتصديق الواقع للخبر فى الزمن المحـدد دليـل جازم على أن هـذا القـرآن الذى جاء بالخبر هو من عنـد الله تعـالى فإن ذلك من معالم إعجازه البارزة .

أمـا خبر المستقبل فهو فى القـرآن كثير جـدا ونكتفى بالإشارة إلى بعض المواضـع راجين من الله سبحانـه أن يمن علينا بالتوفيق للإطالـة فى شرح هـذا الإعجاز عندما نصـل إلى هذه المواضع فى التفسير ، فمن ذلك ما فى سـورة الفتح من بشائر متعـددة ، وأخبار متنوعـة ، وكان نزول السورة على الرسول ﷺ فى جـو عابس مكفهر بعد ما كان المسلمون يستحكم فى نفوسهـم اليأس ، ويستولي على قلوبهم الشعور بالهزيمـة ، وذلك أن رسـول الله ﷺ أُرِيَ فى منامـه أنه داخـل مـع أصحابه المسجـد الحرام وهم محلقون رءوسهم ومقصرون بعد تأدية الشعائر ـــ ورؤيا النبيين حـق ـــ لأن الشيطان لا يتمثل لهم ، فاستنفر الرسول ﷺ المؤمنين ليذهبوا معه محرمين إلى البيت العتيق الذى تحدوهم إليه لواعج الشوق بعـد طول عهدهم به لحيلولة المشركين بينهم وبينه ، وكان ذلك فى العـام السادس الهجرى ، فاستبشر مرضى القلوب من أهـل المدينـة بهذه المبادرة من المسلمين التى كانوا يتصورونها مغامرة جنونية ستؤدى بهم إلى الفَناء ، وكانت ألسنتهم تجرى بنا تفيض به قلوبهم المريضة من ظنون ، فتردد أن قريشا قـد غزت النبي ـــ

عليه أفضل الصلاة والسلام — فى عقر داره ورزأته فى كثير من أصحـ
فكيف وهو يذهب بأصحابه إلى دارهم ، فهل ترضى الأنفة القرشية والحمية العربية التى تتأجج نارها فى صدورهم أن يمر بهم خصومهم ويطأوا ترابهم من غير أن يبيدوهم عن بكرة أبيهم ؟ هذه الخواطر كانت تعتمل فى نفوس المنافقين فى المدينة ، ويتحدثون بها فيما بينهم ، هذا ولم يكد رسول الله ﷺ والمؤمنون يستنشقون عبير البيت الحرام ويشمون العرف الذكي من التربة الحرمية المقدسة حتى وقف بين أيديهم المشركون سدا منيعا يحولون بينهم وبين ما يطمحون إليه ، وبركت ناقته ﷺ مكانها بالحديبية ولم تتقدم خطوة إلى الأمام ، وأخبر النبي ﷺ أنها حبسها حابس الفيل ، ووافق (عليه أفضل الصلاة والسلام) على أي خطة تسألها منه قريش ، فتمت بينه وبينهم المعاهدة المعروفة بصلح الحديبية ، وكان ظاهر هذا الصلح استعلاء المشركين على المسلمين ، إذ كان من بنوده ، أن كل هارب من جانب المسلمين إلى المشركين فللمشركين أن يلجئوه ، وكل لاجيء من جانب المشركين إلى المسلمين فليس للمسلمين أن يلجئوه ، وكانت هذه مصيبة نزلت كالصاعقة على رؤوس المسلمين ، وقد كبر عليهم الأمر حتى أن الرسول ﷺ كان يأمرهم ثلاث مرات أن ينحروا هديهم ويحلوا إحرامهم بالحلق أو التقصير فتلكأوا في امتثال أمره مع ماعُرفوا به من المبادرة إلى طاعته ﷺ في كل ما يأمرهم به أو ينهاهم عنه ، وقد شق ذلك على رسول الله ﷺ فدخل مهموما على زوجه (أم سلمه) ، فأشارت إليه أن يخرج ولا يكلم أحدا وينحر هديه ويدعو بحالقه فيحلق له ، ففعل النبي ﷺ ما أشارت به عليه ، فتبادر أصحابه إلى بدنهم ينحرونها ، ثم أحلوا إحرامهم بالحلق والتقصير وكاد بعضهم يقتل بعضا من الغم ، وفي هذا الجو العابس نزلت هذه السورة على رسول الله ﷺ تحمل بشائر المستقبل الباسم ، وحسبك

بفاتحتها ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا ، وَيَنْصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا﴾(الفتح/١ ، ٢ ، ٣).

وكان الصحابة رضي الله عنهم في منتهى التشاؤم فجاء أحدهم إلى النبي ﷺ وقال له : أو فتح هو يارسول الله؟ فقال له (إي وربي فتح وأي فتح) ولقد صدق الله ما وعد به رسوله (عليه أفضل الصلاة والسلام) إذ لم يمض شهران من صلح الحديبية حتى فتح الله عليه خيبر وغنم المسلمون غنائم كثيرة وقضوا على الخطر اليهودي الذي يهددهم في قلب جزيرة العرب ،وأخذ الناس يدخلون في دين الله فوجًا بعد فوج ، ولم يمض عامان من تاريخ هذا الصلح حتي دخل في الإسلام أضعاف عدد المسلمين من قبل ، ويدل على ذلك أن النبي ﷺ خرج في عمرة الحديبية بألف وأربعمائة ودخل ﷺ مكة بعد سنتين ومعه عشرة آلاف مقاتل.

وقد أخذت الدعوة الإسلامية بعد هذا الصلح تتدفق في أنحاء الجزيرة كالسيل الآتي وقد تخطت حدود الجزيرة حتى قرعت مسامع كسرى وقيصر عندما أوفد النبي ﷺ وفوده حاملين كتبه إلى كثير من ملوك الأرض من بينهم الإمبراطوران الكبيران كسرى وقيصر ،وقد أقلقت هذه الدعوة قلب قيصر حتى شعر بعرشه يتزلزل من تحته ، وبالأرض تميد به وبسلطانه ، وقال قولته المشهورة أمام أبي سفيان بعد أن سأله عن صفات النبي ﷺ وأحوال دعوته: «لإن كنت صادقا فيما تقول ليملكن موضع قدمي هاتين ، ولو كنت أعلم أنني أخلص إليه لتجشمت إليه حتى أغسل عن قدميه» أما جزيرة العرب فقد مَلأت سمعها هذه الدعوة وبلغت أقصى مكان منها وهو

عُمان لبعدها عن مكة المكرمة ، وقد أسلم أهلها عن بكرة أبيهم عندما وصلهم عمرو بن العاص رسول النبي ﷺ ، وكان هذا كله هو الفتح الذي وعد الله به رسوله الأمين ، وقد أنجزه الله له في أقل من سنتين من نزول السورة ، وفي نفس هذه السورة كثير من الأخبار عن المغيبات منها ما أخبره الله به عما سيقوله المخلفون في قوله ﴿سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا فَاسْتَغْفِرْ لَنَا ، يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ﴾(الفتح/١١) وهؤلاء هم أسلم وغِفار وغيرهم من الأعراب حول المدينة وكانوا قد تلكأوا في الخروج مع الرسول ﷺ والمؤمنين لما يتوقعونه من عدم انفلاتهم من قبضة قريش إذا وطئوا تراب مكة ، وقد أخبر الله رسوله ﷺ عما كان يدور في أدمغتهم من ظنون في قوله ﴿بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَظَنَنْتُمْ ظَنَّ السَّوْءِ وَكُنْتُمْ قَوْمًا بُورًا﴾(الفتح/١٢) كما أخبره ــ سبحانه ــ عما سيطمع فيه المخلفون من اللحوق بالمؤمنين لإحراز المغانم التي تفيء إليهم بعد ذلك ، وما يجب أن يجابوا به حيث قال ﴿سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انْطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ يُرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللَّهِ ، قُلْ لَنْ تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ اللَّهُ مِنْ قَبْلُ ، فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا بَلْ كَانُوا لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾(الفتح/١٥) وهذه المغيبات التي لا يدركها إلا الله (سبحانه) ، وفي نفس السورة إنذار المخلفين بأنهم سيدعون إلى قوم أولي بأس شديد يقاتلونهم أو يسلمون ، وذلك مما وقع في عهد أبي بكر ــ رضي الله عنه ــ في حروب الردة مع بني حنيفة وغيرهم ، وفي سائر الحروب التي تلاحقت بعد ذلك حتى ظهر دين الله في الأرض ، ومن ضمن ما في السورة من المغيبات هذه البشارة التي يحملها إلى النبى ﷺ وإلى المؤمنين قول الحق تعالى ﴿لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ

رُؤوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا﴾(الفتح/٢٧) ولم يمض عام واحد حتى أقر الله عيون المؤمنين بدخولهم المسجد الحرام محرمين بعمرة القضية ، وهم آمنون مطمئنون محلقون رؤوسهم ومقصرون بعدما أحلوا الإحرام ، وقد اشترك في هذه العمرة جميع المؤمنين الذين صُدوا عن المسجد الحرام في عمرة الحديبية ، وفي السورة نفسها وعد من لله للمؤمنين بغنائم متتابعة ، وقد تحقق ذلك وكانت غنائم خيبر في مقدمتها ، كما وعد الله فيها رسوله ﷺ بظهور دينه على كل دين في قوله ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾(الفتح/٢٨) وقد أنجز الله هذا الوعد فعلت كلمة الله في الأرض وأشرق نور دينه الحق فمزق ظلمات الأديان الباطلة ، وبجانب هذه الأخبار الغيبية في السورة وعود وبشائر أخري في سائر القرآن ، منها مافي قول الحق تعالى ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِم أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾(النور/٥٥) والآية نزلت بشارة للمؤمنين في ظرف حرج ووقت عصيب ، ضرب فيه على المسلمين في المدينة طوق من الحصار من قبل أعدائهم ، إذ كانت جزيرة العرب ترميهم بأفلاذ كبدها ، والدولة الإسلامية وليدة ناشئة مهددة بالقضاء عليها في مهدها ، ولكن هذا الوعد وأمثاله مما كان ينزل به القرآن ينزل في قلوب المؤمنين السكينة ، ويبعث فيها الطمأنينة ، ويستثير العزائم ، ويوقظ الهمم ، وكما أن المسلمين كانوا بمكة المكرمة مهددين من قبل رؤوس الكفر في نفوسهم ظلوا كذلك في المدينة المنورة مهددين في دولتهم الفتية ، ونظامهم الناشيء وكانوا لا يكادون يضعون

أسلحتهم خشية أن تستباح بيضتهم ، وتُداس كرامتهم ، لاسيما والعرب تتناوشهم ، وقريش تؤلب عليهم ، ويُذكر أنه في هذا الظرف القاسي جاء رجل إلى النبي ﷺ يسأله متى يأمنون فيضعون أسلحتهم ؟ فبشره النبي ﷺ بأنه سيعيش حتى يرى الملأ الكثير من الناس ليست بينهم حديدة ، ونزلت الآية تصديقا لما بشّر به النبي (عليه أفضل الصلاة والسلام) والآية مسبوقة بآيات مبشرات نزلت بمكة المكرمة ، منها قول الحق سبحانه ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ﴾(غافر/٥١) والمؤمنون لثقتهم بوعد الله كانوا لَايخفون هذه البشائر عن أعدائهم المشركين ، وقد اتخذ منها المشركون مادة للسخرية والاستخفاف والهزء بالمؤمنين ، فإذا رأوهم مقبلين قالوا : جاءكم ملوك الأرض الذين سيغلبون غدا ملك كسرى وقيصر ، والنبي ﷺ كان يبشر بهذا الوعد حتى في أحرج المواقف التي تضيق منها الصدور ، ويضطرب فيها البال ، فعندما خرج ﷺ مهاجرا من مكه ومعه الصديق (رضي الله عنه) وكان المشركون يكادون يأخذون عليهما جميع المسالك بالرصد والتبع ، إذ كانوا يعدون من يأتيهم به حيا أو ميتا بمائة قلوص ، كان رسول الله ﷺ في هذه اللحظات الحاسمة ينظر إلى وعد الله القاطع بالنصر والتمكين وظهور هذا الدين على كل دين ، حتى كأنه من ثقته بهذا الوعد ينظر إلى الموعود به أمام ناظريه ، وعندما لحق به سراقه وصده الله تعالى عنه وطلب منه كتاب الأمان قال له النبي ﷺ (كيف بك إذا لبست سوار كسرى ؟) إن كل لبيب ليدرك بأدني تأمل أن هذا المنطق ليس منطقا بشريا عاديا وإنما هو منطق النبوة الخالدة والرسالة الصادقة ، فالبشر العادي في مثل هذه الساعات الحرجة تضيق به الأرض بما رحبت ، وتتبخر آماله ، وتتصدع عزائمه ، وتتلاشى همه ، كيف وهو (عليه أفضل الصلاة والسلام)تلفظه

أرضه التي هي مسقط رأسه ومنبت آبائه ، ومسرح خيالاته ، ويخرج منها مع أحد أصحابه يقطعان رحلة في الصحراء تزيد عن أربعمائة وخمسين كيلومترا ، ويكاد يكون على كل تلعة أو هضبة رصد من المشركين ، فضلا عن الأفواج التي خرجت من ورائهما آملة اللحاق بهما ، لتشفي قريش غيظها منهما ، فكيف يداعب خياله ﷺ في هذه الحالة أمل أن تُفتح لأصحابه ممالك كسرى ، حتى يلبس رجل عادي لايزال في ذلك الوقت على ملة الجاهلية سواري كسرى ؟ وإنما ذلك تعبير منه ﷺ عن وعد الله الذي لا تبديل لكلماته ولا اختلاف لميعاده.

ولقد أنجز الله تعالى هذا الوعد ، فانطلق المسلمون في أرجاء الأرض حاملين معهم لواء دعـوة الحق ، وأطاحـوا بالإمبراطورية الأولى في العـالم آنذاك ، كما قضوا على السلطة القيصرية في أكثر مستعمراتها ، وكادوا يأتون عليها في كل مكان ، وأذاقوا الشعوب المقهورة المحرومة التي كانت تئن تحت وطأة الظلمة وسياط العسف والجور نعمة العدل والحرية والكرامة ، وعندما جيء الخليفة الراشد عمر بن الخطاب ــ رضي الله عنه ــ بخزائن كسرى وتاجه وسواريه دعا بسراقه وألبسه السوارين تحقيقا لما وعد به الرسول (عليه أفضل الصلاة والسلام) ، فمن الذي يصدق أن هذه الشراذم القليلة سوف تواجه في آن واحد أكبر دولتين في ذلك الوقت ــ مثلهما كمثل روسيا وأمريكا في عالم اليوم ــ وتتغلب عليهما ، لولا أن الأمر أمر إلٰهي والوعد وعدٌ رباني؟ ولو قال قائل «إن الرسول ﷺ كان يستدل بقرائن الأحوال لما يقوله شأن الأذكياء النابهين فإن ذلك يرده أن موازين العقل ومقاييس التجارب تقضي باستحالة أو شبه استحالة تحقق تلك الوعود ، كيف يمكن لهذه الأعداد القليلة من المؤمنين أن تواجه الدول

الكبرى من غير أن تسند ظهرها إلى دولة ذات قوة كقوتها ؟ فمن يصدق في عصرنا هذا أن جزيرة العرب مع ما يفيض فيها من الثراء ويتفجر منها من الطاقة تستطيع أن تتحرش بإحدى الدولتين الكبريين في هذا العصر بغزوها في عقر دارها اعتمادًا على قوتها فضلا عن التحرش بهما معًا ؟ مع أن أصحاب الرسول ﷺ الذين رفعوا لواء الجهاد لم يجمعوا قواهم لغزو دولة واحدة فحسب حتى يتغلبوا عليها ثم ينقلبوا إلى غيرها ، بل انقسموا لتواجه طائفة منهم هذه القوة ، وتواجه الطائفة الأخرى القوة الأخرى ، والعرب وإن عرفوا بالبأس وقوة المراس فإن ذلك لا يعني قدرتهم من قبل أنفسهم لمواجهة القوى العالمية ، لاسيما أن العرب لم تكن حروبهم حروبا منظمة وإنما كانت حروبا قبلية ضيقة ، والروم والفرس قد مارسوا الحروب وخبروها لمدة ثلاثة قرون واعتادت جيوشهم الانضباط العسكري ، وأبدى كل جيش من هذين الجيشين الكبيرين في المعارك التي دامت بينهما هذه المدة من مهارة الحرب وفنون القتال مالم تكن قبائل العرب على خبرة به فأني للجيش العربي أن يسحق جموع بني ساسان وبني الأصفر وهو يتكون من القبائل المتفرقة التي دأبت على التنافر والتناحر ، وعرفت بالأنفة والإباء بحيث يرفض كل قبيل إمرة القبيل الآخر ؟!.

وهل كان رسول الله ﷺ ــ لو كان يستمد وعوده من مقاييس عقله ــ يثق في اجتماع كلمة العرب وتخلصهم من عاداتهم التي طبعوا عليها واستعلائهم على أنانيتهم التي عرفوا بها حتى يكونوا قوة تتحدى العالم بأسره ؟ فلو كان هذا المنطق منطقا بشريا لعُد من أول الأمر فاشلا نظرًا إلى حالات القوم مع العلم أن النبي ﷺ لم يخرج بالجماعة المؤمنة معه ليخوض بها معركة خارج الجزيرة العربية حتى يقيس بها ما يمكن إحرازه على يد هذه الجماعة من نصر ، اللهم إلا ما كان من معركة (مؤته) التي كانت بين

المسلمين والروم في آخر عهده ﷺ ، وقد اكلت هذه المعركة قادة الجيش الإسلامي قائدًا بعد آخر ، ولم يحقق المسلمون فيها نصراً ماديا وإن بعثت في نفوسهم العزائم وأججت أشواقهم إلي الاستشهاد في سبيل الله ، ولعمري إن نظرة يلقيها العاقل إلى حال العرب وإلى ما وصلوا إليه من نصر على القوى العالمية لتعود إليه باليقين القاطع أنهم لم ينتصروا بقوتهم البشرية وإنما انتصروا بما وقر في قلوبهم من الإيمان ، والثقة بوعد الله (سبحانه) . فقد كان هؤلاء الأعراب الذين لم يتجاوزوا جزيرتهم القاحلة من قبل ولم يتعرفوا على ما عند الأمم من أنظمة السلم والحرب كانوا كأنما زويت لهم الأرض من أطرافها تحت أقدامهم ، فلا يمدون أيديهم إلى جزء منها حتي يستسلم ، ولا يشيرون بسيوفهم ورماحهم إلى أي مملكة من هذه الأرض الفسيحة حتى تتساقط أباطرتها من عليائهم ، فيخروا على وجوههم ، وهو إنجاز واضح لما وعد الله ـ سبحانه ـ به عباده المؤمنين الذين كانوا يستضعفون في الأرض من النصر والقوة والظهور على أعدائهم والاستخلاف في الأرض ، وإنجاز الله هذا ـ الوعد لأولئك المؤمنين في تلك العصور الغابرة لا يعنى أنه لن تكون دورة للمؤمنين من جديد وإنما الوسيلة إلى ذلك التعلق بأسباب النصر، وأسبابه ظاهرة نستجليها من نفس عبارات وعود الله . فالله تعالى يقول : ﴿ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ (الآية ٤٧ سورة الروم) ويقول : ﴿وَلَيَنْصُرَنَّ اللهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ، الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ ..﴾ (الآيات ٤٠ـ٤١ سورة الحج) ويقول عز من قائل : ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ ﴾ (الآية ٥١ سورة غافر) فالإيمان الراسخ في القلب المسيطر على الوجدان ، والجنان الموجه للجوارح هو السبب الأقوى في النصر والتمكين ، وهذا الإيمان يعني رفض جميع الآلهة المختلقة التي تعبد من دون الله سواء كانت

من البشر أم من الهواة أم من المطامع ، وذلك واضح من قوله سبحانه : ﴿يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا﴾ (الآية ٥٥ سورة النور) والسلف الصالح عندما فتحوا الأرض فتحوها بعزائم الإيمان وبسلاح اليقين ولم يكونوا يريدون علواً في الأرض ولا فسادا ، وإنما كل همهم إقام الصلاة وإيتاء الزكاة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، ولذلك لم يكونوا يفتحون أعينهم على شيء من متاع الحياة الدنيا فلم يكن همهم جمع الغنائم بل تساوي التبر والتراب في ميزانهم ، وبمثل هذه المبادىء استحقوا النصر من الله فأصبحت الأرض ترتجف من هيبتهم فقد صدقوا الله فصدقهم الله ونصروه فنصرهم ، وكانت قلوب أعدائهم تجف من سماع أخبارهم وألسنتهم تلذ بذكر محاسنهم فسارت بأخبارهم الركبان وبهرت فتوحاتهم عظماء التاريخ من بعدهم، حتى إن كبار القادة في العصر الحديث وقفوا حيارى مشدوهين أمام عظمة تأريخهم وسعة فتحهم ، ومن هؤلاء القائد الفرنسي نابليون القائل «لقد افتتح العرب نصف الكرة الأرضية في نصف قرن من الزمان ، مع أنه من المعلوم بديهة عدم تطور وسائل النقل في ذلك الوقت ، وعدم وجود وسائل إعلام تمكنهم من بث دعوتهم في أوساط الشعوب والأمم إلا الكلمة وحدها التي تخرج من لسان أحدهم فلا تلبث أن تغزو العقول وتستولي على القلوب لأنها تستمد قوتها من صدقها فلا تخرج الكلمة من أفواههم إلا وقد صدقتها أعمالهم فتخرج نورا يسطع يضيء شعاعه القلوب المظلمة ، ويفتح العقول المغلقة ، فلا تلبث العقول والقلوب أن تتفاعل معها وتستجيب لندائها ، وقد اتصف أولئك المؤمنون فيما اتصفوا به بالصبر والحلم والأناة والحكمة ، وكانت هذه الصفات مفاتيح المغاليق المستعصية ، ومن ثم لم يمض وقت طويل من بعد انتقال الرسول ﷺ إلى الرفيق الأعلى حتى صاروا يطرقون أبواب الصين في الشرق وأبواب فرنسا في الغرب ولولا ما نكب به المسلمون من انحراف قادتهم السياسين عن الحق

وتنكبهم عن الصراط السوي بإخلادهم إلى الدنيا وانغماسهم في الترف لخفقت رايات الإسلام في هضاب أوروبا كلها ولنعمت الإنسانية بحضارة الإسلام التي تنضح بالرحمة وتفيض بالخير ، ويجد الإنسان البائس في ظله الوارف راحة الضمير وطمأنينة النفس وهدوء البال.

هذا وثم الكثير في القرآن من الأخبار الغيبية التي فسرها الزمن تفسيراً واضحا لاغموض فيه يؤكد إعجاز هذا الكتاب.

ولعل بعض الناس يتوهمون أن بإمكان البشر التنبؤ عن المستقبل اغتراراً بما يقوله الدجالون من الفرى ، والواقع أن الغيب لله فليس بإمكان المخلوق الحكم على المستقبل إلا استنادا على إخبار الله تعالى ، وكثيرا ما باء الدجالون بالفشل عندما يكشف المستقبل عن إفكهم ، ويتضح بهذا البون الشاسع بين خبرهم وخبر القرآن الكريم الذي لا يمكن إلا أن يأتي المستقبل شاهداً على صدقه وإن وافقوا الحقيقة في خبرهم فذلك من الشاذ الذي لا حكم له وما هي إلا مصادفة لم يحيطوا بها علما ، وقد سبق أن قال المنجمون إن عمورية لن تفتتح في عهد المعتصم إلا عند نضج التين والعنب واقترحوا على جيوش المسلمين أن ينتظروا إلى ذلك الوقت المحدد فلم يُصغوا إليهم وتم الفتح قبل نضج التين والعنب ، وقد حمل على هؤلاء الدجالين الشاعر أبو تمام في قصيدته التي افتتحها بقوله:ـــ

السيف أصدق أنباء من الكتب في حده الحد بين الجد واللعب

وفيها يقول:ـــ

سبعون ألفا كآساد الشرى نضجت جلودهم قبل نضج التين والعنب

والتاريخ في العصر الحديث يعتمد على الفلسفة العلمية التي لم تكن معلومة من قبل لدى المؤرخين القدامى ، ويستدل بالحفريات والآثار على إثبات ما يثبته وإنكار ماينكره ، وقد جاء هذا المسلك في البحث من شواهد الإعجاز القرآني في قصصه ، ولسنا بحاجة إلى ما يثبت صدق القرآن فإن إيماننا القاطع بأنه كتاب عزيز لايأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، تنزيل من حكيم حميد لا يدع مجالا للشك في كل ما يخبر به ، وإنما نريد بذلك إقامة الحجة على الجاحدين الذين لا يصدقون بالدليل إلا إذا كان ماديا ملموسا وفي هذا أيضا طمأنينة لقلوب المؤمنين كما حكى الله عن إبراهيم عليه السلام قوله ﴿وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾(البقرة / ٢٦٠).

٥ ــ الإعجاز الإئتلافي

لقد كان نزول القرآن الكريم في ثلاث وعشرين سنة : ثلاث عشرة منها بمكة ، وعشر بالمدينة ، وكان يواجه في نزوله ظروفا مختلفة ، ويعالج مشاكل متنوعة ، ويقاوم تحديات متجددة ، وتأتي فيه ألوان من القضايا ، ففيه الأمر والنهي ، والوعد والوعيد ، والوعظ والتذكير ، والقصص والأمثال ، وخبر الماضي والحاضر والمستقبل ، ومع ذلك فإن بعضه يشد بعضا ، لاتجد فيه ما يدل على التناقض أو يشير إلى الاختلاف ،ولو كان كلام بشر لتعذر أن يصل إلى هذا الحد من الائتلاف والترابط ، إذ ليس من المعقول ألا يُسجل على كلام إنسان في ظرف عقدين من السنين شيء من التناقض والاختلاف لا سيما وهو يواجه أحوالا متباينة.

ويتعرض لردود مختلفة ، ويتحدث عن موضوعات متعددة ، وتستطيع في الجلسة الواحدة أن تجد في كلام الإنسان كثيرا من الاختلاف والتناقض ، وتجد النبغاء الماهرين يؤلفون كتابا في موضوع بعينه ، سواء أكان دينيا أم فلسفيا أم علميا أم أدبيا ، فإذا أخذت تقلب صفحاته وجدت فيه كثيرا من الاختلاف ، بل كل كاتب أو مؤلف كلما أعاد النظر فيما كتب أو ألف وجد كثيرا من النقائض التي تستدعي الإصلاح ، بينما الكتاب العزيز لا يعثر أحد من المبصرين المنصفين بين سوره وآياته على مايمكن أن يُعد اختلافا أو تناقضا ، والله (سبحانه) يثير انتباهنا إلى ذلك بقوله ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾(النساء/٨٢) وإذا كان هنالك من المستشرقين من يزعم أنه عثر على شيء مما يعده تناقضا في القرآن فإن ذلك ناتج عن أحد أمرين ، إما قصر الفهم

وضعف النظر في مدلولات الآيات ، وإما الحقد الدفين الذى ينسج من الأوهام والخيالات ما تصوره أقلام أولئك الحاقدين حقائق واقعه ، ولقد فند كثير من علماء التفسير مزاعمهم ، وبددوا شُبَهِهم ، وأرجو التوفيق لبسط ذلك في موضعه من التفسير إن شاء الله.

٦ـ الإعجاز العلمي
القرآن يخاطب العقل فى كل العصور

القرآن الكريم صراط هداية ، وكتاب دعوة ، ومنهج حياة ، لم ينزله الله (سبحانه) لبحث دقائق علم الطب ، أم الفلك أوغيرهما ، وإنما أنزله ليكون نورا يضيء للإنسانية طريق حياتها ، ويبصرها بما يضرها وما ينفعها ، غير أن الإنسان هو جزء من الموجودات في هذا الكون يربطه به رباط وثيق ، لأنه في الحقيقة المحور الذي تدور عليه رحاه ، والكون كله صفحات مهيأة لدراسة الإنسان ، كل سطر من سطورها حافل بما لا يُحْصى عددا من آيات الله الشاهدة على وجوده الناطقة بتسبيحه وحمده ، فلا يكاد اللبيب الموفق يفتح عينيه على شيء يتلوه من هذه السطور حتى يمتلىء قلبه إيمانا بمبدع الكون الذي تسبح بحمده كل ذرة في هذا الوجود ، وتسجد خاضعة لجلاله وكبريائه ، فلا يجد اللبيب الموفق مناصا من التجاوب مع ذرات الكون في تسبيحها ، والتفاعل معها في سجودها لله وانقيادها لأمره ، ولا يشذ عن ذلك إلا من تكدرت فطرته وتعفنت طبيعته ، فأظلم عقله ، وحار فكره بسبب هذا كله جاء القرآن الكريم ليفتح عيني الإنسان على صفحات هذا الكون الواسع ، ويأخذ بيده ليطوف به في معارض هذا الوجود ، وكثيرا ما كان في ذلك يُبصر الإنسان بما لم تنفتح عليه عيناه من قبل من حقائق كونيه شاء الله (سبحانه) ألا تخرج للناس من طوايا الخفاء إلا بعد أزمنة متطاولة من نزول الكتاب سواء كانت هذه الحقائق في ذات الإنسان نفسه أم في الأرض التي جعلها الله مهده ومرتعه ، أم في سائر الأجرام التي ترتبط بها الأرض بسنة الجاذبية أم في الفضاء السحيق الذي تسبح في خضمه الهائل هذه الأجرام دون أن يحدث أي

صدام بينها أو خلل في سيرها ، واكتشاف الإنسان لهذه الحقائق إنما هو اكتشاف لنوع آخر من إعجاز القرآن الذي تحدث عنها قبل تصور الإنسان لها بأكثر من عشرة قرون ، ولكن بما أن القرآن هو خطاب الغيب الموجه إلى الدهر كله لا يتصادم في أخباره مع عقلية أي عصر من عصور هذا الدهر ، فكل عصر يفهم من لغته بقدر اتساع آفاق علمه وهذا من إعجاز بيانه كما ذكرنا من قبل ، ولا يكاد التطور العلمي يتمخض عن حقيقة انطوى عليها سر الوجود إلا وتجد القرآن الكريم إما دالًا عليها بوضوح عبارته أو موميا إليها بمجمل إشارته ، وقد وعد الله سبحانه بتجلية هذه الحقائق للناس لتستبين لهم حجة القرآن الذي دل عليها أو أشار إليها وليعلموا أنه من عند الله تعالى ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللهِ ثُمَّ كَفَرْتُمْ بِهِ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ ، سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَ لَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ، أَلَا إِنَّهُمْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقَاءِ رَبِّهِمْ أَلَا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطٌ..﴾(فصلت/٥٣ ، ٥٤) ولعمري ما أبين دلالة هذه الآيات على ما اكتشفه الناس في أنفسهم وفي الكون من حولهم من نواميس الخلق وأسرار الوجود التي يعد كل فرد منها شاهد صدق على إعجاز القرآن فلا يبقى معه مجال للشك ، وفي التأكيد المتتالي بأن الله على كل شهيد وأنه بكل شيء محيط دلالة واضحة على أن مدلول الآية أوسع وأشمل وأدق مما وصلت إليه أفهام الناس، ومن قبل هذه الاكتشافات. وما أحسن ما قاله الأستاذ الرافعي «إن لم يكن الإعجاز في هذا التعبير ظاهر بداهة فليس يصح في الأذهان شيء ، وتشير بداية سورة الفرقان إلى انطواء القرآن الكريم على عجائب الخلق في هذا الكون فقد جاء فيها ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَٰذَا إِلَّا إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا ، وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً

وَأَصِيلًا ، قُلْ أَنزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ..﴾(الفرقان/٤ ـ ٦)
ففي هذا الرد على هذه المزاعم الباطلة والشبهات الواهية بأن هذا القرآن الذي يزعمون افتراءه منزل ممن يعلم السر في السموات والأرض دليل على انطوائه على عجائب السموات والأرض الدالة على عجز المخلوقين ، ولو تضافرت جهودهم عن الإتيان بمثله وإنما هو تنزيل ممن يعلم أسرار الوجود ويحيط بدقائقه.

العلم الحديث ومعجزة القران

ولقد أخذت هذه الحقائق تتكشف برهة بعد أخرى بما لايبقى معه شك في عجز المخلوقين عن مثله ، وقد اتضح ذلك لغير المسلمين فأذعنت ألسنتهم وأقلامهم لمعجزة القرآن ، وإن لم يحالفهم التوفيق فيتبعوا نوره ، ومن بين هؤلاء الدكتور (موريس بوكاي) الذي سبق أن ذكرته ، وقد ألف في ذلك كتابا سماه «العلم في التوراة والإنجيل والقرآن» أوضح فيه تعذر كون القرآن من عند الناس واستحالة كونه غير منه شيء ، وأثبت فيه أن الكتابين السابقين قد أصابهما كثير من التحريف والتبديل ، وقد استبصر في بحثه هذا بنور العلم الحديث ، هذا وقد وقف المفسرون حيال هذه الاكتشافات مواقف متباينة فمنهم المفرط ومنهم المفرّط ومنهم المعتدل ، أما المفرطون فهم قوم فتنوا بالعلم الحديث ونظرياته المختلفة ، فأخذوا يفسرون القرآن بما يتلاءم مع تلك النظريات ، ولو لم يحتملها لفظه وهم ــ وإن كانت لهم نية حسنة ــ فإنهم يعرضون نصوص القرآن للخطر ، فالنظريات العلمية كثيرا ماتتناسخ ، ويقضي بعضها على بعض ، أو يعدل بعضها بعضاً ، فإذا فُسِّر القرآن بشيء من هذه النظريات ثم نُسِخت النظرية بنظرية أخرى كان ذلك سببا لتعريض القرآن للرد والتكذيب.

وأما المفَرِّطون فهم قوم اقتصروا على آراء السلف في التفسير ، وعصبوا أعينهم عن العلم الحديث ودلائله ، وأما المعتدلون فهم الذين جعلوا القرآن هو الأصل وحملوا عليه الحقائق العلمية التي دلت عليها آياته دلالة واضحة دون النظريات التي لا تستقر على حال وما كان من هذه النظريات مؤيدا بدلائل آيات الكتاب قبلوه ، وما كان مدلولا عليه بها دلالة غامضة قبلوه بتحفظ ، خشية تعريض كتاب الله للتعديل والتبديل ، وفي نظري أن هذا المنهج هو المنهج الوسط ، إذ لا سبيل لأن نُغمض أعيننا عن الحقائق العلمية الثابتة التي دلّ عليها القرآن أو أشار إليها ، ونتمسك بأقوال الماضين التي حشيت بكثير من الإسرائيليات الزائفة مع أن القرآن نفسه واضح في أن آيات الله الكونية ستتجلى للناس بصدقه وستقطع ألسنة الجاحدين بما يتكشف منها من الشواهد القاطعة بإعجازه ، كما أنه لا سبيل لَليِّ أعناق الآيات حتى تخضع لنظرية هذا أو ذاك من قوم كثيرا ما يبنون نظرياتهم على نظرتهم المادية القاصرة إلى الكون والحياة ، ومما لا يُشك فيه أن خوض هذا العباب المتلاطم الرهيب يستلزم خبرة ودراية ولست جديرًا بمثل هذا الأمر ، فإني لم أتخصص في نوع من أنواع هذه العلوم ، بل لم يكتب الله لي أن ألتحق بدراسة نظامية ولم أتمكن من الوقوف على مختبر للنظر في حقيقة علمية وَمَا بضاعتي من ذلك إلا مزجاة ، غير أني أستعين الله تعالى في التحدث عن نماذج من الإعجاز العلمي في القرآن بحسب ما وصلت إليه من خلال مطالعاتي لما قاله الكاتبون المتخصصون في الدراسات العلمية ، وإلى القارىء الكريم ما نسخ الذهن منها:ـــ

نماذج من الإعجاز العلمي

١ ـ يقول تعالى ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ (المؤمنون/ ١٢ ـ ١٤) هذه الآية الكريمة فيها بيان مبدأ خلق الإنسان وأطواره ، أنزلها الله على نبي أمي لم يكن يتلو من كتاب ولا يخطه بيمينه ولا يسمع محاضرات في علوم الأجنة ، ولم يكن قومه على علم بأمرٍ من هذه الأمور ، ولم تكن أنفسهم تحدثهم بأن يتطلعوا إلى شيء من هذه الأسرار ، وأول ما بدأت به الآية بيان أن الطين هو العنصر الأول الذي خلق منه الإنسان ودلالتها على ذلك واضحة لا غبار عليها ، وفي الإنسان نفسه شواهد جمة على صدق هذا الخبر فإن عناصر التراب كلها موجودة في جسمه ، ثم تلا ذلك بيان سلسلة الأطوار التي يمر بها الجنين في الرحم ، مع بيان طبيعة الرحم التي لم يكن الناس على علم بها ، إذ وصفته الآية الكريمة بأنه قرار مكين ، ومَا أدق هذا الوصف وأكثر انطباقه على طبيعة الرحم التي لم تصل إليها عقول البشر إلا في العصر الحديث ، فالرحم تحيط به عظام الحوض التي تحفظ سلامة الجنين مما يصيب بطن أمه وظهرها من اللكمات والهزات ، وعلى بابه حماية للجنين تتكون من إفرازات تقيه مخاطر الجراثيم التي يُخشى منها الفتك به لولا حيلولتها دون ذلك ، ومثل عظام الحوض الحصينة التي تحمي الجنين مثل الحصن المنيع ، ومثل الإفرازات التي تدفع عنه الجراثيم مثل الجنود المدافعين ، وليس وصف أبلغ تصويرا لذلك من قول الحق تعالى ﴿قَرَارٍ مَكِينٍ﴾ فإن القرار موضع الاستقرار والطمأنينة ، والمكين من المكانة وهي دالة على القوة والثبات ، وتنتقل الآية الكريمة من وصف الرحم إلى

الكشف عن سلسلة الأطوار التي يمر بها الجنين فيه ، فلا يلبث أن يتحول من نطفة إلى علقة بسبب ما يكون من اتصال الحيوان المنوي بالبويضة وتعانقهما ، وما يتبع ذلك من علوقهما بجدار الرحم وطعن البويضة له بخاصية حادة أودعت فيها فينفجر عن دم منهمر يسبح في خضمه هذا الكائن الجديد ويستمد منه غذاءه ونموه حتى يصل إلى المرحلة التاليةوهي المضغة وتبقى هذه المضغة بين جوانب الرحم أشبه في ترددها باللقمة التي يمضغها الآكل ، ثم يتكون منها الهيكل العظمي الذي يُكسى بعد ذلك باللحم ، ولم يكن الناس يتصورون أن العظام تتكون قبل اللحم حتى اكتشف ذلك العلم الحديث ، والقرآن الكريم قد سبق الاكتشاف العلمي بثلاثة عشر قرنا ، وما أدق تصويره لذلك في قوله ﴿فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا﴾فإن الفاء للترتيب والعطف بها يدل على تأخر المعطوف عن المعطوف عليه.

والعلم الجديد يفسر لنا بوضوح مقصود الآية حيث يقرر أنه لا تنبت خلية من خلايا اللحم حتى تتكون جميع خلايا العظام ، وتبين الآية تحول الجنين بعد ذلك إلى خلق آخر حيث تجتمع فيه صورة الإنسان وتنفخ فيه الروح ، وفي هذا ما يشير إلى أن الإنسان يتميز عن غيره في الرحم بعد سلسلة الأطوار التي يمر بها أولا..أما قبل ذلك فلا يتميز جنين الإنسان عن غيره من الأجنة ، فهل يعقل أن يكشف عن هذه الحقيقة الغيبية رجل أمي نشأ في بيئة بدائية لا تعرف العلم ولاتتصوره وفي عصر كان فيه البشر كلهم بعيدين عن تصور حقائق الكون على طبيعتها ما عدا الأمور الظاهرة ، أو ليس في دراسة هذه الآية الكريمة ومقابلة ما فيها بالاكتشافات العلمية ما يكفي دليلًا لمن استبصر أن هذا القرآن تنزيل من حكيم حميد ، يعلم السر في السموات والأرض ، ونحن إذا عدنا نفكر في المجتمع الذي نشأ فيه

الرسول ﷺ نجده مجتمعا منغلقا على نفسه بعيداً عن حضارات الأمم المعاصرة له بحيث لا يتصور ما يكون عند غيره حتى من وسائل الدفاع في الحرب ، وفي قصة الخندق ما يكفي دليلا على ذلك فقد اقترح سلمان الفارسي (رضي الله عنه) على النبي ﷺ والمؤمنين عندما رمتهم جزيرة العرب بأفلاذ كبدها في حادثة الأحزاب أن يحيطوا المدينة المنورة بخندق يحمي أهلها من اقتحام خصومهم عليهم ، وقد كان هذا الخندق مثار عجب المسلمين والمشركين إذ لم يألفوا مثل هذه الوسيلة في الدفاع ، فهل يعقل من مثل هؤلاء الناس أن يسابقوا الزمن فيكتشفوا ما لم يكتشفه غيرهم إلا بعد مرور ثلاثة عشر قرنا .

٢ ــ يقول سبحانه ﴿وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ﴾(النور/٤٣) هذا التعبير صريح في أن السحاب الذي نراه بأبصارنا في الأرض كالبساط هو جبال من البرد ، ولا يستطيع الإنسان في الأرض أن يكتشف ببصره طبيعة السحاب ويدرك أنه ركام كالجبال سواء كان يمشي على سهول الأرض أو صاعداً على قمم الجبال ، وإنما يكتشف طبيعته الراكب على الطائرة التي تمخر عباب الجو فيراه كما وصفه القرآن جبالا شاهقة بينها مايشبه الهضاب والأودية ، ولم تكن الطائرة آنذاك معروفة فضلا عن كونها موجودة ، ولم يكن عند الناس منظار يمكنهم من رؤية السحاب على طبيعته ، ولم تكن في مجتمع الرسول ﷺ مدرسة لدراسة الطبيعة حتى يدرك هذه الحقيقة وقد أصبح الإنسان العادي يبصر بأم عينيه هذه الحقيقة التي كشف عنها القرآن بمجرد ما يركب طائرة وتمر به على سحاب .

٣ ــ يقول تعالى ﴿ وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ ﴾ (الذاريات/٤٩) ويقول ﴿ سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا

﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾(يس/٣٦) في هاتين الآيتين دلالة لا تقبل الشك على تزاوج الكائنات بأسرها لَا سِيما آية الذاريات لأن كلمة الشيء هي أعم العمومات ، وهي واضحة في أن الله جعل من كل شيء زوجين ، ولم يكن الناس يدركون أن هذه السنة تتجاوز الناس والحيوانات وبعض النباتات كالنخل إلى غيرها ، وقد كشف العلم عما أخبر به القرآن فإن ذرة الهيدروجين وهي من أخف الذرات تتكون من جزء سالب وجزء موجب وبالتفاعل الذي يكون بينهما تتكون الطاقة ، والكهرباء لا تعطي معطياتها المتنوعة إلا إذا التقى السائل الموجب بالسائل السالب وتفاعلا وبافتراقهما يتوقف مفعولهما وتنعدم الطاقة الكهربية وليس ببعيد أن يهتدي العلماء الباحثون إلى أن الأمر أعم وأشمل فهم في طريقهم إلى فرض نظرية أن بداية الكون من هذه الذرات.

٤ــ يقول عز وجل ﴿وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ﴾(الحجر/١٩) وقد كشف العلم عن نسب دقيقة من عناصر الأرض توجد في كل جنس ثمرة من الثمار بحيث لا تزيد ذرة من جزيء عنصر في ثمرة واحدة عما في سائر جنسها ، فلو زادت ذرة أو نقصت ذرة من تفاحة أو عنبه أو رمانه لتحولت إلى غير جنسها ، ويمكن من خلال دراسة طبيعة النباتات والثمار رد جميع قوانينها إلى ما دلت عليه هذه الآية الكريمة وذلك يستوجب تأليف كتاب واسع حافل بدقائق علم النباتات.

٥ــ يقول سبحانه ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾(القمر/٤٩) ويقول ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا﴾(الفرقان/٢) ويقول ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ﴾(الرعد/٨) كل واحدة من هذه الآيات ذات الحروف القليلة والمعاني الواسعة تقر حقيقة نظام الكون بأسره ، فإن كل ما في الكون مقدر تقديرا دقيقا بحيث لو زاد أو نقص لأدى إلى اختلال ، إما في التوازن العام أو التوازن الخاص ، فالإنسان نفسه كل شيء فيه بمقدار ، والأرض التي هي مهده ومرتعه كل شيء منها

بمقدار ، حجمها ، ووزنها ، وماؤها ، وقشرتها ودورانها ، ونسبة الأكسجين فيها ، والمسافة التي تفصل بينها وبين الشمس وبينها وبين القمر ، وجميع الكائنات المنبثة في هذا الفضاء الهائل الرهيب هي بمقادير معينة ، فجميع الأجرام مقدرة تقديرا في حجمها ووزنها وسيرها ، والمسافات التي تفصل بينها ، وما أودع فيها من طاقات ، ولندع هذه الأجرام الهائلة فإن الذرات الدقيقة التي لا تكاد تبصر إلا بالمجهر هي بمقادير معينة في كل ما فيها من بروتونات ونيوترونات وإلكترونات ، ولنلق الضوء على الأرض أولا.

لقد هيأ الله تعالى الأرض لأن تكون قرارا للإنسان،وزودها بكل مايحتاج إليه من ضرورات الحياة وكمالياتها ، وجهزها بما لم يجهز به غيرها من الأجرام من وسائل الحياة ، والقرآن الكريم يفتح الأبصار على ذلك إذ يقول ﴿وَفِيْ الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِيـنَ﴾(الإسراء/٨٥) فحجم الأرض جعله الله بمقدار ، ولو كانت أصغر من حجمها لانخفضت جاذبيتها ، ولتعذرت الحياة عليها أوتعسرت ، فإن الضغط الجوي عليها بطبيعة جاذبيتها المعهودة هُوَ بمقدار خمسة عشر رطلا على كل بوصة بحيث يحمل كل إنسان من الهواء اثنين وعشرين ألفاً وثمانمائة وأربعين رطلا ، وإنما لا يشعر بهذا الحمل لتعادل الضغط من كل جانب ، فمثله كمثل السابح في عمق الماء لا يشعر بثقل الماء عليه ، ولو كانت الأرض في ربع قطرها بحيث تكون في حجم القمر لانخفضت جاذبيتها إلى سدس جاذبيتها الحالية وتعذر أن تمسك الماء والهواء من حولها ولأدى ذلك إلى برودتها ليلا إلى حد التجمد ، وحرارتها نهارا إلى حد الاحتراق ، ولو كانت أكبر من حجمها لزاد الضغط بمقدار زيادتها ، فلو كانت في حجم الشمس لتضاعفت جاذبيتها إلى مائة وخمسين مرة ، ولبلغ ضغط الهواء زنة طن على كل بوصة وتعذرت نشأة الأجسام

ونموها وامتنع وجود العقل في الإنسان ، والقشرة الأرضية هي بمقدار أيضا ، فلو كانت أسمك بنحو عشرة أقدام لامتص ثاني أكسيد الكربون الأكسجين وتعذر نمو النبات وتعذرت بالتالى الحياة على الأرض ، وعمق البحر فيها بمقدار كذلك ، فلو كان أعمق ببضعة أقدام عما هو عليه لانجذب إليه الأكسجين وتوقف النبات وتعذرت الحياة ، والبحر يغمر ثلاثة أرباع مساحة الأرض وهو بمقدار ماينظفها من الأدران ، والغلاف الهوائى يقدر بخمسمائه ميل يحيط بالكرة الأرضية من جوانبها وهو يتعادل مع حجم الأرض ، إذ لوكانت أصغر من ذلك لارتفع الغلاف وتلاشى وحلت الكارثه على الأرض ومن فيها وما فيها ، فإن هذ الغلاف يحمى الأرض وما عليها من الشهب التى تتقاذف فى هذا الفضاء ، وتنطلق فى سرعة رصاص بندقية بتسعين مرة ، بحيث لو مرت على إنسان لكان مرورها وحده كافيا فى إهلاكه لسرعتها وحرارتها الملتهبة ، ونسبة الأكسجين فى الأرض بمقدار وهى إحدى وعشرون فى المائه ، ولو انخفضت إلى عشرة في المائة لتعذرت وسائل الحياة ، فإن الإنسان في هذه الحالة تعوزه النار التي يطبخ بها طعامه ، ولو ارتفعت إلى خمسين في المائة لأدى هذا الارتفاع إلى خطورة بالغة بحيث لو لمع برق لكفت شرارة منه لأن تأتي على غابة بأسرها ، ودوران الأرض حول نفسها بمقدار فهي تدور بقدر ألف ميل في الساعة الواحدة ، وبهذا يكون الليل والنهار في ظرف أربع وعشرين ساعة تستكمل فيها الأرض دورتها حول نفسها ، ولو قلت هذه السرعه إلى قدر مائتي ميل في الساعة لطال الليل والنهار ولاشتدت برودة الليل وحرارة النهار إلى حد ألا يطيقهما الإنسان ، والمسافة بين الأرض والقمر بمقدار مائتين وأربعين ألف ميل وذلك بقدر ما يحفظ توازن المياه في الأرض ، لأن للقمر تأثيرا في حركة الجزر والمد ، فلو كان أبعد لغارت المياه ، ولو كان أقرب لفاضت على

الأرض ، والمسافة بينها وبين الشمس بمقدار ثلاثة وتسعين مليونا ، ولو كانت أبعد من ذلك لتجمدت الأرض ، ولو كانت أقرب لصهرتها بحرارتها التي لا تُطاق ، وما يصل إلى الأرض من الطاقة الشمسية جزء من مليوني جزء وهو بمقدار ما ينمي النباتات ويزود الأجسام بالطاقة الحرارية ، ولو زاد عن ذلك لاشتد لهيب الحرارة في الأجسام وتأثرت النباتات ، ولو كان في مكان الشمس أحد النجوم الضخمة كالشعرى اليمانية أو السماك الرامح ، أو سهيل لتبخرت الأرض ، فإن الشعرى اليمانية أكبر من الشمس بعشرين ضعفا وأقوى منها بخمسين مرة ، والسماك الرامح أضخم منها بثمانين مرة ونوره أقوى من نورها بثمانيةآلاف ضعف ، وسهيل أقوى منها بألفين وخمسمائة مرة ، على أن هناك من العلماء المحدثين من يثبت أن الشعرى أكبر من هذا القدر بأعداد هائلة وليس ذلك ببعيد.

فلأمر ما تمدح الخالق (سبحانه) في كتابه أنه ربها ﴿وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ الشِّعْرَىٰ﴾(النجم/٤٩) وإذا تجاوزنا حدود الأرض قليلا إلى أخواتها ، ككواكب المجموعة الشمسية ، نجد التناسق بينها مرتبطا بمقادير أحجامها ودورانها وطبائعها ، فلكل منها حجمه الخاص ودورانه المقدر وتأثيره الدقيق في هذه المجموعة وهي تسعة مع الأرض تدور حول أمها الشمس ومعهن واحد وثلاثون قمراً توابع لهن وثلاثون ألفا من النجيمات وآلاف من ذوات الأذناب وأعداد هائلة من الشهب ، والشمس ليست بينهن ثابتة بل هي تجري كما أخبر الله تعالى عنها بقوله ﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا﴾(يس/٣٨) ويُقدر دورانها حول نفسها بستمائة ألف ميل في الساعة الواحدة وكل هذه الأجرام تابعة لها في هذا الدوران ، ولها دوران آخر مع كل توابعها على الحاشية الخارجية للمجرة ، وهي تبتعد عن هذه الحاشية بسرعة اثني عشر ميلا في كل ثانية ، وما هذه المجموعة الشمسية إلا واحدة من الملايين التي لا تُحصى من

المجموعات التي تنتسب إلى نفس هذه المجرة التي تقع فيها مجموعتنا الشمسية ، وقطر هذه المجرة يُقدر بمائة ألف سنة ضوئية ، والسنة الضوئية تقدر بستمائة مليون مليون من الأميال ، لأن الضوء يقطع في الثانية الواحده مائة ألف ميل وستةوثمانين ألف وثلاثمائة ميل«أى ثلاثمائه ألف كيلو متر » والمسافة بين الأرض والشمس سبع دقائق بسرعة الضوء ويمكن أن يدور الضوء على الكرة الأرضية فى الحدود الاستوائية سبع مرات فى الثانيةالواحدة ، والأرض تبعد عن مركز هذه المجره بثلاثين ألف سنة ضوئية ، وما هذه أيضا إلا مجموعة من أعداد هائلة من المجرات يقدر الفلكيون ما اكتشفوه منها خمسمائة مليون مضروبة في «٠٠٠ , ٠٠٠ , ٠٠٠ , ٠٠٠ , ٥٠٠» من الملايين ويقدر بالتعادل النسبي ما في كل مجرة من النجوم مائة مليار ، ولا تنس أن كل ما في هذه المجرات مقدر تقديرا دقيقا بحيث لو وقع أي خلل في شيء منها لأدى إلى اختلال التوازن العام للأجرام الفلكية فينتج عن ذلك تهاويها وسقوط بعضها على بعض فيؤدي إلى تلاشي الكون وهلاك ما فيه ، وذلك مَا وعدنا به في الكتاب عند قيام الساعة ، فالله تعالى يقول ﴿إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انْتَثَرَتْ﴾«الانفطار/١ ،٢»وفي هاتين الآيتين إشارة واضحة إلى سنة الجاذبية التى تربط بين هذه الأجرام وهي من إعجاز القرآن ودلائل صدق النبوة ، فإن الناس في ذلك العهد ما كانوا يتصورون الجاذبية ولا يخطر بباهم نظامها الذى يربط بين الأجرام الفلكية ، وهذه الدقة في مقادير الأشياء في هذا الكون هي التى جعلها الله عاملا في حفظ نظامه وأداء كل جزء منه مهمته ، وهي واضحة في كل دقيقوجَليل من طبيعة هذا الوجود من الذرة إلى المجرة ، فالمجرات على كثرتها الهائلة يوجد بينها هذا التقدير ألدقيق في كل شيء منها ، فلو فكرنا في أبعد المجرات عنا لوجدناها مرتبطة بمجرتنا التي تنتسب إليها مجموعتنا الشمسية بحسب ما أودع الله (سبحانه) في كل منها

من طبائع خاصة كانت العامل المهم في التلاؤم بينها ، حتى أصبح هذا الكون الفسيح وحدة متكاملة يشد بعضه بعضا ، ويكمل كل جزء منه غيره ، ومع أن علماء الفلك يختلفون في تقدير أبعاد المجرات بحسب ما يتسنى لهم من الاكتشافات العلمية فإنهم متفقون على وجود هذا الترابط الدقيق ، وأذكر أنني منذ عشر سنين قرأت كتابا عن الكون وجدت فيه أن أبعد مجرة يقدر بعدها عن الأرض بخمسمائة مليون سنة ضوئية ، وما لبثت إلا قليلا حتى اطلعت في مجلة (العربي) على مقال للدكتور أحمد زكي في المقاييس جاء فيه ان أبعد مجرة عن الأرض قد اكتشفت بأكبر منظار بينها وبين الأرض نحو ألفي مليون من السنين الضوئية ، ولم ألبث بعد ذلك إلا بضعة شهور حتى اطلعت على بحث آخر لأحد العلماء المتخصصين جاء فيه : أن أبعد مجرة تبعد عن الأرض بخمسة آلاف مليون سنة ضوئية ، وفى هذا ما يدل دلالة واضحة على أن البشر لم يكتشفوا من هذا الكون إلا زاوية صغيرة ﴿وَمَاأُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ (الاسراء/٨٥) وهناك نظرية يكاد علماء الكون يطبقون عليها وهي تمدده المستمر بحيث لو قدر هذا الكون أن يبقى ألف وثلاثمائة مليون عام لصار ضعف ما هو عليه الآن وما يدرينا إن كانت هذه النظرية صادقة أن تكون الإشارة إليها في قول الحق سبحانه ﴿ وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ (الذاريات/٤٧) وإذا كنا نقف حائرين عندما ندرك الدقة في الأجرام الفلكية الهائلة بحث يكون كل واحد منها مقدرا في حجمه ووزنه وطبعه ودورانه وطاقته والمسافة التي تفصل بينه وبين غيره فإن الأمر يكاد يكون أعجب عندما ندرك أن هذه الدقة توجد في أدق ما يعرفه الناس وهو الذرة فإن الذرات لها نفس السنة الكونية التي هي في الأجرام الفلكية وحسبنا أن نعرف أن النظام الشمسي في المجموعة الشمسية هو نفسه نظام هذه الذرة المهينة التي لا تكاد تبصر حتى بأشعة المجهر ، فإن

الالكترونات تدور على نواة الذرة دورانا هائلا يقدر بملايين المرات في الثانية الواحدة وكل ما في هذه الذرات الدقيقة من بروتونات ونيوترونات وألكترونات مقدر تقديرا بحيث لو زاد شيء أو نقص لأدى إلى الخلل في نظامها ، والخلل الذى يكون في الذرة يؤثر على غيرها فالأرض مثلا بكل ما فيها من نبات وإنسان وحيوان وهواء تتكون من عناصر هي نحو المائة أخفها الهيدروجين وأثقلها اليورانيوم ، والعناصر تنقسم إلى جزيئات ، والجزيئات تنقسم إلى ذرات وزنة جرام واحــد من ذرات اليورانيوم تقدر بألفي مليون مليون مليون من الذرات ، فما بالك بالهيدروجين الذى هو أخفها ، وانك لتمتلكك الدهشة ويستولي عليك الاستغراب إذا علمت أن عناصر كل مركب مقدرة تقديرا ، وجزيئات كل عنصر فيه محدودة بحيث لا تزيد ولا تنقص ، وذرات كل جزىء بمقدار ، ولو كانت ثم زيادة أو نقص لكانت سببا للخلل ، فسبحان من خلق كل شيء فقدره تقديرا .

ولنترك الذرات والمجرات ولننظر في تكوين الإنسان ، هذا الإنسان الذى أودع الله فيه عجائب الكون ، وجهزه بالطاقات المختلفة الحسية والمعنوية التي أهلته لحمل أمانة الخلافة في الأرض ، ومكنته من فرض إرادته فيها ، فإن هذا الإنسان نفسه خُلق كل شيء منه بمقدار ، وما أروع ذلك الشعور الذى يمتلك لب المؤمن وهو يتلو آيات الله تعالى على صفحات التكوين الإنساني بمنظار العلم بينما يسمع مناديا للحق يناديه : ﴿ وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾ (الذاريات / ٢٠، ٢١) والإنسان عالم فسيح ، بل هو عوالم ، فطبيعته عالم ، ونفسه عالم ، وأفكاره عــالم ، ومشاعره عالم ، وغرائزه عالم ، وحواسه عالم ،بلــه الروح التي هي من أمر ربي .

ومَا اعمق أسرار التكوين الإنساني وأكثر عجائبه ، وكل من يدرس أسرار هذا التكوين تأخذه الحيرة وتتملكه الدهشة ، وقد سبق أن ذكرت أن

جسم كل إنسان ذكرا كان أو أنثى ينطوى على ستين مليون مليون خلية وهذه الخلايا لم تخلق سدى ، بل لكل خلية وظيفة في حياة الإنسان ، والدماغ وحده الذى هو مركز الحركة والحس في الجسم يشتمل على أربعة عشر مليارا من الخلايا:ألف مليون خلية منها وظيفتها الاستقبال والتصدير وهي الخلايا العصبية تمتد منها أسلاك دقيقة إلى الجسم تدعى بالأنسجة العصبية بوساطتها نسمع ونرى ونتذوق ونتحرك ونحس إذ هي التى تؤدى إلى الدماغ الأصوات والصور ، فالذبذبات الضوئية يلتقطها مائة وثلاثون مليونا من الخلايا البصرية في كل عين ، وهي تقوم بدورها لنقلها إلى الدماغ ، والأصوات تلتقطها عشرة آلاف خلية لتؤديها إلى الدماغ كذلك ، وتنقل أنواع المذاقات إلى الدماغ ثلاثة آلاف خلية ، وإذا لامست الجلد حرارة أو قاربته تولت ثلاثون ألف خلية نقلها إلى الدماغ ، وإذا لامست البرودة الجسم نقل ربع مليون خلية حسها إلى الدماغ فإذا شعر بها الدماغ اقشعر الجسم وتنفست الشرايين الدموية فتؤدي إليها الدورة الدموية مزيداً من الدم لسدهذا الفراغ ، والحرارة إذا ما زادت تولت مجموعة من الخلايا نقلها إلى الدماغ فتفرز ثلاثة ملايين غــدة من الغدد العرقيـــة عرقا باردا يجرى على الجسم ، وهذه الأشياء كلها مقدرة تقديرا في الإنسان والطاقات المتنوعة الموجودة فيــه جعلها الله بمقادير معينة ، فالطاقة البصرية لو زادت عن هذا المقدار لكانت شاغلا للإنسان عن وظيفته الضرورية لرؤيته مالا داعي إليه كالميكروبات الدقيقة ، ولو نقصت لما أمكنه أن يؤدى وظيفته الحيوية على ما يرام ، والطاقة السمعية بمقدار حاجته من الأصوات ، ولو زادت لكان سببا لبلبلة فكره لما يتزاحم عليه من الأصوات التي هو غنى عنها ، ولو نقصت لتعسر عليه القيام بمهامه ، وبالجملة فإن هذا الكون بأسره من ذراته الدقيقة إلى مجراته الواسعة لا يخرج شيء من نظامه عما أخبر الله بــه من أن كل شيء عنده

بمقدار ، وكل ما يكتشف يأتي تفسيرا واضحا لهذه الآيات الكريمة ، وتلك من آيات الله التي وعد الله أن يريها عباده في الأنفس والآفاق ، حتى يتبين لهم أنه الحق .

والقرآن الكريم في تشريعاته الحكيمة وقصصه وأمثاله يشير إشارات عابرة إلى حالات نفسية تكاد أحيانا تقرب من التصريح وهي أقصى ما يمكن أن يتوصل إليه أى باحث في الأحوال النفسية ، والعالم النفساني عالم مظلم لا معالم فيه ولا مرشد في مسالكه ، وعندما رحل إليه علماء النفس دخلوه على جهل ، وتاهوا في أرجائه السحيقة ، ولم يعودوا منه إلا بفروض ونظريات كثيرا مادلت التجارب على كذبها ، ولو أنهم استصحبوا القرآن الكريم لأنار لهم المسالك النفسية وبصرهم بالحقائق التي لا تأتي التجارب إلا شاهدة على صدقها ، ولو أن علماء المسلمين بحثوا علم النفس على ضوء القرآن الكريم لعادوا بنتائج ماعاد بها غيرهم ، ولكانت الحقائق بدلا من الفروض والنظريات ولكن لأمر أراده الله (سبحانه وتعالى) تكاسل المسلمون عن القيام بهذا الأمر فصاروا أتباعا لغيرهم في الدراسات النفسية ككثير من الدراسات ، وأرجو أن يوفق الله الجيل الناشيء للاضطلاع بهذا العبء ، وقد أردت بما أشرت إليه هنا بعث عزائمهم لذلك ، وهذا النموذج اليسير من الإعجاز العلمي في القرآن لم أرد به إلا إيقاظ همم شبابنا المتجهين إلى الدراسات العلمية ليجعلوا القرآن الكريم نصب أعينهم في كل ما يدرسون ، وأرجو أن يوفقني الله أن أعود إلى الموضوع بشيء من التوسع عندما أصل في التفسير ـ ان شاء الله ـ إلى الآيات التي تشير إلى علم الكون في كتاب الله ، ولقد وددت أن أذكر ولو باختصار الإعجاز الطبي في القرآن ولكني آثرت الشروع في التفسير وإرجاء ذلك إلى محله والله تعالى ولي التوفيق .

« ســـورة الفاتحــة »

وتسمى فاتحة الكتاب ولها أسماء أخرى سوف نذكر ـــ بعضها-إن شاء الله ـــ فيما يأتي ، وأبدأ ببيان معنى السورة ومعنى الفاتحة .. أما السورة فهي مأخوذة من السور وقيل من السور وعلى الأول فهي غير مهموزة الأصل وسميت بذلك تشبيها بسور المدينة الذى يحيط بها لإحاطتها بما فيها من الآيات وما فيها من المعاني وقيل هي مأخوذة من التسور بمعنى الارتفاع أو من السورة بمعنى المنزلة والدرجة ، ومنه قول النابغة :

ألم تر أن الله أعــطاك سورة   ترى كل ملك دونهــا يتذبذب

وقوله :ـــ

ولرهط حـــراب وقــد سوره   في المجد ليس غرابهــا بمطـار

وتسمية السورة من القرآن بذلك إما لمنزلتها وعلو شأنها وإما لأنها ترفع قارئها والعامل بها ، وعلى أنها مأخوذة من السور فهي مهموزة الأصل ولكن خففت الهمزة فأبدت واوا ، وأطلقت عليها هذه التسمية لأن السور بقية الشيء وكل جزء من كل هوله بقية ،وتسميات السور في القرآن توقيفية على رأي كثير من العلماء لثبوت الروايات بذلك إما مرفوعة إلى النبي ﷺ أو موقوفة على أصحابه (رضي الله عنهم) ، وبعض العلماء يكره بعض التسميات التي شاعت كسورة البقرة ، وسورة آل عمــران ، وسورة النساء وسورة المائدة ، وسورة الأنعام ، ويرون أن الأولى والأحوط أن يقال : السورة التي يذكر فيها كذا نحــو السورة التي تذكر فيها البقرة والسورة التي يذكر فيها آل عمـران ، ويستدلون بحديثين أحدهما عن أنس ، والآخـر عن ابن عمـــر (رضي الله عنهما) ، ورد عليهم بأن حديث أنس إما ضعيف وإما موضوع وحديث ابن عمــر وإن ثبت سنده فهو موقوف عليه ، والموقوف لا يعارض المرفوع ، والتسميات كما سبق صحت بها روايات منها الموقوف ومنها المرفوع

منها حديث ابن مسعود (رضي الله عنـه) عند الشيخين أن النبي ﷺ قال : « الآيتان من آخر سورة البقرة من قرأ بهما في ليلة كفتاه » وحديث ابن عمر رضي الله عنهما ــ وإن صح سنده ــ لا يقوى على معارضة المرفوع فضلا عن كونه مجرد رأي صحابي لا يعتبر حجـة مـع مخالفة غيره من الصحـابة لـه.

وسميت هـذه السورة بالفاتحة ، وبفاتحة الكتاب ، لأنها أول القرآن ترتيبا لا نزولًا ، ومن العلماء من يراها أوله نزولا أيضا كما سيأتي إن شاء الله ، وبعضهم يضيف إلى ذلك مراعاة الترتيب في قراءة الصلاة ، وفي التلقين ، لأن الفاتحة لاتسبق بشيء من القرآن في الصلاة ولافي التلقين ، واعترض على ذلك الألوسي بأن مراعاة ذلك تستلزم التزام الترتيب القرآني في الصلاة وفي التعليم بحيث لايقرأ المصلي بعد الفاتحة إلا البقرة ، وكذلك لايلقن المعلم بعدها إلا البقرة أيضا ، وقد يجاب على هذا الاعتراض بأنه يكفي ألا تسبق الفاتحة بشيء من القرآن في تلاوة الصلاة ، وفي تلقين الأطفال ، إذ لايلزم من جعلها فاتحة للقراءة في الصلاة وفي التعليم مراعاة الترتيب فيما بعدها وتسميتها بفاتحة الكتاب لافتتاح القرآن بها والكتاب يصدق على كل هذا المجموع المنزل على نبينا ﷺ للإعجاز المنقول عنه تواترا وعلى بعضه ، وإنما راعى الألوسي افتتاح المجموع بها دون البعض لأن الكتاب لا يقصد منه المفهـــــــوم المشترك بين المجموع والبعض ، وأنت إذا نظرت إلى آيات القرآن نفسه تجد ما يكفيك مؤنه الجواب على هذا الإشكال ، فالله تعالى بقوله في سورة ابراهيم ﴿ كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ﴾ (ابراهيم / ١) وهي مكية ، والكتاب لم يكن مستكملا إنزاله حينما أنزلت هذه السورة ، وبهذا نستبين أنه لا مانع من إطلاق اسم الكتاب على المفهوم المشترك بين المجموع والبعض .

والفاتحة مؤنث الفاتح ، وتطلق على مقدمة الشيء ، وتسمى بها آلة الفتح ، ويرى بعض العلماء أن التاء هنا للنقل من الوصفية إلى الاسمية ، فإن الفاتحة مشتقة من الفتح ولكن بما أنها أطلقت على هذه السورة صارت علما لها ، ومنهم من يراها للمبالغة ، وهٰؤلاء لايشترطون في دخول التاء على صيغة المبالغة أن تكون على وزن علامة لدخولها على راوية ونابغة ، والأول مبالغة في الراوي ، والثاني مبالغة في النابغ ، ومنهم من يرى أن الفاتحة مصدر بمعنى الفتح سُميت به السورة لفتح القرآن بها ، وأصح هذه الأقوال الأول وأضعفها الأخير ، ولكل منها وجه في اللغة وإنما تتفاوت الوجوه قوة وضعفا ، ولهذه السورة أسماء كثيرة عدّ القرطبي منها اثنىٰ عشر اسما وقرن بذكرها أسباب التسميات ، وذكر الألوسي لها عشرين اسما ، وأورد القطب (رحمه الله) في هيمانه نحو هذا العدد أو أكثر ، وكثير من هذه الأسماء مرفوع إلى الرسول ﷺ ، وبعضها موقوف على أصحابه (رضى الله عنهم) ، وبعضها منسوب إلى السلف من التابعين فمن بعدهم .

من أسمـــاء الفاتحـــة

من هذه الأسماء أم الكتاب وأم القرآن ، والتسميتان مرفوعتان ، فقد أخرج الإمام الربيع (رحمه الله) من طريق أنس (رضى الله عنه) أن النبى ﷺ قال : « كل صلاة لا يقرأ فيها بأم القرآن فهى خداج » ورواه الإمام أحمد ومسلم والنسائى والترمذى وابن ماجه من حديث أبى هريرة (رضى الله) عنه ، وروى الدارقطنى عن أبى هريرة (رضى الله عنه) أيضا أن النبى ﷺ قال : « إذا قرأتم الحمد لله رب العالمين فاقرءوا بسم الله الرحمن الرحيم فإنها أم الكتاب وأم القرآن والسبع المثانى وبسم الله الرحمن الرحيم إحدى آياتها » وكان بعض السلف يكره هذه التسمية روى ذلك عن أنس وابن سيرين والحسن ، وكان ابن سيرين يقول أم الكتاب اللوح المحفوظ ويتلو ﴿ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ ﴾ (آل عمران/٣٩) وروى مثله عن أنس وكان الحسن البصرى يقول أم الكتاب آيات الحلال والحرام ـــ وهى الآيات المحكمات ـــ ويتلو ﴿ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ ﴾ (آل عمران / ٧) وعن أنس وابن سيرين أم القرآن اللوح المحفوظ ومع ورود السنة الثابتة الصحيحة عن النبي ﷺ تسقط جميع الاراء المخالفة لها وإن جلت منزلة أصحابها ، مما يعجب له أن يقول أنس (رضى الله عنه) بكراهة هذه التسمية وهو الذي روى الحديث الناص عليها عند الربيع ، ومن أسمائها الشافية لحديث « أنها تشفي من كل سم » وفي رواية « من كل داء » ومنها الرقية ، لما روى أن رجلا من أصحاب النبي ﷺ رقى بها سيد حي مروا عليه فلما أخبر النبي ﷺ قال « من أخبره أنها رقية ؟ » ومنها الكافية لأنها تكفي عن غيرها ، ولا يكفي غيرها عنها ، ومنها الوافية لجواز تجزئة غيرها من القرآن في الصلاة دونها .

والفاتحة مكية عند الجمهور وبعضهم حكى الإجماع على ذلك ولعل من المستحسن أن أنبه على التفرقة بين المكي والمدني من القرآن فللعلماء فى ذلك أقوال :

أولها : أن المكى مانزل بمكة والمدنى مانزل بالمدينة ، سواءً فى المكى ماأنزل قبل الهجرة أم بعدها كالذى أنزل فى حجة الوداع وفتح مكة .

ثانيها : أن المكى ماأنزل في شأن أهل مكة ولو نزل بالمدينة والمدنى غير ذلك .

ثالثها : أن المكى ماأنزل بمكة والمدنى ماأنزل بالمدينة وماأنزل في غيرهما فهو غير مكى وغير مدنى وهو مانزل على رسول الله ﷺ فى أسفاره ، وروى « أنزل القرآن بمكة والمدينة والشام » وبناء على القول الأول والثالث فإن ماأنزل فى ضواحى مكة كمنى وعرفات له حكم المكى ، وماأنزل فى ضواحى المدينة كأحد وبدر له حكم المدنى .

رابعها : وهو الصحيح وعليه الجمهور : أن المكى ماأنزل قبل الهجرة سواء فى مكة أم فى غيرها والمدنى ماأنزل بعد الهجرة سواءً فى المدينة أم غيرها ويتضح لك من هذا القول أن ماأنزل فى الحديبية وفى فتح مكة وفى حجة الوداع له حكم المدني ، والقرآن المكى يتميز طابعه عن المدنى بمزيد العناية بالعقيدة ، لأنه يواجه عنت المشركين وجحودهم ، وكثيرا مايصفهم بقوارع الوعيد كما يتجلى ذلك واضحا فى قصار المفصل كالقمر والواقعة والحاقة والقارعة والمرسلات والنازعات ، ويخرسهم بقواطع الأدلة على وحدانية الله (سبحانه) ، وينذرهم سوء العاقبة التى انتهت إليها الأمم من قبلهم بسبب تكذيبهم أنبياءهم وإصرارهم على الكفر ، وإن تعرض للعبادات فبإشارات

عابرة نحو ماتجده فى سورة المزمل فى قوله تعالى : ﴿ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا ﴾ (المزمل / ٢٠) وإذا كانت الصلاة قد فرضت فى وقت مبكر فى مكة المكرمة قبل أن تستقر على طريقة الصلوات الخمس التى فرضت ليلة الإسراء فإن الزكاة لم تفرض تفصيلا إلا فى المدينة المنورة ، وأوجبت بمكة إجمالا لتشويق الناس إليها وترغيبهم فى معرفة تفصيلها ، والمحرمات عندما يرد ذكرها في القرآن المكي يرد بطريق الإجمال أيضا نحو قول الله تعالى ﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ (الأعراف / ٣٣) وقد تجد فيه ذكر بعض المحرمات بشيء من التفصيل والبيان إذا كانت موغلة فى الفحش ، كالذى نجده فى سورة الإسراء من التحذير من قتل النفس بغير حق ، وقتل الأولاد ، والاقتراب من الزنا ، وتطفيف الموازين والمكاييل وغيرها من الأمور التى تتوقف سلامة الإنسان على اجتنابها من أول الأمر .

أما القرآن المدنى فهو لايغفل جانب العقيدة ، ولكنه يُعنى مع ذلك بالجوانب العسكرية والمدنية فى حياة الأمة الإسلامية ، ويرجع ذلك إلى قيام الدولة الإسلامية التي تستوجب أنظمة سياسية واجتماعية واقتصادية وعسكرية والعبادات أيضا عندما تذكر في القرآن المدنى تذكر بشىء من التفصيل والإيضاح ، ويضيف السيد محمد رشيد رضا فى تفسيره « المنار » إلى ذلك أن القرآن المكى يتميز بجزالة التعبير وبالدلالة على المعانى الجمة بالقليل من الكلمات ، ويرد ذلك إلى أن القرآن فى مكة كان يواجه قريشا وهم أفصح العرب لسانا ، وأبلغهم بيانا ، وأدركهم لمضامين الكلام ، وأوعاهم لمقاصده ، وأما القرآن المدنى ففيه الإسهاب والتطويل خصوصا عندما يخاطب بنى

إسرائيل لأنهم لم يكونوا عربا أقحاحا ، فلا يدركون من مقاصد الكلام العربى الجزل ماتدركه العرب لاسيما قريش ، وفى هذا نظر ، فإن القرآن طبقة واحدة فى بلاغته ، ولا يتصور أن تكون عبارة أبلغ من عبارة فيه ، وإنما تختلف الموضوعات التى يتطرق إليها ، فبعضها يقتضى الاختصار وبعضها يستوجب الإسهاب ، وبما أن المدينة قامت فيها الدولة الإسلامية كان الحال يقتضى وضع الأسس لحياة الأمة ، ومن المعلوم أن أمور المعاملات بل والعبادات تستوجب شيئا من التفصيل والإطالة أكثر مما يستوجب الوعد والوعيد ، فلا عجب إذا رأينا القرآن المدنى عندما يشرع الأحكام يكون فيه الإسهاب الذى لم يُعهد فى القرآن المكى ، وهذا من معَالم بلاغته ، فإن البلاغة تقتضى الاختصار تارة والإطالة تارة أخرى باختلاف المقامات . على أنا إذا نظرنا إلى آيات التوحيد المدنية كآية الكرسى ، وخواتم البقرة ، وخواتم الحشر نجد فيها من جزالة اللفظ وغزارة المعنى مالا يقل عمّا فى نظائرها من الآيات المكية ، وخطاب القرآن . وإن كان فى وقت نزوله وبحسب عباراته — موجها تارة إلى قريش وتارة إلى بنى إسرائيل وأخرى إلى غيرهم كمنافقى المدينة فإنه — بحسب معناه وبمقتضى مقاصده — يخاطب الثقلين إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها ، فلا ينزل في شيء من عباراته إلى مستوى بلاغة المخاطبين ، وقد أنكر الإمام الجوينى على الذين يقولون بأن بعض القرآن أبلغ من بعض ، وقال مامعناه : إن هؤلاء عندما يقولون اللفظ الفلانى أبلغ من اللفظ الفلانى يشيرون إلى أن كلا اللفظين فيه حسن ولطف ، ولكن أحدهما أحسن وألطف من الآخر ، وهم عندما يقولون إن سورة الإخلاص أبلغ من سورة اللهب يراعون مافى سورة الإخلاص من توحيد الله تعالى ، وما فى سورة اللهب من الدعاء على الكافر بالخسران ، ثم اعترضهم بما حاصله أن سورة الإخلاص جاءت بأبلغ عبارة لا يُتصور أبلغ منها فى تنزيه الله عن الشريك

والوالد والولد والكفء ، وسورة اللهب جاءت كذلك بأبلغ عبارة لا يُتصور أبلغ منها فى الدعاء على الكافر بالخسران ، فليست إحدى السورتين أبلغ من الأخرى ، وهكذا لاتكون آية أبلغ من آية ، فإن الموضوعات التى تتناولها الآيات-وإن اختلفت-فالقرآن فى تعبيره عنها طبقة واحدة لا تفاضل فيه من هذه الناحية ، وإنما يتفاضل القرآن من حيث المحتوى ، فلا مانع أن يقال ، إن آية الكرسى أفضل من آية الدين ، وسورة الاخلاص أفضل من سورة اللهب نظرا إلى المحتوى لا إلى التعبير ، وسيأتى إيضاح ذلك إن شاء الله .

وقد كان السبب في عدم تناول القرآن المكى لقضايا التشريع بالتفصيل والإسهاب أن المجتمع المكى آنذاك لم يكن مجتمعا إسلاميا ، فقد كان المسلمون مغمورين بالكثرة الكاثرة من المشركين الذين يضيقون عليهم الخناق ويتفننون في طرق إيذائهم ، فلم تكن الظروف تسمح لهم بأن يكونوا مجتمعا إسلاميا بالمعنى الصحيح ، فكان القرآن ينزل لشرح معالم العقيدة وإقامة الحجة على الجاحدين ، وكثيرا ما كان يتعرض لأخبار النبيين وما كانوا يواجهونه من مؤامرات أعدائهم وما حصل بعد ذلك من ظهور كلمة الله وقطع دابر القوم الذين ظلموا وهو بذلك يهدف من ناحية إلى ترسيخ العقيدة فى نفوس المؤمنين وإيقاد جذوة الأمل فى قلوبهم ، ويهدف من ناحية أخرى إلى إنذار القوم الكافرين الذين اغتروا بسلطانهم وانخدعوا بجمعهم ، فقد أهلك الله من قبلهم من هو أشد منهم قوة وأكثر جمعا . أما المجتمع المدنى فقد كان مجتمعا إسلاميا يتيسر فيه مالا يتيسر بمكة من ممارسة الشعائر الدينية وتحكيم الشرائع الربانية ، فلذلك تجد فى القرآن المدنى مالا تجده فى القرآن المكى من تفصيل الشعائر وتبيان الشرائع ، وقد يواجه أحيانا اليهود والمنافقين الذين بالمدينة بقوابع الحجج ولوامع البراهين التى لاتقل قوة عن تلك الحجج والبراهين التى كان يواجه بها مشركى قريش بمكة .

وكون سورة الفاتحة مكية هو رأى الجمهور ، وروى عن مجاهد أنه كان يقول بمدنيتها ، وقال الحسين بن الفضل هذه هفوة من مجاهد لأن العلماء على خلاف قوله ، وقال الألوسى : وقد تفرد به حتى عُد هفوة منه ، وقال الحافظ ابن حجر : وأعرب بعض المتأخرين . فنسب القول بذلك لأبى هريرة والزهري وعطاء بن يسار ، ولعل الحافظ يشير بذلك إلى القرطبى الذى نسب القول بمدنيتها إلى هؤلاء وغيرهم ، وليست فى ذلك غرابة ، فإن القرطبى لم ينفرد بهذه النسبة ، فقد أخرج ابن أبى شيبه فى المصنف ، وأبو سعيد بن الإعرابى فى معجمه ، والطبرانى فى الأوسط من طريق مجاهد عن أبى هريرة قال : « رنّ إبليس حين أنزلت فاتحة الكتاب وأنزلت بالمدينة » . اللّهم إلّا أن يُقال : إن جملة « وأنزلت بالمدينة » أدرجها مجاهد فى الرواية ، فقد ذكر ابن الأنبارى فى كتاب « الرد على من خالف مصحف عثمان » بإسناده عن مجاهد قال : « إن إبليس (لعنه الله) رن أربع رنات ، حين لُعن ، وحين أُهبط من الجنة ، وحين بعث محمد ﷺ ، وحين أُنزلت فاتحة الكتاب وأنزلت بالمدينة ، وأخرج ابن أبى شيبة فى المصنف وعبد بن حميد وابن المنذر وأبو نعيم فى الحلية وغيرهم من طرق عن مجاهد قال : نزلت فاتحة الكتاب بالمدينة ، وقول الجمهور أقوى حُجة ، فلو ثبت عن أبى هريرة (رضى الله عنه) أنها نزلت بالمدينة ما كان فى قوله حجة ، لأن أبا هريرة رضى الله عنه كان إسلامه فى العام السابع الهجرى لم يُعَايش نزول فاتحة الكتاب فلا يقوى قوله على معارضة قول جمهور الصحابة (رضوان الله عليهم) الذين أسلم كثير منهم قبل نزولها ، وقد درج المفسرون على الاستدلال لمكيتها بقول الله سبحانه : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِى وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ ﴾ (الحجر / ٨٧) بناء على أن المراد بالسبع المثانى الفاتحة ، كما صحت بذلك الرواية عن النبى ﷺ وعن

كثير من صحابته لاتفاق الجميع أن سورة الحجر مكية ، وخالفهم الألوسى فقال بأن هذا الاستدلال مخدوش ، للاختلاف فى السبع المثانى هل هى فاتحة الكتاب أو غيرها ، فقد روى عن ابن عباس (رضى الله عنهما) أنها السبع الطول ، ولعدم استلزام تقدم الممتن به على الامتنان ، فقد قال تعالى : ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا وَيَنْصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا ﴾ (الفتح / ١) والممتن به هنا مسبوق بالامتنان ، ثم أخذ الألوسى يناقش كلامه فاستبعد أن يكون إيتاء السبع المثانى متأخرا عن آية الحجر لتصديرها بقد مقرونة باللام ، وكلاهما يدل على التأكيد ، والتأكيد أليق بما حصل منه بما ينتظر خصوصا مع التعبير بالفعل الماضى ، وإن كان أحيانا يعبر به عن المستقبل لتحقق الوقوع نحو قوله تعالى : ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا ﴾ غير أنه رعاية للاحتمالات السالفة رأى أن الاستدلال مخدوش واعتمد فى الاستدلال لمكيتها بالروايات الموقوفة على أصحاب الرسول ﷺ ، ومما يجدر أن يقال أن الموقوف هنا حري بحكم الرفع للعلم أن كثيراً من الصحابة عايشوا نزول السورة وتلوها قبل الهجرة ، ولم يعرف منذ فرضت الصلاة أنها كانت بدون تلاوة الفاتحة ، ومن العلماء من يرى أن السورة قد تكرر نزولها:أنزلت أولا بمكة عندما فرضت الصلاة . وثانيا بالمدينة عندما حولت القبلة وهو بحاجة إلى الدليل ولا دليل وأورد عليه بعض العلماء بأن النزول إنما هو الانتقال بالسورة من الغيب إلى الشهود ، والظهور لايتكرر فما دامت السورة عندما أنزلت بمكة اِنتقلت من الخفاء إلى الظهور ، فلا معنى لنزولها مرة أخرى إذ لايعدو أن يكون تحصيلا للحاصل ، وأجيب بأن تكرار النزول لأجل تكرار الفوائد فيحتمل أن تكون نزلت أولا بحرف ثم نزلت بحرف آخر ، وذلك أن تنزل أولا بِقراءة « ملك » ثم تنزل بقراءة « مالك » أو العكس ، ويحتمل أن تنزل

مرة ببسملة وأخرى بدونها فيكون فى ذلك جمع بين المذاهب والروايات ، وتعقب الألوسي هذا الجواب بأنه مصحح للوقوع لو وقع وليس مثبتاً له ، ولعل القائلين بأنها نزلت بالمدينة يتعلقون بما أخرجه مسلم عن ابن عباس (رضى الله عنهما) قال بينما جبريل قاعد عند النبى ﷺ سمع نقيضا من فوقه فرفع رأسه فقال « هذا باب من السماء فتح اليوم لم يفتح قط إلّا اليوم» فنزل منه ملك فقال «هذا ملك نزل إلى الأرض لم ينزل قط إلّا اليوم » فسلم وقال « أبشر بنورين أويتهما لم يؤتهما نبي قبلك فاتحة الكتاب وخواتيم سورة البقرة لن تقرأ بحرف منهما إلا أعطيته » ووجه التعلق أن سورة البقرة مدنية بالإجماع ونزول الفاتحة مع خواتيمها شاهد على مدنيتها ، والجواب عن هذا التعلق أن الملك لم ينزل بالسورة ولا بخواتيم البقرة وإنما نزل مبشراً بفضلهما وعظم ثواب من تلاهما ، أما نزول الفاتحة فقد كان بمكة ونزول خواتيم البقرة كان بالمدينة قبل نزول الملك بهذه البشرى ، على أن من العلماء من يرى أن الفاتحة هى أول القرآن نزولا ، ونسبه الزمخشرى فى تفسيره سورة الفلق من(كشافه)إلى أكثر المفسرين ، وتعقبه الحافظ ابن حجر بأن قول أكثر المفسرين بخلافه وإنما هو قول قلة قليلة بالنسبة إلى الجم الغفير من المفسرين وغيرهم القائلين بأن الفاتحة مسبوقة بغيرها فى النزول ، والظاهر أن القائلين بسبقها يستدلون بما أخرجه ابن أبى شيبة فى (المصنف) وأبو نعيم والبيهقى فى (دلائل النبوة) والثعلبى والواحدى من طريق يونس بن بكير عن يونس ابن عمرو عن أبى ميسرة عمرو بن شرحبيل أن رسول الله ﷺ قال لخديجة « إنى إذا خلوت وحدى سمعت نداء فقد والله خشيت أن يكون هذا أمرا » فقالت معاذ الله ما كان الله ليفعل بك فوالله إنك لتؤدى الأمانة وتصل الرحم وتصدق الحديث ، فلما جاء أبو بكر ولم يكن رسول الله ﷺ ثم أخبرته الخبر وقالت له ياعتيق اذهب بمحمد إلى ورقة بن نوفل فلما جاء رسول الله

ﷺ قال له أبو بكر (رضى الله عنه) اذهب بنا إلى ورقه ، قال له : « من أخبرك؟» قال له : خديجة فلما ذهبا أخبر رسول الله ﷺ ورقه ، وقال له : « إذا خلوت وحدى سمعت نداء خلفى ، يامحمد يامحمد يامحمد فأنطلق هارباً فى الأرض » فقال لا تفعل ، إذا أتاك فاثبت حتى تسمع ما يقول ثم ائتنى فأخبرنى ، فلما خلا ناداه : يامحمد قل بسم الله الرحمن الرحيم . الحمد لله رب العالمين حتى بلغ . ولا الضالين .. الحديث وعلل السيوطى الحديث بإرساله ، وإن كان رجاله ثقات ونقل عن البيهقى احتمال أن هذا بعد نزول صدر ﴿ اِقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ ﴾ وجاء فى بعض الروايات أنه سمع منه قبل ذلك يامحمد قل أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدا رسول الله . ثم تلا عليه الفاتحة . والأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده يميل إلى رأى القائلين بتقدم الفاتحة فى النزول ، وينزع منزعا غريبا فى الاستدلال لذلك ، وقد لخص السيد محمد رشيد رضا ماألقاه فى الأزهر فى دروس التفسير من بيان الاستدلال لتقدم نزولها ، وألخص هنا هذا الملخص بشىء من الاختصار .

قال : إن سنة الله فى الكون ـــ سواء أكان كونا إيجاديا أم كونا تشريعيا ـــ أن يبدأ فى إظهار الشىء مجملا ثم يتبعه التفصيل ، وسنة الله فى هدايته لعباده لاتختلف عن سنته فى الإنبات كالشجرة الكبيرة الباسقة الفروع الوارفة الظلال تجتمع أصولها فى البذرة التى تنبت منها ثم تنمو بعد ذلك شيئا فشيئا بحسب ماتقتضيه سنة الله ، حتى تمتد فروعها وتؤتى ثمارها وذلك مثل هداية الله لعباده ، وبنى الأستاذ الإمام على ذلك أن فاتحة الكتاب منطوية على الأصول والأغراض التى لأجلها نزل القرآن ، وصرح بعد ذلك أنه لايذهب بما قاله مذهب القائلين بالإشارة الزاعمين أن كل مافى القرآن مضمون فى الفاتحة ، وكل مافى الفاتحة داخل فى البسملة وكل مافى البسملة هو فى الباء ، وكل مافى الباء مرموز إليه بالنقطة ، لعدم صحة ذلك

عن رسول الله ﷺ أو عن صحابته (رضى الله عنهم) ، وإنما هو من مخترعات الغلاة الذين انتهى بهم الغلو إلى سلب القرآن خاصته وهى البيان ، والله الذى نزله يصفه بقوله : ﴿ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ ﴾ (الشعراء / ١٩٥)
وأوضح الأستاذ الإمام الأغراض التى أنزل لأجلها القرآن فحصرها فى خمسة أغراض وهى : التوحيد ، والوعد والوعيد ، والعبادة ، وبيان سبيل السعادة ، وقصص الذين عملوا بأوامر الله ووقفوا عند حدوده وأخذوا بأحكام دينه ، والذين نبذوا أحكامه وتعدوا حدوده واستخفوا بوعده ووعيده في القرون الغابرة وأوضح أن العناية بالتوحيد ، لأن الناس كانوا فى وقت نزول القرآن وثنيين وإن وُجد فيهم من يدعى التوحيد ، وأما الوعد والوعيد فلأجل الضرورة إليهما لتقويم انحراف الناس وإصلاح فسادهم ، لأن الوعد هو تبشير العاملين بمقتضى التوحيد بحسن المثوبة ، والوعيد هو إنذار المخالفين لما يقتضيه بسوء العقوبة ، والوعد يشمل بشارة الدنيا والآخرة ، فقد وعد الله المؤمنين أفرادا وأمة بالاستخلاف فى الأرض والتمكين لهم إن استقاموا على الحق كما وعدهم بالنعيم المقيم فى مقعد صدق عند مليك مقتدر ، وأوعد الكفار والمنافقين بخزى الدنيا وشقاء يوم القيامة ، وأما العبادة فلتوقف حياة التوحيد فى القلوب وثباته فى النفوس عليها ، وأما سبيل السعادة فللزوم تميزه عن سائر السبل ، وأما القصص والأخبار فللعبرة والاتعاظ واتباع طريق المحسنين ومجانبة مسالك الفجار ، والاطلاع على سنن الله فى البشر .

وسعادة الناس فى الدنيا والآخرة تتوقف على معرفة هداية القرآن واتباعها وهى تتلخص فيما تقدم ذكره وتدل عليها الفاتحة دلالة إجمال ، أما التوحيد ففى قوله تعالى : ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ لأن الحمد كثيرا مايكون فى مقابل نعمة والآية تشعر أن كل حمد وثناء محصوران فى الله عز وجل ، وهذا يقتضى أن كل نعمة مصدرها الحق تعالى . وتدخل فى ذلك

نعمة الخلق والإيجاد والتربية والتنمية والهداية والإرشاد ، ولم يكتف باستلزام اللفظ لهذا المعنى بل صرح به فى قوله ﴿ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ فإن كلمة « رب » تؤمي إلى التربية والإنماء ، كما تدل على الملك والسيادة « والعالمون » جمع عالم والعالم كل ما كان علامة ودليلا على وجود الحق تعالى ، وفى هذا تصريح بأن كل نعمة يجدها الإنسان فى نفسه أو فى الآفاق هى منه (عز وجل) إذ لا يتصرف فى الوجود بالإعطاء والمنع ، ولا بالإشقاء والإسعاد ، ولا بالإيجاد والإفناء إلا هو ، والتوحيد أعظم مابعث لأجله المرسلون ، وشرع بسببه الدين لذلك لم يكتف هنا بالإشارة إليه بل زاده إيضاحاً بقوله ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ فاستأصل جذور الشرك ، وقضى على آثار الوثنية التى تفشت فى الناس الذين كانوا يتخذون أولياء من دون الله يعتقدون أن لهم السلطة الغيبية ، ويدعونهم من دون الله فى قضاء حوائجهم ، ودفع الضر عنهم ، ويجعلونهم واسطة بينهم وبين الله يتقربون بهم إليه زلفى ، وكل مافى القرآن من آيات التوحيد ومقارعة المشركين هو تفصيل لما أجمل هنا ، وأما الوعد والوعيد فالأول منهما داخل فى « بسم الله الرحمن الرحيم » لأن ذكر الرحمة فى أول آية من الكتاب وعد بالإحسان إلى الخلق وقد تكرر ذلك مرة ثانية فى الآية الثالثة للتنبيه على أن أمره بالتوحيد والعبادة من رحمته بنا ، لأنه يعود بالمصلحة والمنفعة علينا ويدخل الوعد والوعيد فى قوله ﴿ مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ ﴾ لأن الدين الخضوع المطلق وذلك اليوم تتلاشى فيه السلطات المدعاة فى الدنيا ولايبقى لأحد سلطان ولو ادعاء ، وإنما السلطان والقوة والحول والطول لله (عز وجل) فلا يبقى فيه مالا يكون خاضعا لجلاله ، مستسلماً لأمره ، راجيا رحمته ، خائفاً من عقابه ، وهذا يتضمن الوعد والوعيد . . وقد يفسر الدين بالجزاء وهو إما ثواب للمحسن وإما عقاب للمسيء وفى هذا وعد ووعيد ، وفى ذكر الصراط المستقيم فيما بعد إشارة

إليهما ، لأن من سلكه فاز ومن حاد عنه هلك وذلك يستلزم الوعد والوعيد ، وأما العبادة فقد ذكرت فى مقام التوحيد بقوله ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ ثم جاء منطوياً عليها وعلى المعاملات والسياسة الإنسانية بيان الأمر الرابع فى قوله ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَاطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾ إذ المراد بذلك أنه وضع لنا صراطاً نيراً واضحاً تتوقف السلامة والسعادة على الاستقامة عليه ، ولا تكون الشقاوة إلا بالانحراف عنه وهذه الاستقامة هى روح العبادة ، لأنها باعثة إليها ويتضح ذلك فى قوله تعالى ﴿ وَٱلْعَصْرِ إِنَّ ٱلْإِنْسَانَ لَفِى خُسْرٍ إِلَّا ٱلَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِٱلصَّبْرِ ﴾ (سورة العصر) فالتواصى بالحق والتواصى بالصبر هما روح العبادة بعد توحيد الله عز وجل ، والتعلق بالله خوفاً ورجاء وطاعة وتقرباً روح كل عبادة شرعت فى الإسلام ، والفاتحة بجملتها توجد جذوة هذه الروح ، ولأمر ماذكرت العبادة فى الفاتحة قبل ذكر الصلاة وأحكامها والصيام وزمانه ، فإن القصد من ذلك نفخ هذه الروح فى نفوس المسلمين قبل أن يكلفوا الأعمال البدنية وقبل تفصيلها فى سائر القرآن وما الأعمال البدنية إلا وسيلة لحقيقة العبادة ، وهى الفكر والعبرة والتعلق بالله فى كل شىء ، على أن الله وحده هو العليم بالوسائل المؤدية إلى تحقيق العبادة فلذلك شرع ماشرع من الأعمال البدنية المؤدية إلى مراقبة الله فى سائر التصرفات والأعمال ، وخشيته ورجائه فى كل لحظة ، وأما الأخبار والقصص فهى تندرج تحت قوله تعالى ﴿ صِرَاطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّالِّينَ ﴾ ففى الشطر الأول من الآية تصريح بأن هناك من الأمم الغابرين أمة تمسكت بالحق والتزمت به وفى هذا مايبعث على النظر فيما كانوا عليه والاعتبار به كما قال (سبحانه) داعيا نبيه إلى الاقتداء بمن تقدمه من الأنبياء ﴿ أُولَٰئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللهُ فَبِهُدَاهُمُ ٱقْتَدِهْ ﴾ (الأنعام / ٩٠) وفى الشطر الثانى تصريح بأن هؤلاء إما ضال عن الحق مجانب لصراطه ،

وإما جاحد له ومعاند لمن يدعو إليه ، فلذلك كان حريا بأن يغضب الله عليه ويخزيه ، وسائر القرآن يفصل هذا الإجمال من أخبار الأمم التى تفيد العبر وتبين حال الذين أصروا على باطلهم وأخلدوا إلى ضلالهم ، وعاقبة الذين حافظوا عليه وصبروا على ماأصابهم فى سبيله فاتضح مما تقدم أن الفاتحة قد اشتملت إجمالا على الأصول التى فصلها القرآن تفصيلا ومن هنا يرى الأستاذ الإمام أن إنزالها أولا يتفق مع سنة الله فى الإبداع ، وبما اشتملت عليه كانت حرية بأن تُسمى أم القرآن وأم الكتاب كما يُقال للنواة أم النخلة لاشتمالها على عناصر النخلة كُلها حقيقة لا كما يقول بعضهم : إن المعنى فى ذلك أن الأم تتقدم على أولادها ويكونون من بعدها ، هذا ملخص ماالستدل به الأستاذ الإمام على تقدم الفاتحة فى النزول عن سائر القرآن ، وقد تعقبه تلميذه السيد محمد رشيد رضا بما حاصله أن هذا لاينافى أن تكون سورة العلق سابقة على الفاتحة فى النزول ، لأنها جاءت تمهيداً للوحى المُجمل والمُفصل ، موجها خطابها إلى النبى ﷺ بإعلامه بأنه سيكون ــ وهو أمى ــ قارئاً بعناية الله ومخرجاً للأميين من أميتهم إلى العلم بالقلم أى بالكتابة ، وفى هذا استجابة لدعاء أبى الأنبياء إبراهيم عليه السلام ﴿ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ (البقرة / ١٢٩) وفكرة احتواء الفاتحة على مجمل معانى القرآن قد سبق بعض المفسرين إليها مع اختلاف المنهج وإن كان الإمام محمد عبده قد أبدع أكثر مما أبدعوا فى بيان وجه هذا الاحتواء ، ومن هؤلاء المفسرين الفخر الرازى فى « مفاتيح الغيب » والألوسى فى « روح المعانى » وإنما يلاحظ على الفخر الرازى اعتداده الزائد بالأرقام كقوله فى أعوذ بالله عشرة آلاف مسألة وفى بسم الله عشرة آلاف مسألة أيضا وفى الحمد لله ألف ألف مسألة وهكذا فى سائر آيات الفاتحة كما

يلاحظ على العلّامة الألوسي أن نزعته الصوفية تؤدي به إلى أن يحمل عبارات القرآن مالاتتحمله من المعانى ، ومما ينبغى أن نشير إليه اختلاف السلف فى أول ماأُنزل من القرآن فقد أخرج الشيخان عن عائشة رضي الله عنها أن أول ماأُنزل سورة العلق وهو رأى الجمهور وأخرجا من طريق أبى سلمه بن عبد الرحمن عن جابر بن عبد الله رضى الله عنه أن سورة المدثر أول ماأُنزل ، وقد جمع بين هٰذين الرأيين بأن صدر سورة العلق أول ماأُنزل من القرآن كله وسورة المدثر أول سورة أُنزلت بتمامها ، ويحتمل أن تكون سورة المدثر أول مانزل بعدما فتر الوحى ثلاث سنوات أو ثلاثين شهراً .

وإذا كانت فاتحة الكتاب تندرج فى عباراتها مجملات معانى القرآن الكريم فما أجدرها بتسمية أم القرآن وأم الكتاب كما قال الأستاذ الإمام ، وفى هذا مع الروايات الصحيحة الدالة على تسميتها بذلك رد على الذين يكرهون هذه التسمية على أن العرب قد عُهد منهم تسمية كل جامع أما ومنه قولهم للراية « أم » لالتفاف الجيش حولها وفى ذلك يقول ذو الرمه :

وأسمر قوام إذا نام صحبتى خفيف الثياب لا توارى له أزرا
على رأسه أم لنا نهتدى بها جماع أمور لا نعاصى لها أمرا
إذا نزلت قيل انزلوا وإذا غدت غدت ذات تزريق نناك بها فخرا

يصف قناة عقدت على رأسها راية يلتف حولها الجند ، ويُسمى ما اتقضى من سنى الإنسان « أما » ومنه قول الشاعر :

إذا كانت الخمسون أمك لم يكن لدائك إلا أن تموت طبيب

وتسمى الجلدة التى تجمع الدماغ « أم الرأس » لجمعها الدماغ ، وبهذا يتضح رجحان رأى من يرى تسمية الفاتحة بأم القرآن وأم الكتاب لجمعها مجمل مافى القرآن من المعانى ، وبسبب ذلك فُضلت على غيرها من القرآن ، فقد أخرج الإمام أحمد والبخارى وأبو داود عن أبى سعيد بن العُلى

قال : كنت أُصلي في المسجد فدعاني رسول الله ﷺ فلم أُجبه ، فقلت يارسول الله إني كنت أُصلي ، فقال : ألم يقل الله ﴿اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ﴾ (الأنفال/٢٤) ثم قال «لأعلمنك سورة هي أعظم السور في القرآن قبل أن تخرج من المسجد» ثم أخذ بيدي فلما أراد أن يخرج قلت له : ألم تقل لأعلمنك سورة هى أعظم سورة فى القرآن ؟ قال : « الحمد لله رب العالمين هى السبع المثانى والقرآن العظيم الذى أوتيته » ، وأبو سعيد راوى الحديث هو غير أبى سعيد الخدرى الصّحابي المشهور ، وقد التبس على كثير من المفسرين والأصوليين فنسبوا القصة إلى أبى سعيد الخدرى ، ومن هؤلاء الفخر الرازى والإمام الغزالى والقاضى البيضاوى والآمدى والبدر الشماخى ونور الدين السالمى مع العلم أن أبا سعيد الخدرى اسمه سعد بن مالك بن سنان بن عبيد بن ثعلبه بن الأبجر وهو خدرة ، ولم يُلقب أحد من هؤلاء المعلىٰ فضلا أن يكون ذلك اسمه ، وأما أبو سعيد بن المعلىٰ فقد قال عنه ابن عبد البر فى « التمهيد » لا يُوقف على اسمه . ويستغرب ذلك من ابن عبد البر مع أنه نفسه قال فى الاستيعاب : اسمه رافع وقيل الحارث بن نفيع بن المُعلىٰ ، وقيل أوس بن المُعلىٰ ، كما يستغرب من ابن عبد البر قوله فى « الاستيعاب » مات عام ٧٤ عن أربع وستين سنة وتعقبه الحافظ ابن حجر فى « الإصابة » بأنه خطأ ، لأنه يقضى أن يكون رسول الله ﷺ قال له ذلك وهو ابن أشهر ، على أن ابن عبد البر نفسه قد نسب فى الاستيعاب إلى بعض العلماء أن أبا سعيد بن المُعلىٰ هذا أول من صلى إلى الكعبة عندما حُولت القبلة ، وقد كان تحويل القبلة فى السنة الثانية للهجرة ، وأشار الحافظ ابن حجر فى «الفتح» إشارة عابرة إلى رده على ابن عبدالبر فى «الإصابة» والتبس على الواقدى أبو سعيد هذا بأبى سعيد مولى عبد الله بن عامر بن كليب وهو مولى لقريش ليس أنصاريا وأبو سعيد بن المعلى من

الأنصار ، والظاهر كما يقول ابن حجر أن سبب اللبس عدم التمييز بين الروايات فقد أخرج مالك فى الموطأ من طريق أبى سعيد مولى ابن عامر أن النبى ﷺ نادى أبى بن كعب رضى الله عنه وهو يصلى فذكر الحديث ومن هنا جعل الواقدى الحديث من رواية أبى سعيد بن المعلى عن أبيْ مع أن قصة أبيْ غير قصة أبي سعيد وإن أشبهتها وقد جاءت قصة أبيْ من رواية أبى هريرة عند أحمد والترمذى والحاكم وأبى داود والنسائى وابن خزيمة وجمع البيهقى بين الروايتين بتعدد القصة عند كلا الصحابيين ، قال الحافظ ابن حجر ويتعين المصير إلى ذلك لاختلاف مخرج الحديثين واختلاف سياقهما وهو واضح فى المخرج ، وأما فى السياق فالحديثان متشابهان لاتحادهما فى السبب وهو أن كلًا من أبى سعيد وأبى خوطب فى حال الصلاة ولفظ حديث أبيْ « أتحب أن أعلمك سورة لم ينزل فى التوراة ولا فى الإنجيل ولا فى الزبور ولا فى الفرقان مثلها » ثم أخبره أنها الفاتحة ، والواقدي — كما ذكر الحافظ ابن حجر — ضعيف إذا انفرد فكيف إذا خالف ؟ والحديث واضح فى تفضيل بعض القرآن على بعض وهى مسألة اختلف فيها العلماء فذهب أبو الحسن الأشعرى وأبو حاتم محمد بن حبان البستى المحدث المشهور والقاضى أبوبكر ابن الطيب إلى عدم جواز تفضيل شيء من القرآن على غيره منه ، وروى هذا القول عن مالك وحكى عن يحيى بن يحيى أن تفضيل بعض القرآن على بعض خطأ وهؤلاء يحملون هذا الحديث وأمثاله على التفاضل فى أجر التلاوة ويقولون فى نحو قوله ﷺ « لم ينزل فى التوراة ولا فى الإنجيل ولا فى الزبور ولا فى الفرقان مثلها » أن المراد منه أنه لم ينزل فى هذه الكتب مايعادل الفاتحة فى أجر التلاوة ، وبناء على منع التفضيل كان الإمام مالك — فيما روى عنه — يكره أن تعاد سورة بعينها دون غيرها ، وذهب غيرهم إلى جواز التفضيل وممن قال به إسحٰق بن راهويه وابن العربي والعز بن عبد السلام وابن الحصار

والقرطبي ، وأيده الحافظ ابن حجر استنادا إلى قوله تعالى : ﴿ نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلِهَا ﴾ (البقرة / ١٠٦) وعزاه القطب (رحمه الله) إلى المذهب، وتعجب ابن الحصار ممن يحكى الخلاف مع ورود هذه النصوص التى تدل على التفاضل

تفضيل بعض القرآن على بعض

وذكر القطب فى (هيميانه) عن الإمام الغزالى فى « جواهر القرآن » أنه قال ما معناه : إذا كانت نفسك تستوحش من تفضيل بعض القرآن على بعض ولا تستطيع أن تفرق بين آية الكرسى وخواتيم سورة الحشر وسورة الإخلاص وبين آية الدين ، وتنزع إلى التقليد فإن أولى الناس بالتقليد هو رسول الله ﷺ الذى أُنزل عليه القرآن ، وقد صرح بتفضيل بعضه على بعض ، ثم أورد بعض الأحاديث الواردة فى التفضيل ، وذكر العز بن عبد السلام أن التفضيل يكون باختلاف المعانى التى تحتويها الآيات ، فنحو قوله تعالى :﴿ شَهِدَ اللهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ ﴾ (آل عمران / ١٨) يشتمل على المعانى السامية من توحيد الله تعالى التى لا يشتمل عليها قوله عزّ وجل : ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى .... الآية ﴾ (البقرة / ٢٢٢) وذكر القطب فى (الهيميان) عن البيهقى أنه حكى عن الحليمى الأسباب التى تفضل بها سورة أو آية أختها ، منها ، زيادة المنفعة ، فإن آيات الأمر والنهى أجدى نفعا من آيات القصص والأمثال ، فإن الأمر والنهى مقصودان لذاتهما والقصص والأمثال يُراد بها تأكيد الأمر والنهى ، ومنها استعجال المنفعة للقارىء ، فإن قارىء الإخلاص وآية الكرسى وخواتيم البقرة وخواتيم الحشر ينال بمجرد القراءة منفعتين ، عاجلة وآجلة ، فالعاجلة : الاحتراز بتلاوة هذه الآيات المشتملة على أسماء الله الحُسنى وصفاته العُلى من

المخاطر ، والآجلة : مايترتب على استحضار معانيها واعتقادها من الأجر والمثوبه ، إذ تَالِي هذه الآيات يؤدى عبادة بمجرد تلاوتها عندما يستحضر مقاصدها فيرسخ بذلك عقيدته ، ويقوى إيمانه فتجتمع له التلاوة والعمل ، بخلاف آيات العبادات البدنية ، فإنه لا يكون مؤديا لها بمجرد ما يتلوها ، وكذلك آيات الأحكام ، وهكذا ، ومما ذكرهُ الحليمى أيضا فى أسباب تفضيل القرآن جميعه على جميع الكتب المنزلة من قبل وإن كان الكل كلام الله أنّ التَعَبُّد بتلاوته كالتعبد بالعمل به بخلافها ، وأنه يجمع بين الدعوة والإعجاز ، بينما الكتب السابقة قاصرة على الدعوة وحدها ، ومعجزات المرسلين الذين أنزلت عليهم خارجة عنها .

هذه خلاصة ما حكى عنه ، ويتضح لنا مما ذكرناه جواز تفضيل بعض القرآن على بعض بحسب اختلاف محتواه .

تحديد الآيات في سورة الفاتحة

أما آيات سورة الفاتحة ـــ التى نحن بصدد التقديم لتفسيرها ـــ فسبع ، وقد حكى غير واحد الإجماع على ذلك ، وإنما اختلفوا فى تحديد هذه الآيات السبع فقيل : « بسم الله الرحمن الرحيم » آية ، و « صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين » آية واحدة ، وقيل : « بسم الله الرحمن الرحيم » ليست بآية منها ، و « صراط الذين أنعمت عليهم » آية ، و « غير المغضوب عليهم ولا الضالين » آية . وسيأتى إن شاء الله عمّا قريب بحث مسألة البسملة بما فيه مقنع لمن أبصر ، وخرق الحسين بن على الجعفى الإجماع فزعم أنها ست آيات لأنه لم يعد البسملة ، وعد ﴿ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيهِمْ .... إلخ ﴾ آية ، ومثله صنيع عمرو

ابن عبيد الذى زعم أنها ثمان آيات لأنه عد البسملة آية ، وعد « أنعمت عليهم » آية كذلك ، وقيل : لم يعد البسملة ، ولكن عدّ ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ ﴾ قال ابن حجر : وهذا أغرب الأقوال . وتسمية الفاتحة بالسبع المثانى موح بأن آياتها سبع ، ومنهم من قال إن سبب تسميتها بذلك خلوها من سبعة أحرف وهى : الثاء والجيم والخاء والزاي والشين والظاء والفاء ، واعترض بأن التسمية تكون بالموجود فى الشيء لا المفقود منه ، ومنهم من يعلل هذه التسمية بأنها تغلق عن تاليها أبواب النار السبعة وهو بحاجة إلى ما يدل على أن ذلك سبب التسمية ولا دليل .

بحث أقوال في البسملة

﴿ بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ ﴾ اختلف فى البسملة هل هى من خصوصيات هذه الأمة أو كانت للأمم قبلها ! فنقل أبو بكر التونسي إجماع علماء كل ملة على أن الله افتتح كل كتاب بها ، وهذه دعوى لم تعضدها حجة إذ صحة الإجماع متوقفة على ثبوت نقله ، وذهب آخرون إلى أنها من خصوصيات هذه الأمة ، واحتج له الألوسي بما لا طائل تحته والعجب من هؤلاء كيف يغفلون عن كتاب سليمان الذى صدر بها ، وقد حكاه الله فى سورة النمل ، أما كونها من القرآن الكريم فهو مما أجمع عليه لعدم الاختلاف فى كونها جزء آية من سورة النمل ، وقد أخطأ من نسب إلى أبي حنيفة وغيره القول بأنها ليست من القرآن أصلًا ، وممن وقع فى هذه العثرة أبو السعود فى تفسيره ومنشأ الخطأ التباس نفى كونها آية من الفاتحة ومن كل سورة صدرت بها بنفى قرآنيتها مطلقا على أن كتابتها فى صدر السور إلاسورة براءة فى المصحف الإمام بإجماع الصحابة (رضى الله تعالى عنهم) وتناقل الأمة

لذلك جيلًا بعد جيل حجة قاطعة لا تدع مجالًا للريب فى أنها آية من كل السور التى صدرت بها كيف والصحابة (رضى الله عنهم) كانوا أشد ما يكونون حرصا على تجريد القرآن الكريم فى كتابته فى المصاحف من كل ما ليس منه . ولذلك جردوا مصاحفهم من عناوين السور فليس من المعقول أن يزيدوا فى مائة وثلاث عشرة سورة ما ليس منها ، وهذه المسألة قد كثر فيها الأخذ والرّد حتى أن جماعة من العلماء أفردوا لها مؤلفات خاصّة ، وخلاصة مافيها أنهم اختلفوا فيها مع إجماعهم أنها جزء آية من سورة النمل ، فذهب إلى إنها آية من كل سورة صُدرت بها من علماءِ السلف من أهل مكة ، فقهائهم وقرائهم ومنهم ابن كثير وأهل الكوفة ومنهم القارئان المشهوران عاصم والكسائي ، وعُزى إلى على وابن عباس وابن عمر وأبى هريرة من الصحابة ، وإلى سعيد بن جبير وعطاء والزّهرى وابن مبارك من التابعين وهو مذهبنا ومذهب الشافعى فى الجديد وعليه أصحابه ، ونُسب إلى الثورى وأحمد فى أحد قوليه وعليه الإمامية ، وذهب جماعة إلى أنها آية مفردة أنزلت للفصل بين السور وليست من الفاتحة ولا من غيرها ما عدا سورة النمل وهو الذى عليه مالك وغيره من علماء المدينة والأوزاعى وجماعة من علماء الشام ويعقوب من قراء البصرة ، وعليه الحنفية ، وذهب فريق آخر إلى أنها ليست آية مطلقاً من هذه السور ولم تنزل للفصل بينها وإنما هى جزء آية من سورة النمل ونسب هذا القول إلى ابن مسعود وهو رأى لبعض الحنفية ، وقال حمزة من قراء الكوفة إنها آية من الفاتحة دون غيرها وهو رواية عن أحمد ، وتوجد أقوال أخرى هى إلى الشذوذ أقرب منها أنها بعض آية من الفاتحة فقط ، ومنها أنها بعض آية من جميع السور ، ومنها أنها آية من الفاتحة وجزء آية من السور ومنها عكس ذلك ، وهذا الاختلاف استتبع الاختلاف فى قراءتها في الصلاة ، وفى الجهر والإسرار بها كما سنوضحه إن شاء الله ، وحجة القول

الأول ما ذكرناه من إجماع الصحابة واستقراء العمل على كتابتها فى صدر كل سورة إلا سورة التوبة ، و الكتابة حجه معتبرة عند جميع شعوب العالم والمدنية فى العصر الحديث بل الكتابة الرسمية أقوى مايعتمد عليه عندهم كما جاء ذلك في المنار وقد كانت كتابتها فى المصحف الإمام الذى وزعت نسخة فى الأمصار بأمر الخليفة الثالث وعلى مسمع ومرأى من سادات المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان ولم ينكر ذلك أحد منهم وقد كانوا أحذر مايكونون عن إضافة أى شيء إلى القرآن مما ليس منه ، وتوالت من بعدهم أجيال هذه الأمة و كلها مطبقة على كتابتها فى صدر السور وعلى تلاوتها مع القرآن وإن كان منهم من يزعم أنها آية أنزلت بانفراد للفصل بين السور ولايؤثر هذا الزعم فى الإجماع العملى ، ولو أن الناس أنصفوا لكفتهم هذه الحجة عن غيرها ولما أخذوا بالروايات الآحادية الظنية فى مقابل هذه الحجة المتواترة القطعية ولكنهم عولوا على الروايات فسلكوا طرائق قددا ﴿ كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴾ (المؤمنون / ٥٣) ، وأصرح ما اعتمدوا عليه من الرويات حديث أبى هريرة رضى الله عنه عند الربيع وأحمد ومسلم وأبى داود والترمذى والنسائى قال : قال رسول الله ﷺ : « قال الله عز وجل قسمت الصلاة بينى وبين عبدى نصفين ولعبدى ماسأل ، فإذا قال العبد الحمد لله رب العالمين قال الله حمدنى عبدى ، فإذا قال الرحمن الرحيم قال الله أثنى على عبدى ، فإذا قال مالك يوم الدين قال مجدنى عبدى ، وقال مرة فوض إلى عبدى ، وإذا قال إياك نعبد وإياك نستعين قال هذا بينى وبين عبدى ولعبدى ماسأل ، فإذا قال اهدنا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين قال هذا لعبدى ولعبدى ماسأل » ووجه استدلالهم بالحديث عدم ذكر البسملة ، قالوا لو كانت من الفاتحة لذكرت فى الحديث ، وهو كما ترى استدلال سلبي فى مقابلة الإيجابي القطعي

المتواتر وهو إجماع الجميع على كتابتها وتلاوتها فى الفاتحة وغيرها من سور القرآن وأين هذه الحجة السلبية الخفية التي تحمل ضروبا من التأويل من تلك الحجة القطعية الظاهرة التى لا يمكن تأويلها بحـال؟ويكفيك دلالة على ضعف هذه الحجة أن الحديث لم يذكر قسمة الفاتحة بل ذكر قسمة الصلاة والصـلاة تشتمل على أذكار وأفعـال متعددة وعلى قراءة من غير الفاتحة ، وكل هذه الأشياء لم تذكر فى القسمة الواردة فى الحديث ، وإنما ذكرت الفاتحة وحدها ، بل ذكر منها مالا يشاركها فيه غيرها من السور ، والبسملة قد اشتركت فيها السور كلها ما عـدا براءة ، وثم جواب آخر هو أن مافى البسملة من الثناء على الله بوصفه بالرحمة مكرر فى الفاتحة ومذكور فى القسمة فلا يقوى الاستدلال السلبى الذى اعتمدوا عليه على معارضة القطعى ، هذا لو سُلمت المعارضة بين الحديث وما تدل عليه كتابة الفاتحة فى البسملة وغيرها ، وقد علمت أن ليست ثَم معارضة ، وفى هذا يقول السيد محمد رشيد رضا : « إذا كان من علل الحديث المانعة من وصفه بالصحة مخالفة راويه لغيره من الثقات ، فمخالفة القطعى من القرآن للتواتر أولى بسلب وصف الصحة عنه ، على أن هذا الحديث هو المعارض بالأحاديث المثبتة لكون البسملة من الفاتحة » ، وللإمام الفخر فى تفسيره الكبير « مفاتيح الغيب » اعتراض على استدلالهم بهذا الحديث بما جاء من ذكر البسملة فى بعض طرقه ، فقد أخرج الثعلبى بإسناده عن أبى هريرة أن النبي ﷺ قال : « يقول الله تعالى قسمت الصلاة بيني وبين عبدى نصفين ، فإذا قال العبد . بسم الله الرحمن الرحيم ، قال الله سبحانه مجدنى عبدى ، وإذا قال الحمد لله رب العالمين ، قال الله تبارك وتعالى حمدنى عبدى ، وإذا قال الرحمٰن الرحيم ، قال الله عز وجل : أثنى علي عبدى ، وإذا قال مالك يوم الدين ، قال الله : فوض إلي عبدى ، ... إلخ » وتابعه

الإمـــــام العلامة أبو مسلم فى نثاره غير أنا لعدم اطلاعنا على إسناد هذا الحديث عند الثعلبى ، وعدم معرفتنا بصحته لا نستطيع الاعتماد عليه ، ونكتفى بما أسلفنا ذكره فى الإجابة على استدلالهم .

ومما اعتمدوا عليه حديث أبى هريرة عند أحمد وأصحاب السنن أن النبي ﷺ قال : « إن سورة من القرآن ثلاثون آية شفعت لرجل حتى غفر له ، وهى تبارك الذى بيده الملك » ووجه الاستدلال أن سورة الملك هى ثلاثون آية بدون البسملة ، وأجيب بأن البسملة لم تُعد من السورة للإشتراك فيها بينها وبين غيرها ، والمراد بالثلاثين آية الآيات الخاصة بالسورة ويدل على ذلك ما روى عن أبى هريرة أيضا أن سورة الكوثر ثلاث آيات مع أن أحمد ومسلما والنسائى أخرجوا من حديث أنس (رضى الله عنه) قال : بينما رسول الله ﷺ بين أظهرنا فى المسجد إذ أغفى إغفاءة ثم رفع رأسه مبتسما فقلنا ما أضحكك يا رسول الله فقال : « نزلت عليّ آنفا سورة » فقرأ : ﴿ بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ • إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ ﴾ (سورة الكوثر) وهذا الحديث دلالته على أن البسملة من ســورة الكوثر واضحه مع أنها لم تعد من آياتهــا لمـا ذكـر ، فكونها آية من سورة الفاتحة أولىٰ وهو أصح من حديث أبى هريرة فى سورة الملك لأن البخارى أعله بأن عباس الجشمى راويه لا يعرف سماعه عن أبى هريرة ، وتعلقوا بأحاديث عـدم الجهر بالبسملة المروية عن أنس بن مالك قـال : « صليت مع النبي ﷺ وأبي بكـر وعمـر وعثمان فلم أسمـع أحـدا منهم يقـرأ بسم الله الرحمن الرحيم » رواه أحمد ومسلم ، وفى لفظ « صليت خلف النبي ﷺ وخلف أبي بكـر وعمـر وعثمـان فكانوا لا يجهـرون ببسم الله الرحمن الرحيم » رواه أحمـد والنسائى على شرط الصحيح ، وأخرجه ابن حبان والدارقطنى والطحاوى والطبرانى وفى لفظ لابن خزيمة « كانوا يسرون »

ولأحمد ومسلم رواية أخرى بلفظ « صليت خلف النبي ﷺ وأبى بكر وعمر وعثمان وكانوا يستفتحون بالحمد لله رب العالمين لا يذكرون بسم الله الرحمن الرحيم فى أول قراءة ولا فى آخرها » ولعبد الله بن أحمد فى مسند أبيه عن شعبة عن قتادة عن أنس « صليت خلف رسول الله ﷺ وخلف أبى بكر وعمر وعثمان فلم يكونوا يستفتحون القراءة ببسم الله الرحمن الرحيم » قال شعبة فقلت لقتادة أنت سمعته من أنس ؟ قال نعم نحن سألناه عنه ، وللنسائى عن منصور بن زاذان عن أنس قال صلى بنا رسول الله ﷺ فلم يسمعنا قراءة بسم الله الرحمن الرحيم ، وصلى بنا أبو بكر وعمر فلم نسمعها منهما » وأنت ترى هذه الروايات عن أنس لا تخلو من اضطراب فتجدها تارة نافية لقراءة البسملة وتارة نافية للجهر بها وأخرى نافية لسماعها ، ومثل هذا الاختلاف لا تنهض به حجة كما صرح بذلك ابن عبد البر في(الاستذكار)وهو من أجل أئمة المالكية ، والمالكيون لا يرون قراءة البسملة في الصلاة فضلا عن الجهر بها ، وهذه المسألة أى مسألة الإسرار والجهر بالبسملة أو تركها رأسا مما وقع فيه الخلاف واضطربت فيه الروايات عن الصحابة والتابعين فنجد الصحابي يروى عنه الجهر والإسرار بها ولم نجد أحدا من الصحابة روي عنه الإسرار وحده إلا ابن مسعود رضي الله عنه ، وممن روي الجهر بها عنهم في حال الجهر بالقراءة أبو بكر الصديق وعمر بن الخطاب وعثمان بن عفان وعلي بن أبي طالب وابن عمر وابن الزبير وابن عباس وعمار بن ياسر ، وأبى بن كعب وأبو قتادة وأبو سعيد وأنس وعبد الله بن أبي أوفى وشداد بن أوس وعبد الله بن جعفر والحسين بن علي ومعاوية ، وذكر الشوكاني في (نيل الأوطار) عن الخطيب أن من قال بالجهر بها من التابعين أكثر من أن يذكروا وأوسع من أن يحصروا منهم سعيد بن المسيب وطاوس وعطاء ومجاهد وأبو وائل وسعيد بن جبير وابن سيرين وعكرمة وعلى بن

الحسين وابنه محمد بن علي وسالم بن عبد الله بن عمر ومحمد بن المنكدر وأبو بكر بن محمد بن عمرو بن حزم ومحمد بن كعب ونافع مولى ابن عمر وأبو الشعثاء وعمر بن عبد العزيز ومكحول وحبيب بن أبي ثابت والزهرى وأبو قلابة وعلى بن عبد الله بن عباس وابنه والأزرق بن قيس وعبد الله بن معقل بن مقرن ، وممن بعد التابعين عبيد الله العمـــرى والحسن بن زيد وزيد بن على ابن الحسين ومحمد بن عمر بن علي وابن أبي ذئب والليث بن سعد وإسحاق بن راهويه ، وزاد البيهقي في التابعين عبد الله بن صفوان ومحمد بن الحنفية وسليمان التيمى ، ومن تابعيهم المعتمد ابن سليمان ، وذكر البيهقى في الخلافيات أنه اجتمع آل رسول الله ﷺ على الجهر ببسم الله الرحمن الرحيـم ، ويؤيده ما جاء فى كتب العترة وهو الذى عليه الشافعى وأصحابه واتفق عليه أصحابنا ، وذكر الخطيب عن عكرمة أنه كان لا يصلى خلف من لايجهر بالبسملة ، ويرى جماعة من العلماء الإسرار بها وهو المعمول به عند الحنفية والحنابلة ، وقد روى عن جماعة من السلف من الصحابة والتابعين ، ومالك لايرى قراءتها سراً ولا جهراً ونُقل عنه قراء تها فى النوافل فى فاتحة الكتاب وسائر القران ، ومنهم من يرى جواز الجهر والإسرار بها حكاه القاضى أبو الطيب الطبرى عن ابن أبى ليلى ، وإذا تدبرت مجموع الروايات استطعت أن تستخلص منها صحة القول بالجهر ، فقد أخرج الإمام الشافعى بإسناده عن أنس بن مالك رضي الله عنه : قال صلى معاوية بالناس فى المدينة صلاة جهر فيها بالقا اءة ، فلم يقرأ بسم الله الرحمن الرحيم ، ولم يكبر في الخفض والرفع فلما فرغ ناداه المهاجرون والأنصار يامعاوية نقصت الصلاة ــ وفي رواية سرقت الصلاة ــ أين بسم الله الرحمن الرحيم ؟ وأين التكبير إذا خفضت وإذا رفعت ؟ فكان إذا صلى بهم بعد ذلك قرأ بسم الله الرحمن الرحيم وكبر . والحديث صحيح الإسناد كما أوضح العلامة المحدث

أحمد محمد شاكر في شرحه وتحقيقه لسنن الترمذى ، وأخرجه الحاكم في المستدرك وقال صحيح على شرط مسلم . فأت ترى كيف اجتمعت كلمة المهاجرين والأنصار على إنكار عدم الجهر بالبسملة على معاوية بن أبى سفيان مع شدة بطشه وقوة شكيمته وليس ذلك إلا لتركه واجبا لا يصح التساهل فيه ، والحديث ظاهر في أن العمل عند الصحابة رضي الله عنهم قد استقر على الجهر بالبسملة وإلا فكيف يعرفون أن لم يقرأها رأسا لو كانت مما يخفت في الصلاة وفي هذا الحديث ما يرد على دعوى ابن العربى والقرطبى في انتصارهما لمذهبهما المالكي في عدم قراءة البسملة في الصلاة بأن ذلك قد استقر عليه العمل في مسجد رسول الله ﷺ جيلا بعد جيل من عهد النبي ﷺ إلى زمن مالك ولعمرى إن هذه الدعوى لبعيدة المنال ، فإن حادثة المهاجرين والأنصار مع معاوية كانت بمدينة الرسول ﷺ ولا يبعد أن تكون في مسجده الشريف ، فمن أين لابن العربي والقرطبى استقرار العمل في المسجد النبوى على عدم قراءتها .

هذا وقد حاول جماعة الجمع بين روايات أنس المختلفة بأن المقصود من قوله « كانوا لا يذكرون بسم الله الرحمن الرحيم » عدم جهرهم بها كما صرح بذلك في رواية « كانوا لا يجهرون » ، وأن المقصود بقوله « كانوا يستفتحون بالحمد لله رب العالمين » الاستفتاح بهذه السورة بما فيها البسملة على أن أنسا رضي الله عنه قد رُوى عنه عدم حفظه لقراءة النبي ﷺ فيما رواه الدار قطنى وصححه عن أبى سلمه قال :ـ سألت أنس بن مالك أكان رسول الله ﷺ يستفتح بالحمد لله رب العالمين أو « ببسم اللهالرحمن الرحيم » ؟ فقال : إنك سألتنى عن شيء ما أحفظه ، وما سألني عنه أحد قبلك ، فقلت أكان رسول الله ﷺ يصلي في النعلين ؟ قال نعم ، وذكر الشوكاني في « نيل الأوطار » أن عروض النسيان في مثل هذا غير مستنكر ،

فقد حكى الحازمي عن نفسه أنه حضر جامعا وحضره جماعــة من أهل التمييز المواظبين في ذلك الجامع ، فسألهم عن حال إمامهم في الجهروالإخفات ــ قال : وكان صيتا يملأ صوته الجامع ــ فاختلفوا في ذلك ، فقال بعضهم يجهر وقال بعضهم يخفت ، وعقب على ذلك السيد محمد رشيد رضا في«المنار» بأن اختلاف هؤلاء المصلين لم يكن في صلاة واحدة بل في جميع الصلوات ورد ذلك إلى الغفلة والناس عرضة لها لا سيما الغفلة عن أول الصلاة وعلل ذلك باشتغال الناس عن مراقبة قراءة الإمام بالدخول في الصلاة وقراءة دعاء الافتتاح وحمل عليه روايات أنس في عدم الجهر بالبسملة أو عـدم سماعها، إذ يرى السيد رشيد رضا مرد ذلك إلى بعد أنس عن الصفوف القريبة من الإمام واشتغاله بدعاء الافتتاح والإحرام فلذلك لم يسمع البسملة من الرسول ﷺ وخلفائه الثلاثة مع أنه من العادة أن يكون صوت القارىء خافتا في أول القراءة ، و رأى كل من الحافظ ابن حجر والشوكانى أن الرواية إثبات الجهر إذا وجدت قدمت على نفيه ، لا بمجرد تقديم رواية المثبت على النافى كما هي القاعدة ، لأن أنساً يبعد جداً أن يصحب النبي ﷺ مدة عشر سنين ويصحب أبا بكر وعمر وعثمان فلا يسمع منهم الجهر فى صلاة واحدة بل لكون أنس اعترف بأنه لا يحفظ هذا الحكم كأنه لبعد عهده به لم يذكر منه إلا الجزم بالافتتاح بالحمد لله جهرا فلم يستحضر الجهر بالبسملة فيتعين الأخذ بحديث من أثبت الجهر وهما يشيران بهذا إلى سؤال أبي سلمة أنس بن مالك عما كان رسول الله يستفتح به قراءته وقد سلف ذكره ، وأنس بن مالك هو نفسه الذى روى قصة المهاجرين والأنصار مع معاوية وإنكارهم عليه عدم قراءته البسملة الذى استدلوا عليه بعدم جهره بها

وروى البخاري عن أنس أنه سئل كيف كانت قراءة النبي ﷺ فقال كانت مـدا ثم قـرأ بسم الله الرحمن الرحيم يمد ببسم الله ويمد بالرحمن ويمد

بالرحيم ، وهو واضح في جهر رسول الله ﷺ بالبسملة .

وبما تعلق به القائلون بعدم كونها آية من الفاتحة حديث عبد الله ابن مغفل عند الخمسة إلا أبا داود قال سمعني أبى وأنا أقول بسم الله الرحمن الرحيم فقال يابني إياك والحدث ــ قال ولم أر من أصحاب رسول الله ﷺ رجلا كان أبغض إليه الحدث في الإسلام منه ــ فإني صليت مع رسول الله ﷺ ومع أبي بكر ومع عمر ومع عثمان فلم أسمع أحداً منهم يقولها فلا تقلها إذا أنت قرأت فقل الحمد لله رب العالمين .. والحديث معلول بعبد الله بن مغفل فإنه مجهول لا يعرف ولم يروِ عنه إلا أبو نعامة وإن صح فهو محمول على ما حملت عليه أحاديث أنس .

الدليل على كون البسملة من الفاتحة:ــ

أما أدلة إثبات كون البسملة من الفاتحة ، وإثبات الجهر بها فكثيرة قد تقدم ذكر بعضها من رواية أنس رضى الله عنه نفسه ، وذكر الفخر الرازى في تفسيره لذلك سبع عشرة حجة منها القوي ومنها الضعيف ، وتابعه على الاستدلال بها العلامة أبو مسلم في نثاره وحاول العلامة الألوسي نقض هذه الحجج حجة حجة انتصارا لمذهبه الجديد الذى انتقل إليه ، وأبدى السيد محمد رشيد رضا في تفسيره المنار استغرابه الشديد من صنيع الألوسي الذى حاول بكل وسيلة هدم الحجج الشامخة البنيان ، المتينة الأركان من غير داع لذلك إلا التعصب المذهبي ، على أن الألوسي نفسه كان من قبل شافعي المذهب ولكنه اتبع مذهب الأحناف تقربا إلى الدولة العثمانية حسبما يقول السيد رشيد رضا ، وسوف أورد(إن شاء الله)بعض هذه الحجج التي أراها صالحة للاحتجاج بها ، وأذكر صورة من محاولة الألوسي لنقضها كما أضم إليها بعض الحجج الأخرى .

منها حديث أبي هريرة الذى أخرجه الطبرانى وابن مردويه والبيهقي بلفظ « الحمد لله رب العالمين سبع آيات بسم الله الرحمن الرحيم إحداهن وهى السبع المثانى والقرآن العظيم وهى أم القرآن ، وهى فاتحة الكتاب » وأخرجه الدارقطنى بلفظ « إذا قرأتم الحمد لله فاقرأوا بسم الله الرحمن الرحيم أنها أم القرآن وأم الكتاب والسبع المثانى وبسم الله الرحمن الرحيم إحدى آياتها » والحديث واضح في أن البسملة من الفاتحة ، ولكن الألوسي حاول قلب هذه الدلالة الواضحة فقال مامعناه إن المراد من الرواية الأولى أن الحمد لله رب العالمين إلى آخرها سبع آيات كما يقول الحنفية ، وقوله ﷺ « بسم الله الرحمن الرحيم إحداهن » أراد به إزالة توهم كونها ليست من القرآن لعدم تعرضه لها ، وقد جاءت عبارته بأسلوب التشبيه البليغ ومراده أنها كإحدى آياتها في كونها من القرآن ، وكذلك قوله في الرواية الأخرى « وبسم الله الرحمن الرحيم إحدى آياتها » وأنت ترى أن في هذا الكلام صرفا للعبارة عن ظاهرها وخروجا بالحديث عن دلالته الواضحه فالنبي ﷺ أراد التأكيد على أن البسملة من الفاتحة ، وقوله « الحمد لله رب العالمين » علم على هذه السورة ، فما الذى يدعو إلى زعم أن البسملة ليست بآية منها مع هذا التصريح في كلامه عليه أفضل الصلاة والسلام بأنها إحدى آياتها ، وما الداعي لتقدير أداة التشبيه ، ولو كان المراد التشبيه لذكرت أداته لدفع اللبس فإن حذفها لا يكون إلا مع الأمن منه ، وفي هذا مايكفي المستفيد دلالة على طريقة الألوسي في الرد على خصمه الرازى في هذه المسألة .

ومنها مارواه الشافعي عن ابن جريج عن أبي مليكه عن أم سلمة أنها قالت :« قرأ رسول الله ﷺ فاتحة الكتاب فعد « بسم الله الرحمن الرحيم » آية ، « الحمد لله رب العالمين » آية ، « الرحمن الرحيم » آية ، « مالك يوم الدين » آية ، « إياك نعبد وإياك نستعين » آية ، « اهدنا الصراط

المستقيم » آية ، « صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين » آية . وهذا نص صريح ، وجاء هذا الحديث عند أحمد وأبي داود بلفظ : « سُئلت أم سلمة عن قراءة رسول الله ﷺ ، فقالت كان يقطع قراءته آية آية ، بسم الله الرحمن الرحيم ، الحمد لله رب العالمين ، الرحمٰن الرحيم ، مالك يوم الدين ، » وفي لفظ ابن الأنباري والبيهقي : « كان إذا قرأ قطع قراءته آية آية ، يقول بسم الله الرحمٰن الرحيم ثم يقف ، ثم يقول الحمد لله رب العالمين ثم يقف ، ثم يقول الرحمٰن الرحيم ثم يقف ، ثم يقول مالك يوم الدين » وفي رواية الدارقطني عن ابن أبي مليكه عن أم سلمة رضى الله عنها أيضا أن النبي ﷺ كان يقرأ الحمد لله رب العالمين ، الرحمٰن الرحيم ، مالك يوم الدين ، إياك نعبد وإياك نستعين ، إهدنا الصراط المستقيم ، صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين ، فقطعها آية آية ، وعدها عد الأعراب ، وعد (بسم الله الرحمن الرحيم) آية ، ولم يعد (عليهم) » قال اليعمرى : رواته موثقون ، وأخرجه أيضا ابن خزيمة والحاكم ، وفي إسناده عمر بن هارون البلخى : ضعفه الحافظ لكنه وثق عند غيره ، وغاية ما تشبث به الألوسي في الاعتراض على هذا الدليل أمران أحدهما عدم ثبوت سماع أبي مليكه عن أم سلمه رضي الله عنها ، ثانيهما أن غاية ما في الروايات قراءة النبي ﷺ البسملة مع الفاتحة وهو دليل قرآنيتها لا دليل كونها من الفاتحة والجواب عن الاعتراض الأول بأن الذين أعلوا الحديث بالانقطاع كالطحاوى استدلوا برواية الليث عن ابن أبى مليكه عن يعلى بن مالك عن أم سلمه ، ورد عليهم الحافظ بأن هذا الذى أُعل به ليس بعله فقد رواه الترمذى من طريق ابن أبى مليكه عن أم سلمة بلا واسطة وصححه ورجحه على الإسناد الذى فيه يعلى بن مُملّك ، ويريد الحافظ بذلك رواية الترمذى للحديث وتصحيحه له في باب فضائل القرآن مع العلم أن الترمذى ذكر في

باب القراءة أن إسناده ليس بمتصل ، ولعل التصحيح لأجل الاتصال وعدم التصحيح في الرواية غير المتصلة كما يقول الشوكاني في « نيل الأوطار » .

والجواب عن الاعتراض الثاني أن دعوى كون البسملة آية من القرآن بانفراد ليست من الفاتحة محتاجة إلى دليل ، إذ لو كانت كذلك لبينه رسول الله ﷺ ، ومداومته قراءتها مع الفاتحة باستمرار من غير أن يبين للناس استقلالها عنها دليل على أنها جزء منها ، وهذه الروايات عن أم سلمة تدل على جهر النبي ﷺ بالبسملة وإلا فمن أين لها أن تصف قراءته لها لو أنه كان يخفيهـــا ؟ .

ومنها حديث أبي هريرة عند النسائي قال نعيم المجمر صليت وراء أبي هريرة فقرأ « بسم الله الرحمن الرحيم » ثم قرأ بأم القرآن ـــ وفيـــه ـــ ويقول إذا سلم : والذى نفسي بيـده إني لأشبهكم صلاة برسول الله ﷺ . وقد صحح هذا الحديث ابن خزيمة وابن حبان والحاكم وقال على شرط البخاري ومسلم ، وقال البيهقي صحيح الإسناد وله شواهد وقال أبو بكر الخطيب فيه ثابت صحيح لا يتوجه إليه تعليل .

ومنها حديث أبي هريرة أيضا عند الدارقطني عن النبي ﷺ كان إذا قرأ وهو يؤم الناس افتتح ببسم الله الرحمن الرحيم . قال الدارقطني رجال إسناده كلهم ثقات ، وقال الشوكاني إن في إسناده عبد الله بن عبد الله الأصبحي ، روي عن ابن معين توثيقه وتضعيفه .

ومنها حديث علي كرم الله وجهه أن النبي ﷺ كان يقرأ بسم الله الرحمن الرحيم في صلاته . أخرجه الدارقطني وقال هذا إسناد علوى لا بأس به ، وهو وإن أعله الحافظ بأنه بين ضعيف ومجهول يعتضد بالروايات الأخرى التي في معناه ، على أن الدارقطني أخرج عنه بإسناد رجاله كلهم ثقات أنه سئل عن السبع المثاني فقال : الحمد لله رب العالمين قيل إنما هي ست فقال

بسم الله الرحمن الرحيم .. وأخرج الدارقطني عنه وعن عمار بن ياسر أن النبي ﷺ كان يجهر في المكتوبات ببسم الله الرحمن الرحيم ، وهو مع ضعف إسناده يعتضد متنه ببقية المتون .

ومنها حديث سمره قال كان للنبي ﷺ سكتتان . سكتة إذا قرأ بسم الله الرحمن الرحيم ، وسكتة إذا فرغ من القراءة .. فأنكر ذلك عمران بن الحصين فكتبوا إلى أبي بن كعب فكتب أن صدق سمره . أخرجه الدارقطني بإسناد جيّد ولا ينافيه ما أخرجه الترمذي وأبو داود وغيرهما عنه بلفظ سكتة حين يفتتح ، وسكتة إذا فرغ من السورة لأن المبين مقدم على المجمل .

ومنها حديث أنس قال : سمعت رسول الله ﷺ يجهر ببسم الله الرحمن الرحيم . أخرجه الحاكم وقال رواته كلهم ثقات . وأخرجه الدارقطني عنه بلفظ : كان النبي ﷺ يجهر بالقراءة ببسم الله الرحمن الرحيم ، وله طريق أخرى عن أنس عند الدارقطني والحاكم بمعناه . ونحوه عن عائشة رضى الله تعالى عنها من طرق يشد بعضها بعضا .

ومن العجيب أن يزعم القرطبي أن هذه الروايات ليست فيها حجة لأنها آحادية والقرآن لا يثبت بأخبار الآحاد وإنما طريقه التواتر القطعي الذي لا يختلف فيه ، وقد فات القرطبي أن هذه الروايات إنما هي حجة تثبت كيفية قراءة النبي ﷺ لها ، وتؤكد من ناحية أخرى حجية قرآنيتها ، وكونها جزءًا من سورة الفاتحة ، أما أصل ثبوت قرآنيتها وكونها من الفاتحة فمن النقل للتواتر لها في المصاحف التي نقلتها هذه الأمة جيلا بعد جيل مجمعة على صحتها ولو كان ثبوت قرآنية البسملة متوقفا على تواتر أحاديث تُروى عن النبي ﷺ تنص على أنها من الفاتحة أو من القرآن لتوقف ثبوت قرآنية أية آية من أية سورة على مثل ذلك وأنّي لأحد بذلك؟وإنما ثبتت قرآنية البسملة بنفس ما ثبتت به قرآنية بقية الآيات وهو إثباتها في المصحف الإمام بإجماع

الصحابة رضى الله عنهم ، وتواتر النقل جيلا بعد جيل لكل ما اشتمل عليه ذلك المصحف من سور وآيات بما في ذلك البسملة ، وأعجب من كلام القرطبي قول ابن العربي : « ويكفيك أنها ليست من القرآن اختلاف الناس فيها والقرآن لا يُختلف فيه ، وهو مقال في منتهى الخطورة لمصادمته الإجماع القطعي ، فإن البسملة مجمع على أنها جزء آية من سورة النمل ، ولا يصح سلب شيء من سور القرآن صفة القرآنية بحال ، ولو جاز ذلك لجاز أن تسلب آية الكرسي أو غيرها صفة القرآنية في بعض المواضع .

ولعل من أحسن ما قيل في هذا الموضوع ما قاله السيد محمد رشيد رضا في تفسيره « المنار » : إن اختلاف الروايات الآحادية في الإسرار بالبسملة والجهر بها قوى ، وأما الاختلاف في كونها من الفاتحة أو ليست منها فضعيف جداً جداً ، وإن قال به بعض كبار العلماء ذهولا عن رسم المصحف الإمام القطعي للمتواتر ، والقراءات المتواترة التي لا يصح أن تعارض بروايات آحادية أو بنظريات جدلية ، وأصحاب الجدل يجمعون بين الغث والسمين ، وبين الضدين والنقيضين ، وصاحب الحق منهم يشتبه بغيره وربما يظهر عليه المبطل بخلابته إذا كان الحن بحجته » وهو كلام نفيس جداً ، وقد قال قبله : « ولا يغرن أحدا قول العلماء إن منكر كون البسملة من الفاتحة أو من كل سورة لا يكفر ومثبتها لا يُكفر ، فيظن أن سبب هذا عدم ثبوتها بالدليل القطعي ، كلا إنها ثابتة ولكن منكرها لا يكفر لتأويله الدليل القطعي بشبهة المعارضة التي تقدمت وبيّنا ضعفها وسنزيده بيانا والشبهة تدر أحد الرده » وأنكر على الألوسي دعواه أن ثبوت البسملة بخط المصحف المتواتر دليل على كونها من القرآن دون كونها من الفاتحة وقال : هو من تمحل الجدل فلا معنى لكونها آية مستقلة في القرآن ألحقت بسوره كلها إلا واحدة وليست في شيء منها ولا في فاتحتها التي اقتدوا بها في بدء كتبهم كلها ، إنه

لقول واهٍ تبطله عباداتهم وسيرتهم ، وينبذه ذوقهم لولا فتنة الروايات والتقليد. فتعارض الروايات اغتربه أفراد مستقلون ، وبالتقليد فتن كثيرون ﴿ ولله في خلقه شئون ﴾ وأبدى السيد رشيد رضا استغرابه من اضطراب الألوسي في هذه المسألة ، فقد حكم وجدانه ، واستفتى قلبه في بعض فروعها فأفتاه بوجوب قراءة الفاتحة والبسملة في الصلاة ،وخالفه في كونها آية منها ، وقال لا ينبغي لمن وقف على الأحاديث أن يتوقف في قرآنيتها أو ينكر وجوب قراءتها ويقول بسنيتها ، فوالله لو ملئت لي الأرض ذهبا لا أذهب إلى هذا القول ، وإن أمكنني بفضل الله توجيهه ، كيف وكتب الحديث ملأى بما يدل على خلافه وهو الذي صح عندي عن الإمام ـــ يعني إمامه أبا حنيفة ـــ وأبدى الألوسي استشكالا في حاشيته على تفسيره ووصفه بأنه إشكال كالجبل العظيم ، وأجاب عنه بما لا يروي من ظمأ ولا يشبع من مسغبه ، ووجه الإشكال أن القرآن لا يثبت بالظن ولا يُنفي به ، فكيف يمكن الجمع بين إثبات المثبتين ونفي النافين للبسملة ، وحكى إجابة ارتضاها عن هذا الإشكال ملخصها أن حكم البسملة كحكم الحروف المختلف فيها بين القرّاء السبعة ، فهي قطعية الإثبات والنفي معاً ، ولهذا اختلف القرّاء فأثبتها بعض وأسقطها آخرون وإن اجتمعت المصاحف على الإثبات ومثل لذلك بالصراط ومصيطر فقد قُرِءا بالسين ولم يُكتبا إلا بالصاد ، وبقوله تعالى : ﴿ وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ ﴾ (سورة التكوير / ٢٤) فإنه كتب بالضاد وقُرىء بها وبالظاء ، وأطال السيد محمد رشيد رضا في الرّد عليه وتفنيد كلامه ومما قاله « إن الإشكال الذي نظر إليه المفسر بعيني التقليد العمياوين فرآه كالجبل العظيم هو في نفسه صغير حقير ، ضئيل قميء ، خفي كالذرة من الهباء ، أو كالجزء لا يتجزأ من حيث كونه لا يُرى ولا يثبت إلا بطريقة الفرض أو كالعدم المحض ، ثم أخذ يجيب عن الإشكال الذى فرضه الألوسي وملخص

جوابه أنه لم ينفِ أحدٌ من القرّاء كون البسملة من الفاتحة نفيا صريحا تعضده رواية متواترة عن النبي ﷺ ، وإنما كل ما يتعلق به النافون شبهة عدم رواية بعض القرّاء لها وشبهة تعارض الروايات الآحادية السالفة الذكر ، وثبوتها قطعي بالروايات المتواترة تواتر سائر آيات الفاتحة ، وعدم نقل الإثبات للشيء ليس نفيا له رواية ولا دراية ، وقد فرق العلماء بين عدم إثبات الشيء وبين إثبات عدمه كما هو معلوم بالضرورة ، ولو فُرض أنه رُوى التصريح بالنفي لكان الواجب الجزم ببطلان هذه الرّواية ، ومنشؤه التباس نفي الإثبات بإثبات النفي لاستحالة كون المتناقضين قطعيين معاً ، ورواية الإثبات لا يمكن فيها الطعن ، كيف وقد عززت بخط المصحف الذي هو بتواتره خطا وتلقينا أقوى من الروايات القولية ، وأعصى على التأويل والاحتمال ، ثم ردّ السيد محمد رشيد رضا على القائلين بأنها آية مستقلة بين كل سورتين للفصل بينهما ما عدا الفصل بين سورتي الأنفال وبراءة ، وملخص رده أنه مجرد رأي أريد به الجمع بين الروايات الآحادية الظنية المتعارضة ، والجمع بغيره مما لا إشكال فيه ممكن ، فلو كان المراد بها الفصل بين السور لم توضع في أول الفاتحة وهي أول القرآن ترتيبا ، ولم تحذف من أول براءة لوجود العلة المقتضية للإثبات ، ثم تعقب الجواب الذي نقله الألوسي وقال : لا يستغرب صدوره ولا إقراره ممن يثبت الجمع بين النقيضين المنطقيين ، ويفتخر بأنه يمكنه توجيه ما يعتقد بطلانه على أنه جواب عن إشكال غير وارد ، وبعبارة أخرى ليس جوابا عن إشكال إذ لا إشكال ، ثم قال عن الخلاف بين القرّاء في مثل السراط والصراط ومسيطر ومصيطر وضنين وظنين إنه ليس خلافا بين النفي والإثبات كمسألة البسملة بل هي قراءات ثابتة بالتواتر فأما ضنين وظنين فهما قراءتان متواترتان ــ كمالك وملك في الفاتحة ــ كتبت قراءة الضاد في مصحف أُبَى وهو الذي وُزع في الأمصار وقرأ بها الجمهور ،

وقراءة الظاء في مصحف عبد الله بن مسعود وقرأ بها ابن كثير وأبو عمرو والكسائي ، ولكل منهما معنى ، وليستا من قبيل تسهيل القراءة لقرب المخرج ثم قال عن السراط والصراط ومسيطر ومصيطر لا فرق بينهما إلا تفخيم السين وترقيقه وبكل منهما نطق بعض العرب ، وثبت به النص فهو من قبيل ما صح من تحقيق الهمزة وتسهيلها ، ومن الإمالة وعدمها فلا تنافي بين هذه القراءات فيعد إثبات إحداهما نفيا لمقابلتها كما هو بديهي على أن خط المصحف أقوى الحجج ، فلو فرضنا تعارض هذه القراءات لكان هو المرجح ولكن لا تعارض ولله الحمد .

هذا ما قاله السيد رشيد رضا في هذه المسألة وهو ناتج عن عمق فهمه وتوقد ذكائه ولعل الذين يقولون أن البسملة أنزلت للفصل بين السور يستدلون بما أخرجه أبو داود والحاكم وصححه على شرط الشيخين عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : كان رسول الله ﷺ لا يعرف فصل السورة ــ وفي رواية انتهاء السورة ــ حتى ينزل عليه « بسم الله الرحمن الرحيم » .

ولكن ليس في الحديث ما يدل على أنها تنزل استقلالا للفصل وإنما غاية ما فيه أن كل سورة تنزل كانت تصدر بالبسملة فيستدل بذلك النبي ﷺ على انتهاء السورة التي قبلها واستقباله سورة جديدة تنزل بعدها ، ولو كانت لمجرد الفصل لما أثبتت في أول الفاتحة ــ كما ذكرناه عن صاحب المنار ــ لعدم تقدمها بسورة قبلها .

هذا ويرى جماعة من العلماء الجمع بين روايات الجهر والإخفاء بما رواه الطبراني في الكبير والأوسط عن سعيد بن جبير عن ابن عباس أن النبي ﷺ كان يجهر ببسم الله الرحمن الرحيم وكان المشركون يهزأون بمكاء وتصدية ويقولون محمد يذكر إله اليمامة ــ وكان مسيلمة الكذاب يسمى « رحمن »

ـــ فأنزل الله تعالى ﴿ وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ ﴾ فتسمع المشركين فيهزءوا بك « ولا تخافت بها » عن أصحابك فلا تسمعهم .. وقد قال في مجمع الزوائد إن رجاله موثقون ، وقال الحكيم الترمذي : فبقي ذلك إلى يومنا هذا على ذكر الرسم وإن زالت العلة ، واعتمده القرطبي والنيسابوري في الجمع بين الروايات ، ويرى السيد محمد رشيد رضا أن ترك الجهر كان في أول الإسلام بمكة وأوائل الهجرة ، والجهر فيما بعده ، وفي نفسي من هذه الرواية ما يجعلني غير واثق من صحتها وذلك لأمرين :

أولهما أن مسيلمة الكذاب لم يشتهر قبل الهجرة ولا فى أوائلها ، وإنما اشتهر بالتنبؤ بعد ذلك ، وعندئذ لقب برحمن اليمامة فيبعد أن يستخف المشركون بمكة المكرمة بقراءة النبي ﷺ عندما يسمعونه يذكر الرحمن ، معلقين عليه بأنه يقصد مسيلمة .

ثانيهما : لو كان صنيع المشركين هذا داعيا إلى إخفاء البسملة لئلا يسمعوا اسم « الرحمن » فيهزأوا به لكان ذلك يستدعى إخفاء هذا الاسم في كل آية من الكتاب بما في ذلك قول الحق تعالى في الفاتحة « الرحمن الرحيم » ولم يذكر عن النبي ﷺ أنه كان يتجنب إعلان اسم الرحمن خشية استخفاف المشركين على أن هذا الاسم الكريم كثيرا ما كان يرد في القرآن المكي كقوله تعالى في سورة الإسراء : ﴿ قُلِ ٱدْعُوا اللهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمٰنَ ﴾ وقوله في « طه » ﴿ الرَّحْمٰنُ عَلَى الْعَرْشِ ٱسْتَوَى ﴾ وقوله في الفرقان ﴿ الرَّحْمٰنُ ، فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيرًا ، وَاذَا قِيلَ لَهُمُ اسْجُدُوا لِلرَّحْمٰنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمٰنُ ﴾ (الفرقان / ٥٩ ، ٦٠) وقوله في سورة الرحمن ﴿ الرَّحْمٰنُ عَلَّمَ الْقُرْآنَ ﴾ (الرحمن / ١ ، ٢) .

وإذا اتضح لك أن الراجح كون البسملة آية من الفاتحة ومن سائر السور إلا براءة ، ووجوب تلاوتها في الصلاة مع الجهر بها في القراءة الجهرية

فاعلم أنه لم يقل أحد من أصحابنا ولا من غيرهم بتكفير أو تفسيق المخالف في هذه المسألة ، والذين يقولون بخلاف قولنا يتفقون معنا على عدم تكفير أو تفسيق من يخالفهم اللّهم إلا ما يذكر عن أبي بكر الرازي من أن أقل ما في المسألة تفسيق المخالف وقد رد عليه العلامة أبو مسلم رحمه الله في (نثاره) بما يكفي حجة للمستبصر .

من فوائد افتتاح الأعمال باسم الله

والافتتاح ببسم الله الرحمن الرحيم فيه تعليم للناس بأن يفتتحوا أعمالهم ببسم الله ، وهذا يعني أن تكون أفعالهم في حدود شرع الله لا تتجاوزه فتبقى دائرة في حدود الواجب والمندوب والمباح ، كما أن في ذلك تعليما للناس بأن أعمالهم كلها لازنة لها في كفة الدين ما لم يقصد بها وجه الله سبحانه ، والعبد عندما يفتتح أي عمل باسم الله يشعر أن عمله محكوم بشرع الله فليس له أن يتصرف كما يملي عليه هواه ، وقدشهرعندالناس الافتتاح بأسماء الأشخاص والمؤسسات لقصد التنويه بها والإشادة بذكرها والإشعار بأن العَمل المفتتح ذو صلة بالمؤسسات أو الأشخاص المذكورة أسماؤهم ، والمسلم عندما يفتتح باسم الله يعلن شرعيه عمله وهذا يتضح في مشروعية ذكر اسم الله عند الذبح ، لأن ذبح الحيوان إيلام له وهو قبيح في العقل ، لولا أن الله سبحانه خالق الحيوان ومالكه أباح في شرعه ذبح بعض الحيوانات والانتفاع بلحومها ، فالذابح عندما يذكر اسم الله يعلن أن ذبحه لم يكن تعديا من قبل نفسه وإنما هو بمقتضى الإباحة الشرعية ممن خلقه وخلق ذلك الحيوان .

مباحث العلماء في البسملة

وفي قول الحق سبحانه ﴿بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ﴾ مباحث كثيرة عني بها المفسرون في تفاسيرهم بحسب اختلافهم في العلوم التي يعنون بها ،

فالنحويون تهمهم المباحث الإعرابية ، والبلاغيون يعتنون بالمباحث البيانية ، والفقهاء يعتنون بمسائل الفقه ، وأول ما بدىء به «الباء» وهي تأتي لمعان ليست كلها سائغة هنا وإنما يسوغ منها معنيان وهما الاستعانة والمصاحبة ..أما الاستعانة فقد رجحها طائفة من المفسرين والنحويين منهم الزمخشري وعولوا على مجموعة من الحجج منها حديث (باسم الله الذي لايضر مع اسمه شيء) ، وتكلف الألوسي رد جميع حجج هؤلاء حجة حجة والانتصار لقول الفريق الأول ولست أجد كبير فائدة في هذا الاختلاف حتى أبحث ما هو الراجح من الرأيين ؟ وإنما أتعجب من القرطبي في زعمه أن الباء للقسم ، وأن المقسم عليه أن كل ما جاءت به السورة التي تلي البسملة هو حق من عند الله ، وأعجب منه نسبة القرطبي هذا القول إلى العلماء مع أنه نفسه حكى الاختلاف في متعلق الباء هل هو خاص أو عام وهو مما ينافي كونها للقسم على أنه يتبادر للإنسان حالما يتلو بسم الله الرحمن الرحيم أن المراد بها غير القسم ، وحاصل الاختلاف في متعلق الباء أن بعض العلماء يراه خاصا توحي به قرائن الأحوال فالقارىء عندما يتلو «بسم الله» يقصد أقرأ باسم الله ، والذابح يقصد كذلك أذبح باسم الله ، والداخل يقصد أدخل باسمه ، والخارج يقصد أخرج باسمه ، وهكذا في الكاتب ، والمسافر ، وكل من يعمل عملا يبتدئه باسم الله تعالى ، وبعضهم يراه عامًّا ويقدره «أبتدىء» سواء في القراءة أو الكتابة أو الذبح أو أي شيء آخر ، والذين يقدرونه خاصًّا يستدلون له بالتصريح به في قول الله تعالى:ـــ ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ﴾(العلق/١)وأنت ترى أن كلا الوجهين ينافيان ماذكره القرطبي من أن الباء للقسم ، ولو كانت للقسم لقُدر المتعلق إما أُقسم أو أحلف ، ولم يذكر شيئا من ذلك القرطبي ، ولم ينسبه إلى أحد ، ومن العلماء من يرى أن المتعلق فعل أمر تقديره اقرأ وهو خطاب موجه إلى النبي ﷺ

وإلى كل قارىء ، والظاهر من كلام الإمام ابن جرير أنه يميل إلى هذا الرأى ، فقد ذكر بعد إيراده عن ابن عباس رضى الله عنهما أن أول ما نزل به جبريل على النبي ﷺ الاستعاذة والبسملة ، وهذا يُفهم منه أن مراده اقرأ باسم الله ، والاختلاف في جعل المتعلق خاصا أو عاما يرجع إلى الاختلاف في وجهات نظر العلماء المختلفين ، فالذين قدروه خاصا راعوا ضرورة استحضار العمل الذي يقترن البدء فيه بالبسملة ، ويقول ابن جرير :ـــ «إن ذلك يجري مجرى الأشياء التي تعرف من غير أن تذكر ، كقول القائل :ـــ خبزا في جواب ماذا أكلت؟ فإنه يُعْلم بالضرورة أنّ مراده أكلت خبزا ، وكقول المهنئين بالزواج : «بالرفاء والبنين» فإن المراد واضح وهو تزوجت أو اقترنت بالرفاء والبنين ، وكذلك عندما يقرأ القارىء ويتلو «بسم الله» يعرف بالضرورة أن مراده باسم الله أقرأ ، وعندما يصنع الصانع ويتلو «بسم الله» يعلم بالضرورة أن مراده باسم الله أصنع .. وهكذا ، والذين قدروه عامًّا نظروا إلى مجيء البسملة في أول الأقوال والأفعال وجعلوه دليلا على أن المراد التبرك بها في الافتتاح ، وللفريقين نقاش طويل وبحوث واسعة لا نجد جدوى في إيرادها هنا.

ومما كثر الخلاف فيه الاسم والمسمى ، هل هما شيء واحد أو شيئان؟ وقبل التعرض لخلافهم يجدر بنا أن نحدد معنى الاسم.

يرى ابن سيده أن الاسم هو اللفظ الموضوع على الجوهر أو العرض ، ويقول الراغب : هو ما يعرف به ذات الشيء وأصله ، ويرى أبو حيان أن الاسم هو اللفظ الذي يدل بمقتضى الوضع على موجود في العيان إن كان محسوسا وفي الأذهان إن كان معقولا من غير أن يقترن جوهره بزمان ، ويرى

السيد رشيد رضا أن الاسم هو اللفظ الذى يدل على ذات من الذوات كحجر وخشب وزيد أو معنى من المعاني كالعلم والفرح ، وتخصيص ابن سيده للإسم بما وُضع على الجواهر والأعراض يمنع من شمول تعريفه لأسماء الله الحسنى لأن ذات الله تعالى ليست جوهرا ولا عرضا ، وكذلك تعريف الراغب له بأنه ما يعرف به ذات الشيء وأصله لايصح اعتباره منطبقا على أسماء الله ، فإن ذات الله ـــ وهي حقيقته الخاصة ـــ لا يعرفها أحد من خلقه كما هي ، وإنما غاية ما يمكن التوصل إليه معرفة صفاتها ، أما تعريف أبي حيان والسيد رشيد رضا فهما خاليان من الاعتراض ، ومن خلال تأملنا لجميع هذه التعريفات يمكننا أن ندرك أن الاسم هو غير المسمى ذلك لأن الاسم لفظ يدل نطقا أو كتابة على المسمى ، والمسمى حقيقة سواء كانت محسوسة أو معقولة ، ومما يؤسف له أن كثيرا من العلماء أضاعوا جهودهم في بحث هده المسألة ورد بعضهم على بعض بما لا طائل تحته ، وقد تعجب الإمام أبو حيان من هذا الاختلاف وهو جدير بأن يُتعجب منه ، ولولا خشية اللّبس لضربت صفحا عن بحث هذه المسألة من أصلها ، وإليك من تلخيصها وتحريرها ما يكفيك دليلا لتستبصر في مثل هذه المقامات التي كثيرا ما تنزلق فيها الأفهام.

لا ريب أنك تدرك أنك إذا أدرت لسانك على ذكر اسم شيء لا يحضر ذلك الشيء بعينه فلو ذكرت زيدا أو محمدا أو عامرا أو سعيدا لحصل لك ذكر الإسم دون المسمى وإلا للزم أن تروى غلتك إذا ذكرت اسم ماء بلسانك وأنت ظمآن ، وأن تحترق لسانك بمجرد ذكرك لاسم النّار ، ومع ظهور ذلك بداهة فإن جماعة من العلماء أصروا على أن الاسم هو عين المسمى ومن هؤلاء ابن الحصار والقرطبي والألوسي ونسبه الرازي إلى الأشعرية

والكـــــــرامية والحشوية ولم يكتفوا بالوقوف عند هذا الحد ، بل أخذوا يشنعون على مخالفيهم ، فالقرطبي ينسب قولهم إلى أهل الحق ومفهومه أن قول مخالفيهم هو قول أهل الباطل ، بل صرح ابن الحصّار بأن القول الآخر هو قول أهل البدعة ، ولم يأْل الألوسي جهدا في الانتصار لقولهم هذا مستندا إلى فلسفات متنوعة ليست من القرآن ولا من السنة في شيء ، وفي مقابل هؤلاء نجد الإمام ابن جرير الطبري والفخر الرازي وابن القيم والسيد محمد رشيد رضا يخالفونهم تمام المخالفة ويعدون القول بأن الاسم هو عين المسمى من الأخطاء التي أوقع أصحابها فيها قلة فهمهم لمقاصد النصوص ، ولقطب الأئمة رحمه الله كلام في (هيمبانه) يفيد تعذر كون الإسم هو المسمى ، وحمل كلام أصحابنا بأن أسماء الله هي ذاته على أن مرادهم بذلك مدلول أسمائه ، ونحوه مَا أفاده نورالدين السالمي رحمه الله في مشارقه ، ومنشأ اللبس الذي سبب الخلاف أن القائلين بأن الإسم هو عين المسمى رأوا أن الله تعالى أمر بذكره وتسبيحه في آيات من الكتاب وبذكر اسمه وتسبيح اسمه في آيات أخرى فقد قال عز من قائل :﴿وَاذْكُرْ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيهِ تَبْتِيلاً﴾(المزمل/٨).. ﴿واذْكُرْ اسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلاً﴾(الإنسان/٢٥).. ﴿وَمَسَاجِدَ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللهِ كَثِيرًا﴾(الحج/٤٠)..فَكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللهِ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُم بِآيَاتِهِ مُؤْمِنِينْ﴾(الأنعام/١١٨).. ﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللهِ عَلَيْهِ﴾(الأنعام/١١٩)..فَاذْكُرُوا اسْمَ اللهِ عَلَيهَا صَوَافَّ﴾(الحج/٣٦)..وقال سبحانه : ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللهَ ذِكْرًا كَثِيرًا وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاَ.. ﴾(الأحزاب/٤١ ، ٤٢)..فَاذْكُرُوا اللهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ﴾(البقرة/١٩٨).. ﴿فَإِذَا قَضَيْتُمْ مَنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُم أَو أَشَدَّ ذِكْرًا﴾(البقرة/٢٠٠).. ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللهَ قِيَامًا وَ قُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ.. ﴾(آل عمران/١٩١).. ﴿فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلَاةَ

﴿فَاذْكُرُوا اللهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِكُمْ﴾(النساء/١٠٣).. ونحوه قوله في التسبيح : ﴿إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ﴾(الأعراف/٢٠٦).. وقوله : ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾(الأعلى/١).. ﴿فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾(الواقعة/٧٤) وقال تعالى ﴿فَتَبَارَكَ اللهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾(المؤمنون/١٤).. ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ﴾(الفرقان/١).. ﴿تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾(الرحمن/٧٨) وقد دعاهم هذا إلى الجمع بين هذه الآيات بأن يجعلوا الاسم عين المسمىٰ ، وأن يجعلوا ذكر الله وتسبيحه وذكر اسمه وتسبيح اسمه واحدا لأن اسمه عين ذاته ، والصواب — كما يقول صاحب المنار — أن الذكر في اللغة ضد النسيان وهو ذكر القلب ولذلك قرنه الله بالتفكر في سورة آل عمران حيث قال : ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِم ، وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ ..﴾ وقال : ﴿وَاذْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ﴾(الكهف/٢٤) كما يطلق الذكر على النطق باللسان لأنه دليل على ذكر القلب وعنوان له ، وذكر اللسان للاسم دون المسمى كما هو الشأن في سائر الأسماء فإذا قال قائل نار ، لا تقع النار على لسانه فتحرقه ، وإذا قال الظمآن ماء لا يجري الماء على فيه فيروي ظمأه — كما ذكرنا من قبل — فالمراد من ذكر الله بالقلب تذكر جلاله وعظمته وكبريائه ونعمه والمراد من ذكره باللسان ذكر أسمائه الحسنى وإسناد الحمد والشكر والثناء إليها ، وهكذا يقال في التسبيح فالقلب واللسان يشتركان في التسبيح وإنما تسبيح القلب اعتقاد كما له وتنزهه عن كل ما لايليق بعظمته وكبريائه ، وتسبيح اللسان إضافة التسبيح إلى أسمائه ، ولو لم ينطق بكلمة اسم ، ويدل على ذلك ما أخرجه الإمام الربيع رحمه الله عن أبي عبيدة عن جابر بن زيد عن ابن عباس رضي الله عنهم أنه لما نزل قول الله تعالى ﴿فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾(الواقعة/٧٤) قال النبي ﷺ : «اجعلوها في

ركوعكم» ولما نزل قوله : ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ قال : «اجعلوها في سجودكم» ورواه أحمد وأبو داود وابن ماجه وابن حيان في صحيحه والحاكم في مستدركه عن عقبة بن عامر رضي الله عنه ، وروى أحمد وأصحاب السنن الأربعة وصححه الترمذي عن حذيفة رضي الله عنه قال: صليت مع النبي ﷺ فكان يقول في ركوعه «سبحان ربي العظيم» وفي سجوده «سبحان ربي الأعلى» فظهر من هذا كله أن الاسم غير المسمى وأن ذكر كل منهما مشروع والفرق بينهما ظاهر وكذلك يقال في التسبيح والتبارك فكما يعظم الحق سبحانه يعظم اسمه الكريم فلا يذكر إلا مقرونا بالحمد والشكر والثناء والتقديس ، وقد صرحوا أن تعمد إهانة أسماء الله تعالى في اللفظ والكتابة كفر ، لأنه لا يمكن أن يصدر ذلك من مؤمن.

هذا ملخص تحرير صاحب المنار لهذه المسألة وهو في منتهى الوضوح وفي غاية التحقيق.

ومما تعلق به القائلون بأن الاسم عين المسمى قول لبيد :

إلى الحق ثم اسم السلام عليكما ومن يبك حولا كاملا فقد اعتذر

فقد قال القرطبي : استدل علماؤنا بقول لبيد هذا على أن الاسم هو المسمى ، واستدل أبوعبيدة معمر بن مثنى بالبيت على أن اسم صلة زائدة أقحمت في بسم الله الرحمن الرحيم ، وأن الأصل بالله الرحمن الرحيم ، وهو كلام مردود ، فإن اعتبار شيء من كلمات القرآن مقحما أمر لا يخلو من سوء أدب مع كلام الله تعالى ، أما البيت فقد أجاب عنه ابن جرير بجوابين :

أولهما أن مراد لبيد به : عليكما اسم الله أي ألزماه فقدم المفعول على اسم الفعل فرفعه كما هي القاعدة ألا ينصب اسم الفعل المفعول به إن تقدمه.

ثانيهما أن مراده بقوله : ثم اسم السلام عليكما ثم بركة اسم السلام عليكما ، كما يقال في ما يقصد تعويذه اسم الله عليه ، والقول باتحاد الاسم والمسمى نسبه غير واحد إلي سيبويه من أئمة اللغة العربية وخطّأ صاحب صاحب المنار هذه النسبة معولا على ما قاله ابن القيم في (بدائع الفوائد) ما قال نحوي قط ولا عربي أن الاسم عين المسمى ، وللفخر الرازي في تفسيره نقاش طويل يدحض به شبه القائلين باتحادهما نرى الاستغناء عنه بما ذكرناه.

وكلمة اسم على وزن فعل حسب أصلها وأصلها عند البصريين سمُوٌ مأخوذة من السمو لأن الاسم يعلو مسماه بكونه عنوانا له ودليلا عليه ، وقيل لأن صاحبه بمنزلة المرتفع به ، وقيل بأن الاسم يسمو بالمسمى فيرفعه عن غيره ، وأصله عند الكوفيين وسِمٌ ، مأخوذ من السِّمة وهي العلامة ، لأن الاسم علامة لمن وضع له ، وعلى الرأي الأول هو محذوف اللام على وزن إفعٌ سكنت فاؤه فاجتلبت له همزة الوصل في ابتداء الكلام ، وعلى الثاني هو واوى الفاء حذفت فاؤه فاجتلبت له همزة الوصل ووزنه إعلٌ ، ويدل للأول تصريفه فإنه يصغر على سُمي لا على وُسيم ويجمع على أسماء لا على أوسام ، والتصريف يرد الكلمات إلى أصولها ، وإنما كانت نظرة الكوفيين مبنية على أن المراد من وضع الأسماء للمُسميات أن تكون علامة ودليلا عليها ، ولم ينظروا إلى تصريف الكلمة بينما البصريون عولوا على التصريف مع نظرهم إلى أن الاسم يظهر بمسماه والظهور هو في حقيقته سمو وارتفاع.

وفي إضافة اسم إلى لفظ الجلالة خلاف ، هل هي للعهد أو للجنس الذي يُحمل على الاستغراق ؟ وهو مبني على أن الإضافة تأتي لما تأتي له أل من المعاني ، وعلى الأول فالمقصود اسم معهود من أسماء الله ، والأجدر أن يكون اسم الجلالة لشيوعه وذيوعه ، وعلى الثاني فالمراد الافتتاح بجميع أسماء الله الحسنى ، والأولى أن تكون الإضافة هنا للبيان ، ووصف اسم الجلالة

هنا بالرحمن الرحيم يؤكد ذلك ، وإنما كان الافتتاح باسم الجلالة دون غيره لأن جميع الأسماء تابعة له فلذلك يوصف بها ولا توصف به ، وفي افتتاح الكلام باسمه تعالى تفخيم له وتعظيم من شأنه ، وهذا مما جرت به العادة عند الناس كما أشرنا من قبل ، فهم عندما يريدون أن يفتتحوا مشروعا جديرًا بالعناية يفتتحونه باسم شخص مشهور كسلطان أو أمير أو باسم مؤسسة ذات شأن..

ويعني ذلك أنه لولا صاحب الاسم لم يفتتح المشروع ، وبما أن القرآن الكريم جاء لتطهير العقيدة من جميع أدران الشرك ولوثات الزيغ فإنه علمنا كيف نخص اسم الله الرحمن الرحيم في افتتاح الأقوال والأعمال ، وهذا لأن العبد عندما يقول (بسم الله الرحمن الرحيم) يعلن براءته من الحول والطول وعدم قدرته على أى عمل إلا بعون الله كما يعلن أن قيمة العمل تكون يقدر الإخلاص لله سبحانه ، وفي الافتتاح باسمه تعالى إضفاء صفة الشرعية على العمل المفتتح ، ومن ثم قال العلماء «إن الأعمال غير المشروعة لا تفتتح باسم الله ، ولأجل ذلك كرهوا افتتاح دواوين الأشعار بالبسملة لما يكون فيها من المجون والأقوال المجانبة للحق ، فالشعراء هم كما وصفهم الله بقوله : ﴿وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ ، أَلَمْ تَرَ أَنَّهُم فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ، وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَالَا يَفْعَلُونَ ، إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللهَ كَثِيرًا وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا﴾(الشعراء/ ٢٢٤ : ٢٢٧) وفي هذا الاستثناء ما يدل على أن الشعر إن كان خالصا من الشوائب ، بَعِيدا عن المنكرات ، لا يمنع من افتتاح ديوانه بالبسملة.

(الله) اسم خاص لايُطلق إلا على رب العالمين ، وقالوا في تعريفه : هو علم على ذات واجب المستحق لجميع المحامد لذاته ، واختلف في أصله ، فالجمهور يرون أن أصله إله ، فحذفت الهمزة وعُوض عنها الألف

واللام وأُدغمت اللام في اللام ثم فُخمت ، ولأجل أن الألف واللام للتعويض اجتمعتا مع حرف النداء ولا تجتمع أداة التعريف في غير هذا الاسم مع يـا إلا مقرونة بأي ، وأصل إلٰهَ أَلَه بمعنى عبد عنـد ابن جرير وجماعـة من علماء العربية والتفسير وعضده ابن جرير بما رواه عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قرأ ﴿ وَيَذَرُكَ وَآلِهَتِكَ ﴾(الأعراف /١٢٧) وفسره بمعنى عبادتك ، وذكر علماء العربية أن أَلَه كعبد وزنا ومعنى ، يقال أَلَهَ إلٰهَةً وألوهةً وأُلُوهية كعبد عبادة وعبودية وعبودة ، وقيل أصله أَلِه على وزن سمع بمعنى تحير لأن العقول تتحير في معرفته سبحانه ، ويرد على هذا أن الأصل في الاشتقاق أن يكون لمعنى في المشتق والحيرة إنما هي في العباد ، وقيل أصله من أَلِهَ بمعنى فزع لأن الخلق يفزعون إلى الله سبحانه ﴿ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ ﴾(المؤمنون /٨٨) وقيل من أَلِهَ بمعنى سكن لأن النفوس تسكن إليه تعالى ﴿أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾(الرعد /٢٨) وقيل هو مأخوذ من وَلِهَ بمعنى تحير فيكون على هذا أصل إلٰه ولاه وإنما أُبدلت الهمزة واوًا كما قيل في وشاح إشاح ، وقيل غير ذلك ، وهذه الأقوال كلها مبنية على التخمين الذي لا يشفي غليلا ، والظاهر أن اسم الجلالة غير مشتق والألف واللام فيه ليستا للتعريف فإن هذا الاسم الكريم هو أعرف المعارف فليس بحاجة إلى أن تجتلب له أداة تعريف والقول بعدم اشتقاقه محكي عن الخليل بن أحمد الفراهيدي مع حكاية القول الآخر عنه وذكر بعض المؤلفين أن الخليل رؤي في المنام بعد موته فقيل له ما فعل الله بك فقال رحمني بقولي إن اسم الجلالة غير مشتق ، ولابن مالك النحوي الشهير في المقام تحرير «ما أظن أنّ شبهة تبقىٰ معه لمدعى اشتقاق هذا الاسم الكريم وأن أصله إلٰه ، وحاصل ما يقوله أنه يكفي في رد دعوى القائلين بالاشتقاق أنهم ادعوا مالادليل عليه ، لأن الله والإله مختلفان لفظا ومعنى أما لفظا فلأن الله عينه حرف علة والإله صحيح العين واللام وإنما فاؤه

همزة فهما من مادتين ، وردهما إلى أصل واحد تحكم من سوء التصريف ، وأما معنى فلأن الله لم يطلق في جاهلية ولا إسلام على غير الحق تبارك وتعالى وأما الإله فأصل وضعه لمطلق المعبود ولكنه خص بالمعبود بحق ، ومن قال أصله الإله لا يخلو من أمرين ، إما أن يقول أن حذف الهمزة كان ابتداء ثم أُدغمت اللام ، أو يقول إن حركتها أُزيلت وأُلقيت إلى اللام قبلها ثم حذفت على القياس ، والأمران باطلان أما الأول فبطلانه لأجل دعوى حذف الفاء بلا سبب ولا مشابهة ذي سبب من اسم ثلاثي ولا يصح أن يقاس هذا الحذف على الحذف في يد وما شابهه لأن الحذف في باب يد في الأواخر ، ويترخص فيها مالا يترخص في فاء الكلمة ثم لا يقاس على الحذف في باب عدة لأن الحذف فيه محمول على الحذف في المضارع من بابه وهو يعد ، ولا على رِقة بمعنى ورق لمشابهته عدة وزنا وإعلالًا ، ولولا أنه بمعناه لأُلحق بباب لثه وهو الثنائي المحذوف اللام ، وأما (ناس) فأصله أُناس ، فالناس من نَوسْ والأناس من الأنس ، ولو سُلِّمَ أن أصلهما واحد فالحمل عليه زيادة في الشذوذ وكثرة مخالفة الأصل بلا داعٍ .

وأما الثاني فبطلانه لاستلزامه مخالفة الأصل من وجوه ، أحدها نقل حركة بين كلمتين على سبيل اللزوم ولا نظير له ، (الثاني) نقل حركة همزة إلى مثل مابعدها وهو يوجب اجتماع مثلين متحركين وهو أثقل من تحقيق الهمزة بعد ساكن ، (الثالث) الرجوع إلى تسكين المنقول إليه الحركة وهو يبطل النقل لأنه يعود عملًا كلا عمل ، وهو مستقبح في كلمة فكيف بالكلمتين ، (الرابع) إدغام المنقول إليه في ما بعد الهمزة وهو مجانب للقياس لأن الهمزة المنقولة الحركة في تقدير الثبوت ، فإدغام ماقبلها في مابعدها كإدغام أحد المنفصلين ، وقد اعتبر أبوعمرو في الإدغام الكبير الفصل بواجب الحذف كالياء في نحو (يَبْتَغِ غَيْرَ)فلم يدغم.

فاعتبار غير واجب الحذف أولى والذين يزعمون أن أصله إلٰه يقولون: إن الألف واللام عوض من الهمزة ، ويرده أن المعوض والمعوض عنه لايحذفان معا وقد حذفت الألف واللام في قول الشاعر:

لاه ابن عمك لاأفضلت في حسب عنى ولاأنت ديّاني فتخزوني

وقالوا:(لهي أبوك) فحذ فوا لام الجر والألف واللام وقدموا الهاء وسكنوها فصارت الألف ياء ، وهذا يدل أن الألف كانت منقلبة لتحركها وانفتاح ماقبلها فلما وليت ساكنا عادت إلى أصلها وفتحتها فتحة بناء وسبب البناء تضمن معنى التعريف عند أبي علي ، ومعنى حرف التعجب إذ لم يقع في غيره وإن لم يوضع له حرف عند ابن مالك ، هذا ملخص كلامه وهو في منتهى الجودة ولكن لعل خصومه يجدون في قول الله تعالى:﴿لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّي﴾(الكهف /٣٨) حجة يستندون إليها في الرد عليه في إنكاره إدغام ما قبل الهمزة فيما بعدها ، اعتبارا للمحذوف في حكم الثابت سواء كان واجب الحذف أو جائزه فإن كثيرا من أئمة التفسير والعربية نصوا على أن الأصل (لَكِنْ أنا هو الله ربي) فحذفت ألف أنا وأدغمت نون لكن في نونها ، وممن نص على ذلك ابن جرير والزمخشري غير أن لابن مالك أن يقول كما يقول أبوحيان في (البحر المحيط) بأن ذلك غير متعين لإمكان أن تكون (لَكنَّ) مشددة هنا وحذف اسمها وهو ضمير المتكلم أي (لكنني أنا هو الله ربي) كما حذف اسمها ضميرا في قول الشاعر:ـــ

وترمينني بالطرف أي أنت مذنب وتقلينني لكن إياك لا أقلي

فأصله (لكنني) ، وفي قول الآخر:ـــ

فلو كنت ضبيا عرفت قرابتي ولكن زنجيٌّ عظيم المشافر

على رفع زنجي وتقديره(ولكنك زنجي).

واختلفوا في الفرق بين الإلٰه والله ، فالسيد السند يرى أنهما علم لذاته تعالى ، ولكن إلٰه يطلق على غيره تعالى ، والله لايطلق على غيره سبحانه أصلا ، وقال السعد: «إن الإله اسم لمفهوم كلى هو المعبود بحق ، والله علم لذاته ، وقال الرضىٰ هما قبل الإدغام وبعده مختصان بذاته تعالى لا يطلقان على غيره أصلا إلا أنه قبل الإدغام من الأعلام الغالبة وبعده من الأعلام الخاصة ، وأنت تدري أنه إذا أُطلق اسم الجلالة لم يتبادر إلى ذهن أي أحد من أي ملة كان إلا أنَّ المراد به الحي الدائم خالق كل شيء ، وأما الإله فهو يطلق على المعبود وإنما خص في الإسلام بالمعبود بالحق سبحانه وتعالى ، ولذلك إذا أطلقه غير المسلم قد يتبادر أن المراد به غير الله تعالى والله سبحانه قد حكى في كتابه عن المشركين قولهم ﴿أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَاحِدًا ، إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾(ص /٥) كما حكى عنهم قولهم ﴿اصْبِرُوا عَلَىٰ آلِهَتِكُمْ﴾(ص /٦) وقولهم ﴿إِنْ كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ آلِهَتِنَا لَوْلَا أَنْ صَبَرْنَا عَلَيْهَا﴾(الفرقان /٤٢) ولم يحك عنهم مايدل على أنهم يطلقون اسم الجلالة على غيره تعالى بل حكى عنهم مايدل على أنهم يخصونه به سبحانه فقد قال تعالى: ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُم مَنْ خَلَقَ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾(لقمان /٢٥) وفي هذا مايدل على اختلاف مفهوم الكلمتين عندهم فالإله هو المعبود والله هو الخالق القادر على كل شيء ، وإنما انحصر معنى الإله عند المسلمين في الله سبحانه لأنه المعبود بحق ، وكل ما يعبد سواه فهو معبود بباطل ، وبهذا يتضح أن الإله معناه كلي ينحصر في فرد ، ولولم يكن كذلك لما كان قول الموحد «لاإله إلا الله» توحيداً إذ لو كان المعنى المتبادر من اللفظين واحدا من أول الأمر لكان ذلك بمثابة قول القائل «لا إله إلا إله» وفي هذا ما يؤيد رأي ابن مالك في أن كل واحد من اللفظين مستقل وضعا.

ومن أغرب ماقيل أن هذا الاسم الكريم ليس بعربي الأصل وهو رأي

لا يلتفت إليه ولعل من قال به حيره اختلاف العلماء فيه هل هو مشتق أو غير مشتق؟ وما هو أصل اشتقاقه فلم يستطع أن يخلص من ذلك إلا إلى القول بأنه أعجمي الأصل.

وأما علمية هذا الاسم فقد استُدل عليها بوجوه:ـــ

أولها: أنه يوصف ولا يوصف به ، قال الله تعالى : ﴿اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾(البقرة /٢٥٥) وقال: ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ، هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾(الحشر /٢٢ : ٢٤) وأما قراءة ﴿صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ اللَّهِ﴾(ابراهيم/١) في سورة إبراهيم بالجرّ فمحمولة على البيان.

ثانيهما: أنه لابد له من اسم تُجرى عليه صفاته ، فإن كل ماتتوجه إليه الأذهان ويُحتاج إلى التعبير عنه قد وُضِعَ له اسم ، سواء كان توفيقا أو اصطلاحيا ، فمن المستحيل أن يُهمل الخالق تعالى الذي هو مصدر الأشياء جميعا ، فلا يكون له اسم يجري عليه مايُعزى إليه ، وأسماء غيره لا تصلح له لانفراده تعالى بكونه واجب الوجود لذاته غير مماثل لشيء من مخلوقاته ، ولا يصح أن يكون اسم جنس معرَّفا لأنه غير خاص وضعا ، وكذلك لا يصح أن يكون علما منقولا من الوصفية ، لأنه يستدعى أن لا يكون في الأصل ماتجري عليه الصفات.

ثالثهما: أنه لوكان وصفا لجاز اتصاف غيره بأصل ذلك الوصف ولو مجازا إن كان من الصفات التي تجري على المخلوقين كالعلم والقدرة والمشيئة والحياة والسمع والبصر ، وذلك يمنع الاكتفاء به في التوحيد نحو (لاإلٰه إلا العالم القدير السميع العليم) لإمكان أن يراد غير الله تعالى بهذه الصِّفات

لعدم تعذر إطلاقها على غيره بخلاف اسم الجلالة لاختصاصه به سبحانه.

ولسبب اختصاص الله تعالى بهذا الاسم الكريم وكونه علما على ذاته صرف جميع خلقه عن التسمى به ، ولم تحدث أحدا نفسه — وإن كان من أعتى العتاه — أن يتسمى به أو يسمى به غيره ، فلو سُئل أحد من أهل الجاهلية :هل اللات هي الله؟أو العُزّى أو مناة؟ لأنكر ذلك ، ومن ثم قال غير واحد من أئمة التفسير وغيرهم إنّ هذا الاسم هو المراد في قوله سبحانه :﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾(مريم/٦٥) أما الإلهٰ فلم يكن الناس في جاهليتهم يتورعون من وصف غير الله به ، لأن أصله لمطلق المعبود ، والإسلام حصره في المعبود بحق كما ذكرنا فمن وصف به أي شيء غير الله تعالى فقد جعل لله ندّا ، ولذلك أنكر القرآن تسمية المشركين أصنامهم آلهة ، ويرى السيد محمد رشيد رضا أنه أنكر عليهم تأليهها وعبادتها لا مجرد تسميتها ، فقد سماها هو آلهة في قوله:﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ مِنْ شَيْءٍ لَمَّا جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيْبٍ﴾(هود/١٠١) قال ولايظهر في هذه الآية قصد الحكاية ، وفي كلامه هذا نظر فإن الإلهٰ لو لم يمنع شرعا إطلاقه على غير الله لما كان قول «لاإلهٰ إلا الله» توحيدًا ، ونجد في القرآن الكريم الإنكار الذي يلي الإنكار على من يصف غير الله بالألوهية وقد تكرر ذلك في سورة النمل قال تعالى : ﴿أَإِلَهٌ مَعَ اللهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ﴾(النمل/٦٠) ﴿أَإِلَهٌ مَعَ اللهِ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ﴾(النمل/٦٢) ﴿أَإِلَهٌ مَعَ اللهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَايَعْلَمُونَ﴾(النمل/٦١) ﴿أَإِلَهٌ مَعَ اللهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾(النمل/٦٤) وأما قوله: ﴿فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمْ﴾(هود/١٠١) فليس فيه مايدل على إقرار هذه التسمية لأنه مسوق مساق التهكم والاستخفاف بهم ، وهؤلاء المشركون وإن استباحوا عيادة هذه الأشياء فإنما يعتبرون العبادة وسيلة إلى الله فإنهم يقولون: ﴿مَانَعْبُدُهُمْ إِلَّالِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللهِ زُلْفَى﴾(الزمر/٣) أما لو

سئلوا هل خلق شيء من هذه الأصنام التي يعبدونها شيئا من هذه الكائنات لأجابوا بالنفي ، بدليل قوله تعالى: ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللهُ﴾(لقمان/٢٥) .

﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ صفتان لله تعالى اشتقاقهما من الرحمة وهي انفعال نفسي يحمل صاحبه على الإحسان إلى غيره وهو محال على الله بحسب المعنى المعروف في البشر لأنه في البشر ألم يلم بالنفس لايشفيه إلا الإحسان ، والله تعالى منزه عن الآلام والانفعالات ، وإنما يحمل وصف الله تعالى بالرحمة على أثرها وهو الإحسان ومثل هذا مألوف عند العرب ، وكون صفتي «الرحمن الرحيم» مشتقتين من الرحمة هو رأي الجمهور ، وذهب بعضهم إلى أن «الرحمن» اسم وليس بصفة وأنه غير مشتق لأنه لوكان مشتقا من الرحمة لجاز اتصاله بالمرحوم فيقال : الله رحمن بعباده كما يقال رحيم بعباده ، وأيضا لو كان مشتقا من الرحمة لم تنكره العرب حين سمعته إذ لم يكونوا ينكرون رحمة ربهم ، وقد قال الله عنهم : ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَٰنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَٰنُ﴾(الفرقان / ٦٠) واستدل ابن العربي بقولهم «وَمَا الرَّحْمَٰنُ» ولم يقولوا ومن الرحمن على أنهم جهلوا الصفة دون الموصوف واعترضه ابن الحصار محتجا عليه بقوله تعالى : ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَٰنِ﴾(الرعد / ٣٠) ويؤيد رأي الجمهور ما رواه الترمذي وصححه عن عبدالرحمن بن عوف أنه سمع رسول الله ﷺ يقول : (قال الله عز وجل أنا الرحمن خلقت الرحم وشققت لها اسما من اسمي فمن وصلها وصلته ، ومن قطعها قطعته) وليس في عدم اتصاله بذكر المرحوم مايدل على عدم الاشتقاق فإنه استدلال سلبي في مقابلة الدليل الثبوتي ، وإنكار العرب للرحمن ناشيء عن تعنتهم في الكفر وإصرارهم على التكذيب وإلا فقد كانوا غير جاهلين به ، كيف! وقد ورد في أشعارهم كما ذكره ابن جرير ، ومنه قول أحد الجاهلية الجهلاء:

ألا ضربت تلك الفتاة هجينها ألا قضب الرحمن ربي يمينها

وقول سلامة بن جندب الطهوي:ـــ

عجلتم علينا إذ عجلنا عليكم   وما يشأ الرحمن يعقد ويطلق

ومما يستغرب ما نسبه ابن الأنباري إلى المبرد وأبو إسحاق الزجّاج إلى أحمد بن يحيى أن اسم الرحمن عبراني وليس بعربي ، واستدل لذلك بقول جرير :

لن تدركوا المجد أوتشروا عباءكم   بالخز أو تجعلوا الينبوت ضمرانا

أو تتركون إلى القسين هجكرتكم   ومسحكم صلبهم رحمان قربانا

وليس في ذلك ما يدل على عبرانيته، إذ لايلزم من استعمال أهل الكتاب له — لوصح — ألا يكون عربيا ولعل القائلين باسمية «الرحمن» يستدلون بالإسناد إليه في نحو قوله تعالى:﴿الرَّحْمَٰنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ﴾(طه/٥)، ﴿الرَّحْمَٰنُ عَلَّمَ الْقُرْآنَ﴾(الرحمن/١-٢) وهذا لا ينافي وصفيته لأنه وإن كان صفة مشتقة فهو مختص بالله تعالى والصفات يسند إليها كثيرا وإن لم تكن مختصة فما بالك بالمختص ؟ واختصاصه بالله هو رأي الجمهور وحملوا قول شاعر بني حنيفة في مسيلمة:—

سموت بالمجد ياابن الأكرمين أبا   وأنت غيث الورى لازلت رحمانا

على التعنت بالكفر .

واختلف في الفرق بين «الرحمن» و «الرحيم» فالجمهور على أن «الرحمن» أبلغ من «الرحيم» وهومبني على أن زيادة المبنى تدل على زيادة المعنى ، وأورد الزمخشري من هذا الباب نكتة لطيفة وذلك أنه ذكر أنه كان في طريقه إلى الحجاز فوجد محملا أكبر بقليل عن محامل تستعمل في العراق يسمى الواحد منها «الشقدف» فسأل أعْرابيا عن اسم المحمل الذي رآه فقال له أليس ذلك يدعى الشقدف ؟ قال له : بلى..قال : فهذا الشقنداف ، واستظهر منه الزمخشري أن طول الإسم لكبر المسمى ، وهذه القاعدة غير مطرده ، فإن حَذِرا أبلغ من حاذر وحروفه أقل ، وبناء على ما

يقوله الجمهور قيل: إن «الرحمن» هو المنعم بجلائل النعم و«الرحيم» هو المنعم بدقائقها وقيل أن «الرحمن» هو المنعم بنعم شاملة تعم المؤمن والكافر والبر والفاجر و«الرحيم» هو المنعم على المؤمنين خاصة ، ومتعلق هذا القول قوله تعالى ﴿وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ وانتقد الأستاذ الشيخ محمد عبده هذين القولين وقال : «كل هذا تحكم في اللغة مبني على أن زيادة المبنى تدل على زيادة المعنى ، ولكن الزيادة تدل على زيادة الوصف مطلقا فصفة «الرحمن» تدل على كثرة الإحسان الذي يعطيه سواءً كان جليلا أو رقيقا وأما كون أفراد الإحسان التي يدل عليه اللفظ الأكثر حروفا أعظم من أفراد الإحسان التي يدل عليها اللفظ الأقل حروفا فهو غير معنى ولا مراد ، وقد قارب من قال: إن «الرحمن» المحسن بالإحسان العام ولكنه أخطأ في تخصيص مدلول «الرحيم» بالمؤمنين .

وقيل «الرحمن» رحمن الدنيا والآخرة «والرحيم» رحيم الآخرة ، وهو كسابقيه لايستند إلى دليل ، ولعل عدم ظهور الحجة في التفرقة التي زعموها كان هو السبب في قول جماعة من المفسرين كالمحلّي والصبّان : إن الاسمين الكريمين بمعنى ، وإنما جيء بالثاني تأكيداً للأول ، وانتقد الإمام محمد عبده هذا الرأي قائلا : «ومن العجيب أن يصدر مثل هذا القول عن عالم مسلم وما هي إلا غفلة ، نسأل الله أن يسامح صاحبها» ثم قال: «وأنا لا أجيز لمسلم أن يقول في نفسه أو بلسانه إن في القرآن كلمة تغاير أخرى ثم تأتي لمجرد تأكيد غيرها بدون أن يكون لها في نفسها معنى تستقل به ، نعم قد يكون في معنى الكلمة ما يزيد معنى الأخرى تقريرا أو إيضاحا ، ولكن الذي لاأجيزه هو أن يكون معنى الكلمة هو عين معنى الأخرى بدون زيادة ثم يؤتى بها لمجرد التأكيد لاغير ، بحيث تكون من قبيل ما يسمى بالمترادف في عرف أهل اللغة ، فإن ذلك لا يقع إلا في كلام من يرمي في لفظه إلى مجرد التنميق

والتزويق ، وفي العربية طرق للتأكيد ليس هذا منها ، وأما ما يسمونه بالحرف الزائد الذي يأتي للتأكيد فهو حرف وُضع لذلك ومعناه هو التأكيد ، وليس معناه معنى الكلمة التي يؤكدها ، فالباء في قوله تعالى : ﴿وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾(النساء/٧٩،١٦٦) تؤكد معنى اتصال الكفاية بجانب الله جل شأنه بذاتها وهو معناها الذي وُضعت له ، ومعنى وصفها بالزيادة أنها كذلك في الإعراب وكذلك معنى من في قوله : ﴿وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾(البقرة/١٠٢) ونحو ذلك ، أما التكرار للتأكيد أو التقريع أو التهويل فأمر سائغ في أبلغ الكلام عندما يظهر ذلك القصد منه ، كتكرار جملة ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾(الرحمن) ونحوها عقب ذكر كل نعمة وهي عند التأمل ليست مكررة ، فإن معناها عند ذكر كل نعمة «أفبهذه النعمة تكذبان» ، وهكذا كل ماجاء في القرآن على هذا النحو) ويخلص الإمام بعد هذا الرّد إلى اختيار القول باستقلال كلٍّ من لفظيّ «الرحمن» و «الرحيم» بمعنى ، ويردّ استخراج المعنى الذي تدل عليه كل واحدة من اللفظتين إلى بنائها الحرفي ، فالرحمن على وزن فعلان ، وهذه الصّيغة تدل على وصف فعلي فيه معنى المبالغة كفعال وهو مستعمل لغة في الصفات العارضة كعطشان وغرثان وغضبان وشبعان ، و«الرحيم»على وزن فعيل ، وهذه الصيغة تستعمل لغة في المعاني الثابتة كالأخلاق والسجايا نحو سميع وبصير وعليم وحكيم وحليم وجميل ، والقرآن الكريم عندما يخبر عن صفات الله لا يخرج عن الأسلوب العربي البليغ ، وإنما تعلو صفات الله عن مماثلة صفات المخلوقين ، ومن هنا يرى الأستاذ أن «الرحمن» يدل على من تصدر عنه آثار الرحمة بالفعل ، وهي إفاضة النعم على الخلق والإحسان إليهم ، وأن «الرحيم» يدلّ على مصدر هذه الرحمة ومنشأ هذا الإحسان ، وهو بهذا يثبت أن «الرحمن» صفة فعلية و «الرحيم» صفة ذاتية ثابتة له تعالى ، ويؤكد بهذه التفرقة أنه لا يُسْتغْنى

بأحد الوصفين عن الآخر ، ولا يكون مجيء الثاني لمجرد تأكيد الأول ، ويرى أن العربي إذا سمع وصف الله جل ثناؤه بالرحمن وفهم منه أنه مفيض النعم ، وواهب الإحسان بالفعل لا يعتقد منه أن الرحمة من الصفات الواجبة له دائما ، لأن الفعل قد ينقطع إذا لم يكن صادرا عن صفة لازمة ثابتة وإن كان كثيرا ، ولكن عندما يسمع لفظ الرحيم يكمل اعتقاده على الوجه الذي يليق بجلال الله ويرضيه سبحانه ، ويعلم أن لله صفة ثابتة ، وهي الرحمة التي يكون عنها أثرها ، وإن كانت تلك الصفة على غير مثال صفات المخلوقين ويكون ذكرها بعد الرحمن كذكر الدليل بعد المدلول ليكون برهانا عليه .

ورأي الإمام في التفرقة بين الرحمن والرحيم يتفق مع الجويني الذي حكى عنه الألوسي بأن فعلان لمن تكرر منه الفعل وكثر ، وفعيلًا لمن ثبت منه الفعل ودام ، وابن القيم يرى عكس ذلك فهو يرى أن الرحمن صفة ذاتية لله تعالى ، والرحيم يدل على تعلقها بالمرحوم ، ويستدل لذلك بقول الله تعالى : ﴿وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾(الأحزاب/٤٣) إنه بهم رحيم ، وعدم مجيء «الرحمان بهم» وأكّد رأيه بقوله : (فعلمت أن الرحمن هو الموصوف بالرحمه ، ورحيم هو الراحم برحمته ، وعلى كلا الرأيين فإن اجتماع الوصفين الكريمين يؤدي إلى مالا يحصل لو أُفرد أحدهما بالذكر) وللمفسرين أقوال في «الرحمن الرحيم» غير التي ذكرنا نرى الاستغناء عن ذكرها لعدم اعتضادها بحجة مقبولة .

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾الحمد والمدح ينتظمهما الاشتقاق الكبير ، وهو اتحاد الحروف مع اختلاف ترتيبها ، فالحاء والميم والدّال الموجودة في الحمد هى نفسها حروف «المدح» ولكن بترتيب آخر ، والزمخشري يقول بتآخيهما ، واختلف الذين عُنوا بشرح كلامه ، هل قصده بالتآخي: اتحاد معناهما أو اتحاد حروفهما مع ما ينتظم الكلمات المتنوعة التي تلتقي بالاشتقاق من معنى لطيف قد يظهر مع التأمل الخاطف ، وقد يخفي إلا مع التأمل الطويل ؟فالحمد والمدح كالجذب والجبذ في اتحاد الحروف ، ووجود معنى يجمع بينهما ، والذين فرقوا بين الحمد والمدح راعوا أن الحمد يكون على الأمور التي للمحمود اختيار فيها ، بخلاف المدح ، فقد يكون في الأمور الطبيعية كمدح الوجه بالحسن ، والقامة بالاعتدال ، والدرة بالصفاء ، ولا يسمى شيء من ذلك حمدا ، وعرّفوا الحمد أنه الثناء باللسان على الجميل وقيده بعضهم بكونه اختياريا ، ومنهم من زاد على ذلك سواء تعلق بالفضائل أم بالفواضل على أن بعض العلماء يرى أن المدح أيضا لا يكون إلا في الأمور الاختيارية ، وإن ورد على غيرها عُدّ من باب المجاز ، وتقييد الثناء بكونه على الجميل يخرج الذم فإن الثناء قد يصدق عليه في نحو قولهم (أثنى عليه شرّا) وتقييد الجميل بكونه اختياريا يخرج المحاسن الاضطرارية كالتي أشرنا إليها وهي التي تُمدح ـــ على رأي بعض ـــ ولاتُحمد ، وقول بعضهم سواء تعلق بالفضائل أم بالفواضل يقتضي دخول الصفات التي تكون ذات أثر في الغير فيما يُحْمد عليه فإن الفضائل جمع فضيلة وهي صفة تقوم بنفس الموصوف لاتتعداه إلى غيره ، والفواضل جمع فاضلة وهي ما ينتقل أثره إلى الغير ، فسجية الكرم فضيلة ، والكرم طبيعة قائمة بنفس الكريم لاتنتقل عنه وإنما ينتقل عنه أثرها وهو الإحسان إلى الغير ويُعَبر عنه بالفاضلة ، والشجاعة طبيعة في نفس الشجاع لاتتعداه إلى غيره وإنما يتعدى أثرها عندما تبعث

صاحبها على نصرة المظلومين وإغاثة الملهوفين ، ويُعبر عن هذا الأثر بالفاضلة كذلك ، واستشكل هذا التعريف بأنه يمنع دخول صفات الله فيما يحمد عليه وهي من أجل المحامد ، وسبب المنع هو قيد الاختياري ، وأجاب القطب رحمه الله في (التيسير) بأن هذا القيد يراد به إخراج المحاسن الإضطرارية ، فلا يمنع من دخول صفات الله تعالى لأنها وإن لم يجز لنا أن نصفها بأنها اختيارية لما يُفهمه هذا الوصف من إمكان تخلي الله تعالى عنها فإنه لايجوز لنا أيضا أن نقول عنها إنها اضطرارية لما يقتضي ذلك من كون الله سبحانه مضطرا إليها ـــ تعالى الله عن ذلك ـــ ورأي القطب في (الهيميان) أن يستبدل قيد الاختياري بغير الاضطراري لئلا يكون مانعا من دخول صفات الله ، ويرى السيد الجرجاني في حاشيته على الكشاف أن كون الصفات مبدأ للاختيارات يزيح المانع من دخولها وتابعه المفسر الشهير أبو السعود حيث قال عن الجميل اختياريا كان أو مبدأ له ، وحاصل ذلك أنه لما كانت صفات الله تعالى الذاتية كالحياة والعلم والقدرة والمشيئة سببا لحصول أفعاله الاختيارية كالخلق والإنعام جاز حمده عليها بل وجب ذلك .

واختلف في الحمد والشكر هل هما متحدان ؟ أم مختلفان ؟ فذهب ابن جرير الطبري وأبو العباس المبرد إلى أنهما بمعنى واحد ونسبه ابن جرير إلى ابن عباس رضي الله عنهما ، وحكاه أبو عبدالرحمن السلمي في كتاب «الحقائق» عن جعفر الصادق وابن عطاء قال القرطبي : وليس بمرضي ، واستدل له ابن جرير بصحة قولك : الحمد لله شكرا ، وتعقبه ابن عطيه بأنه دليل على خلاف ماذهب إليه لأن قولك شكراً إنما خصصت به الحمد لأنه على نعمة من النعم ، وأُنكر ابن كثير على سلفه ابن جرير جعل الحمد والشكر بمعنى مستندا في هذا الإنكار على التفرقة التي أوردها المتأخرون بينهما ، وتعقبه الشوكاني في (فتح القدير) بأن كلام المتأخرين ليس بحجة على استعمال

الكلمات العربية ولاسيما أن ابن جرير قد عضد رأيه بما رواه عن بعض السلف كما عضده بجواز مجيء الشكر مصدرًا للحمد ، وفي السنه مايدل على أن الحمد قد يسد مسد الشكر ، فقد أخرج ابن جرير عن الحكم بن عمير ـــ وكانت له صحبة ـــ قال : قال النبي ﷺ : (إذا قلت الحمد لله رب العالمين ، فقد شكرت الله فزادك) وأخرج عبد الرزاق في «المصنف» والحكيم الترمذي في «نوادر الأصول» والخطابي في «الغريب» والبيهقي في «الأدب» والديلمي في «مسند الفردوس» عن عبدالله بن عمرو ابن العاص عن رسول الله ﷺ أنه قال : (الحمد رأس الشكر ماشكر الله عبدٌ لم يحمده) وفيه انقطاع إلا أن الألوسي ذكر أنّ له شاهدا يتقوى به ، وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عن أبي عبدالرحمن الحبلى قال : الصلاة شكر والصيام وكل خير تفعله شكر وأفضل الشكر الحمد ، وأخرج الطبراني في «الأوسط» بسند ضعيف عن النواس بن سمعان قال : سرقت ناقة رسول الله ﷺ فقال : (لئن ردها الله عليَّ لأشكرن ربي) فرجعت فلما رآها قال : (الحمد لله) فانتظروا هل يحدث رسول الله ﷺ صوما أو صلاة فظنوا أنه نسى ، فقالوا يارسول الله قد كنت قلت : (لئن ردها الله عليّ لأشكرن ربي) قال : (ألم أقل الحمد لله) وإنما كان الحمد رأس الشكر وأفضله لأنه إعلان باللسان عن إنعام المنعم ، واللسان أقوى دلالة من غيره ، وفيما أوردناه مايؤكد ماقاله ابن عطية من أن الشكر أعم من الحمد فهو يشمل القول والعمل ويدل لذلك قول الله تعالى : ﴿اِعْمَلُوا آلَ دَاوُدَ شُكْرًا﴾(سبأ/١٣) وقوله سبحانه : ﴿أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ﴾(لقمان/١٤) إذ ليس المطلوب من شكر الله ، وشكر الوالدين مجرد الاعتراف بالإحسان وإنما المطلوب القيام بحقوق عبادة الله كما أمر ، ومعاملة الوالدين بالإحسان وهو واضح في قوله سبحانه : ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ

إِحْسَانًا..الخ﴾(الإسراء/٢٣) وعرف بعض العلماء الشكر لغة بأنه فعل ينبئ عن تعظيم المنعم من حيث إنه منعم على الشاكر سواء كان قولا باللسان أم اعتقادا ومحبة بالجنان ، أم عملا وخدمة بالأركان ، واستُدُل لذلك بقول الشاعر :

أفادتكم النعماء مني ثلاثة   يدي ولساني والضمير المحجبا

فإن مراده من هذا أن النعماء سخرت لهم يده يخدمهم بها ، ولسانه يثني عليهم به ، والضمير المحجب يواليهم به ، وإذا القينا نظرة على هذا التعريف وجدنا بين الحمد والشكر عموما وجهيا ، فكل واحد منهما أخص من وجه وأعم من آخر ، أما الحمد فهو أخص موردا وأعم متعلقا لأن مورده اللسان وحده ومتعلقه النعمة وغيرها ، وأما الشكر فهو بعكس ذلك لأن مورده اللسان والقلب والجوارح ومتعلقه النعمة وحدها ، وهذا كما ذكرنا أن الحمد يكون على الفضائل كالشجاعة والكرم وغيرهما ، وبعض العلماء جعل تعريف الشكر المذكور نفسه تعريفا للحمد العرفي فيكون بين الحمدين اللغوي والعرفي كالذي بين الحمد والشكر اللغويين من العموم الوجهي ، ولست أدري ماهي حجة هؤلاء في جعل الحمد العرفي أعم موردا من الحمد اللغوي بحيث يكون باللسان وغيره ، وهؤلاء يرون أن الشكر العرفي هو صرف العبد جميع ما أنعم الله به عليه لما خُلق لأجله ، وهو سائغ نظرا إلى أن جميع آلاء الله تعالى تستدعي طاعته والقيام بحسن عبادته ، ويؤكد ذلك قوله تعالى : ﴿ إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴾(الإنسان/٣) وقوله على لسان سليمان عليه السلام : ﴿ لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ﴾(النمل/٤٠) على أن بعض العلماء يرى أن الحمد لايتصور أن يكون عملا لسانيا لايشامله عمل القلب والجوارح لأن حمد المحمود باللسان وحده من غير استشعار معناه بالقلب ولاتصديق له بالجوارح يعد سخرية واستخفافا ، وأُجيب بأن

استشعار معني الحمد بالقلب وتصديقه بعمل الجوارح شرطان له وليسا من جوهره ومما يستغرب منه دعوى القرطبي : إن الحمد ثناء على الممدوح بصفاته من غير سبق إحسان والشكر ثناء على المشكور بما أولى من الإحسان ، وهو مردود بالأحاديث الصحيحة التي أوردها القرطبي نفسه في تفسيره منها مارواه مسلم عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ : (إن الله ليرضي عن العبد أن يأكل الأكلة فيحمده عليها ، أو يشرب الشربة فيحمده عليها) وروى ابن ماجه عن أنس أيضا أن النبي ﷺ قال (ماأنعم الله على عبد نعمة فقال: الحمد لله إلا كان الذي أعطاه أفضل مما أخذ) ، وفي الكتاب العزيز مايدل على أن الحمد يكون في مقابل الإحسان فالله تعالى يقول تعليما لعباده كيف يحمدونه : ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ ، وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجاً..﴾(الكهف/١) ويقول : ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾(فاطر/١) وحكى عن أهل الجنة قولهم ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ، الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِنْ فَضْلِهِ لَايَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ﴾(فاطر/٣٤ . ٣٥) ويستغرب من القرطبي قوله عقب هذا .

وعلى هذا الحد قال علماؤنا الحمد أعم من الشكر لأن الحمد يقع على الثناء وعلى التحميد وعلى الشكر ، والجزاء مخصوص إنما يكون مكافأة لمن أولاك معروفا فصار الحمد أعم في الآية لأنه يزيد على الشكر ، فإن هذا الذى ذكره أخيرا يهدم ما بناه أولا حيث اشترط في الحمد أن يكون من غير سبق إحسان ، اللهم إلا أن يكون مراده أن الحمد يأتي تارة في مقابل نعمة وتارة بدونها كما صرح به ابن عطية وكما يفيده تعريف الحمد الذي ذكرناه ، وإذا كان هذا هو مراد القرطبي فهو معنى صحيح ولكن عبارته لم تف بمطلوبه .

و«ال» في الحمد قيل هي للاستغراق وعليه أبو حيان في (البحر) والقرطبي في تفسيره والألوسي «مع بعض تردد» والفخر الرازي في (مفاتيح الغيب) والشوكاني في (فتح القدير) وقطب الأئمة في (الهيميان) ونور الدين السالمي في (طلعة الشمس).

وقيل هي للجنس وعليه الزمخشري وكثير من الذين تأثروا برأيه ، ووهّم الزمخشري أصحاب الرأي الأول ، وحمل خصوم الزمخشري هذا التوهيم على أنه أراد به الانتصار لمذهبه الفاسد في خلق الأفعال فإنه إذا جعلت جميع صنوف المحامد محصورة في الله عز وجل كما يستلزمه القول بالاستغراق فات الزمخشري مطلوبه من جعل العباد الصالحين مستحقين لشيء من الحمد على خلقهم الأفعال الحسنة كما هي عقيدة المعتزلة في أن الإنسان يستقل بخلق أفعاله استقلالا تاما ، وللإمام نور الدين السالمي رحمه الله في أول «طلعة الشمس» بحث نفيس في هذه المسألة أطال فيه مناقشة الزمخشري في رأيه ، غير أن السيد الجرجاني انتصر للزمخشري في حاشيته على «الكشاف» بإيضاح لايدع مجالًا للشك في أن الزمخشري لم يرد برأيه هذا نصرة مذهبه في خلق الأفعال ، فإن اختصاص الجنس يستلزم اختصاص أفراده أيضا ، إذ لو وُجِدَ فرد منه لغيره ثبت الجنس له في ضمنه وإنما اختار الزمخشري الجنس على الاستغراق لأنه يُسْتَفَاد من جوهر الكلام ، ويستلزم اختصاص جميع الأفراد ، فلا حاجة في تأدية المقصود من إثبات الحمد له تعالى وانتفائه عن غيره إلى أن يلاحظ بمعونة الأمور الخارجية ، بل يكون على مااختاره اختصاص الأفراد بطريق برهاني فيكون أقوى من إثباته ابتداء .

وإذا كان إفراد الحمد على كلا القولين مختصة بالله سبحانه فإن في ذلك ما يفيد أن جميع النعم لاتصدر إلا عنه ﴿وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ﴾(النحل/٥٣) وفي تذكير الإنسان بذلك تحرير لرقبته من الذل لغير الله تعالى ،

ورفع للرؤوس حتى لاتتطأطأ لغير عزته وكبريائه ، ورفع من معنوية الإنسان فلايتعلق قلبه بغير الله سبحانه .

وجملة «الحمد لله» قيل إنها خبرية يراد بها الإخبار عن كون جميع المحامد لله سبحانه وقيل هي خبرية لفظا ، إنشائية معنى ، والظاهر أن معناها يحتمل الخبر والإنشاء بحسب قصد المتكلم بها ، وأما لفظها فخبري قطعا .

«الرب» مأخوذ من ربه يربه بمعنى نماه أو أصلحه أو ملَكَه ، ويقال أيضا ربّبه وربّته ورباه ، ويُطلق الرب على الملك كقول النابغة :ـــ

تخب إلى النعمان حتى تناله فذلك من ربٍّ تليدي وطارفي

ومنه قول الآخر :ـــ

وكنت امرأ أفضت إليك ربابتي وقبلك ربتني فضعت ربوب

ويطلق على المالك ، واستشهد له بقصة صفوان بن أمية مع أبي سفيان صخر بن حرب عندما نمى إلى أهل مكة بعد فتحها أن المسلمين هُزموا في حربهم مع هوزان وكان أبوسفيان لاتزال الجاهلية مترسبة في نفسه ، وكان صفوان لايزال على شركه فسُرّ أبوسفيان بما سمع ، وأخذت الحمية القرشية صفوان فغضب عليه وقال له «في فيك الكثكث لأن يربني رجل من قريش أحب إلي من أن يربني رجل من هوازن» يعني لأن يملكني رجل من قريش ـــ يقصد به رسول الله ﷺ ـــ أحب إلى من أن يملكني رجل من هوزان ، ويُطلق الرب على السيد والمصلح والمدبِّر ، وهذه المعاني قريب بعضها من بعض ، والله تعالى يربي عباده بالآلاء الظاهرة والباطنة التي يسبغها عليهم وهو مالك أمرهم ومدبره ، وجابر كسرهم ، ومصلح شأنهم .

«العالمين» جمع عالم وفي العالم خلاف ! هل هو مأخوذ من العلم أو العلامة ؟

فعلى الأول يطلق على ما من شأنه العلم ، فيقال عالم البشر وعالم الملائكة وعالم الجن وعالم الشياطين ، وعلى الثاني يطلق على كل ماكان علامة على وجود الله سبحانه فيشمل الكائنات كلها ، فإن كل ذرة في الوجود هي حجة قاطعة على وجوده سبحانه ، ودليل ساطع على صفاته اللائقة بجلاله ، ومن ثم يقول الإمام ابن أبي نبهان رحمهما الله : «إن كل ذرة في الوجود هي كلمة من كلمات الله سبحانه ، دالة على معرفته ، ناطقة بتوحيده ، وما عداها فهو كالشرح لتلك الكلمة» ونظرا إلى الاختلاف في اشتقاقه كلمة «العالم» وما توحيه القرائن اختلف المفسرون في المراد بالعالمين هنا ، فقيل يراد به السماوات والأرض وما فيهما وما بينهما رواه ابن جرير عن حبر الأمة ابن عباس رضي الله عنهما وروى عنه أن المراد بالعالمين الإنس والجن وهو محكي عن سعيد بن جبير ومجاهد واستدل له بقوله تعالى ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾(الفرقان/١) وقال الفراء وأبوعبيدة : يراد به العقلاء وهم أربعة أمم الإنس والجن والملائكة والشياطين ، ونسبه صاحب المنار إلى الإمام جعفر الصادق ، وأصح هذه الأقوال القول الأول لأن أحسن ما فسر به القرآن القرآن نفسه ، والله تعالى يقول : ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ ، قَالَ رَبُّ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَابَيْنَهُمَا..﴾(الشعراء/٢٣ ، ٢٤) وكل ذرة في الكون هي بحاجة إلى الرعاية والإصلاح والتنمية من قبل الله تعالى إذ لو تخلى سبحانه عن أي كائن في هذا الوجود في أقل من لحظة لما قر له قرار ، وتربية الله سبحانه تغمر كل كائن دقيقا كان أو جليلا وما من شيء إلا وهو ناطق بلسان حاله معلنا افتقاره إلى الله ذي الجلال ، ومن هنا ساغ أن يجمع العالم ـــ مع صدقه على مايعقل ومالايعقل ـــ فيقال العالمون إذ لافرق بين العاقل وغيره في دلالة حاله على احتياجه إلى واجب الوجود لذاته ، ويرى الإمام محمد عبده تغليب العاقل على غيره لنكتة لاحظتها العرب وهي أن

لفظ العالم لا يطلق على كل كائن وموجود فيقال عالم الحجر وعالم التراب وإنما يطلق على كل جملة متمايزة لأفرادها صفات تقربها من العاقل الذي جمعت جمعه إن لم تكن منه فيقال عالَم الإنسان وعالَم الحيوان وعالَم النبات ثم قال ونحن نرى أن هذه الأشياء هي التي يظهر فيها معنى التربية الذى يعطيه لفظ رب لأن فيها مبدأها وهو الحياة والتغذي والتولد ، وهذا ظاهر في الحيوان ثم حكى عن أستاذه السيد جمال الدين الأفغاني أن الحيوان شجرة قطعت رجلها من الأرض فهي تمشي والشجرة حيوان ساخت رجلاه في الأرض فهو قائم في مكانه يأكل ويشرب وإن كان لا ينام ولا يغفل .

ويتضح لك مما ذكرناه سابقا أن التربية تظهر في كل شيء وليس ظهورها محصورا في الأصناف التي ذكرها الأستاذ الإمام ، وللعلماء أقوال في جمع العالَم مع أن العالَم اسم جنس يستغرق جميع أفراده من غير أن يجمع وأحسن ما يقال أنه أريد بالجمع إدخال جميع أجناس العالَم المختلفة في مدلول هذه الكلمة بينما يحصل استغراق أفراد هذه الأجناس بالتعريف إذ لو قيل رب العالَم لربما توهم أن المراد به جنس من أجناس العالَم كالبشر أو الملائكة أو الجن ، أما بهذه الصيغة فلا يبقى مجال لتوهم ذلك .

وتربية الله للعالمين تنقسم إلى قسمين : تكوينية وتشريعية . فالتكوينية ظاهرة على كل شيء ولنأخذ الإنسان مثلًا لذلك فان الله أوجده من خلية مهينة حقيرة إذا نظرت بالمجهر لم تكد تبصر لدقتها المتناهية ولكن لم تلبث أن تطورت بأطوار تربية الله المختلفة حتى خرج منها بشر سوي سميع بصير يفكر ويقدر ويدبر ويعلم ويريد ، يتميز بقدرات معنوية مع ما أوتيه من قوة حسية ، أهلّه كل ذلك للخلافة في الأرض والاضطلاع بأمانة ثقلت على السموات والأرض والجبال فأبينَ أن يحملنها وأشفقن منها ، وكل ما يسره الله سبحانه للإنسان من قوام جسده داخل في حدود تربيته التكوينية .

وأما التربية التشريعية فالإنسان هو المستهدف بها وإن عم أثرها غيره وهى تتمثل في رسالات الله التي بعث بها رسله المصطفين لإخراج الناس من الظلمات إلى النور وجمع شتاتهم وتوجيه عقولهم وأفكارهم وتصفية فطرهم وطبائعهم وكما أن الخلق لا يكون إلا من الله والبشر مهما أوتوا من قوة لن يخلقوا ذبابا ، فإن التشريع الصالح للإنسانية لا يكون إلا منه سبحانه وتعالى أما التشريعات البشرية فما هي إلا مصدر شقاء الإنسانية وبلائها إذ لا يمكن أن تؤلف بين الأجناس المختلفة في العادات والظروف ولا أن تجمع بين الرغبات المتباينة ، ولا يصح أن تعتبر من التربية في شيء ، وكل من تسول له نفسه فيشرع من الأحكام ما لم يأذن به الله كمن تسول له نفسه بأنه يستطيع أن يشارك الله تعالى في خلقه تعالى الله عن ذلك .

﴿ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴾ سبق تفسيرهما وبقى النظر في إعادتهما وللمفسرين في ذلك آراء منهم من يرى هذه الإعادة دليلا على أن البسملة ليست من الفاتحة إذ لو كانت من الفاتحة لما كان معنى لتكرار ما جاء فيها من غير داع إلى ذلك ، ومن هؤلاء ابن جرير الطبري فقد جعل من هذه الإعادة دليلا على خطأ القائلين بأن البسملة من الفاتحة ثم التفت إلى ما جاء في القرآن مما ظاهره التكرار نحو قوله تعالى : ﴿ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ في سورة الرحمٰن وقوله : ﴿ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴾ في سورة المرسلات وأجاب بأن ذلك إنما يكون مع الفاصل وما قبل ﴿الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾ في سورة الفاتحة لا يكفي لأن يعد فاصلا وبنى ذلك في رأيه على ما حكاه عن جماعة من أهل التأويل بأن في التركيب تقديما وتأخيراً والأصل ﴿ الْحَمْدُ لله الرحمن الرحيم رب العالمين مالك يوم الدين ﴾ وبين سبب هذه الدعوى أن الأصل في التركيب أن يكون كل شيء مع مناسبه وفي الآيات وصف الله سبحانه بالربوبية والرحمة والملك ، والربوبية أليق أن تكون بجانب الملك والرحمة بجانب الالوهية المستفادة من اسم الجلالة ، وذكر أن التقديم والتأخير مما لا يستنكر في الوضع العربي والشواهد عليهما قائمة في القرآن نفسه ومن سائر الكلام العربي ، وذكر من القرآن شاهدا على ذلك قول الله تعالى : ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا قَيِّمًا ... ﴾ (الكهف / ١) فإن في التركيب — حسبما يقول — تقديما وتأخيرا والأصل ﴿ الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب قيما ولم يجعل له عوجا ﴾ واستشهد لذلك من كلام العرب بقول جرير :

طاف الخيال وأين منك لماما ... فارجع لزورك بالسلام سلاما

فالأصل : طاف الخيال لماماً وأين منك هو .. وهذا الذي اعتمده ابن جرير ونسبه إلى جماعة من أهل التأويل نسبه أبو حيان في البحر المحيط

إلى مكي وقال : لولا جلالة قائله لنزهت كتابي عن ذكره ثم ذكر أبو حيان علوَّ بلاغة القرآن وجمال أسلوبه في تركيب كلماته ورصف جمله فلا وجه للدعوى بأنه قدم فيه ما حقه التأخير أو أخر ما حقه التقديم وأضاف إلى ذلك بأن الله سبحانه وصف نفسه في الفاتحة بالربوبية والرحمة ، وذكر فيها حمده وعبادته ، ووصف الربوبية يقتضي استحقاق الحمد ، ووصف الرحمة يقتضى استحقاق العبادة ، وقد وُضع كل واحد من الوصفين بجوار ما يلائمه .

هذا وضعف كلام ابن جرير أظهر من أن يحتاج إلى الكشف ، فان عبارات القرآن الكريم لا يصح أن تُحمل على خلاف الأصل إلّا لأمر يقتضي الخروج عنه ولا داعي هنا للتقديم والتأخير ، ولا يصح أن يُحمل التركيب القرآني الذي هو أبلغ تركيب في الكلام على ما قد يضطر الشعراءَ إليه في شعرهم محافظتُهم على الوزن والقافية ، فإن للشعر أحكاما لا تكون حتى للكلام المنثور ، وقد يفضى الإضطرار بالشعراء إلى الإتيان بتركيب ممجوج تأباه الفصاحة ، نحو قول الفرزدق :

وما مثله في الناس إلا مملكا   أبو أمه حيٌّ أبوه يقاربه

وقد أجمع علمَاء البلاغة على رداءة هذا التركيب ، فهل يصح أن يُحمل عليه أو على مثله شيء من التركيب القرآنى الذى يتعالى عن الضرورات ، ويعلو على كل العبارات ، وأما قول الله تعالى في فاتحة الكهف ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا ، قَيِّمًا ﴾ فإن كل كلمة فيه قد جاءت في موضعها من غير تقديم ولا تأخير ، فإن الله سبحانه ابتدأ بنفي العوج عن كتابه ثم أكد هذا النفي بوصفه أنه قيّم والتأكيد يأتي بعد المؤكد ، وقد اجتمع من نفي العوج عن الكتاب ووصفه أنه قيّم نفى النقص عنه وإثبات الكمال له ، وإذا ألقينا نظرة على ترتيب

كلمات الفاتحة الشريفة وجدنا كل كلمة جاءت في موضعها بحسب ما يقتضيه معناها ، وتصدير الفاتحة بعد البسملة بجملة ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ أمر تقتضيه الرسالة التي بُعث بها النبي عليه أفضل الصلاة والسلام وبُعث بها النبيون من قبله فإن رسالات جميع المرسلين تلتقي على الدعوة إلى توحيد الله تعالى ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴾ وقد كانت دعوة كل رسول يواجه بها قومه ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ﴾(الأعراف/٥٩) فلا غرو أذا رأينا أم القرآن الكريم تُصدِّر ـــ بعد البسملة التي تشترك فيها مع غيرها من السور ـــ بجملة تستأصل جذور الشرك والوثنية من قلوب العباد وتغرس فيها شجرة التوحيد الخالص ، كيف وقد جمعت الفاتحة مقاصد القرآن ، والتوحيد أسمى مقاصده ، وقد كان القرآن منذ بداية نزوله يواجه تلك الوثنية العاتية المتأصلة في نفوس العرب ، فما أنسب أن تكون بداية هذه السورة الكريمة معنية ببناء صرح العقيدة الصّحيحة التي ترجع إليها جزئيات الأعمال في الإسلام ، إذ مامن شيء من أعمال المسلم التي يطالب بها إلا وهو إما أن يكون مبدا للعقيدة أو منبثقا منها ، فالشعائر التعبدية كلها وقود لمشكاتها وصقل لمرآتها والشريعة الجامعة التي شرعها الله هي من مقتضياتها ولوازمها ، فإن إنفراد الله سبحانه بالربوبية والألوهية يقتضي أن لايُستمد منهج الحياة إلّا منه ، ولا ريب أن ذوي الفطرة السليمة إذا قرع مسامعهم قول الحق سبحانه : ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ وتصوروا معناه داخلت قلوبهم هيبه تجف منها نفوسهم وترتجف منها أوصالهم لما يدركونه من عظمة الخالق سبحانه الذي يخضع لجلاله كل كائن في الوجود ، ويذل لكبريائه كل عزيز وعظيم ، فلا عجب إذا تُلّيَ ذلك بوصف الرحمن الرحيم لإفاضة الطمأنينة على هذه القلوب الواجفة وإنزال السكينة على هذه النفوس المضطربة عندما تشعر بأن هذه الربوبية هي

ربوبية رحمه وإحسان ، والألوسي الذي تشدد في إنكار كون البسملة آية من الفاتحة يتفق هنا معنا على ضعف هذه الحجة ، وأوضح أن هذا التكرار لفائدة وهي أن ذكرهما في البسملة تعليل للإبتداء بإسمه عزّ شأنه وذكرهما هنا تعليل لاستحقاقه تعالى الحمد ، والرّازي يرى أن حكمة التكرار تشويق القلوب إلى رحمة الله تعالى كأنه قيل : اذكر أني إله ورب مرة واحدة ، واذكر أني رحمن رحيم مرتين لتعلم أن العناية بالرحمه أكثر منها بسائر الأمور ، ثم لما بين الرحمة المضاعفة فكأنه قال : لاتغتروا بذلك فإني مالك يوم الدين ، ونظيره قوله تعالى : ﴿غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ﴾(غافر/٣) وتعقب الألوسي كلام الرازي بأن الألوهية مكررة أيضا يشير بذلك إلى ذكر اسم الجلالة في البسملة وإعادته في جملة الحمد لله ، وذكر الإمام محمد عبده نكتة ظاهرة في إعادة هذين الوصفين الكريمين وهي أن تربيته تعالى للعالمين ليست لحاجة به إليهم كجلب منفعة أو دفع مضرة وإنما هي لعموم رحمته وشمول إحسانه ، ثم أشار إلى النكتة التي ذكرناها من قبل وهي أن مراده تعالى بهذا التكرير أن يتحبب إلى عباده فعرفهم أن ربوبيته ربوبية رحمة وإحسان ليكون في ذلك حافز لهم على اكتساب مرضاته وتجنب ما يؤدي إلى سخطه..إلى آخر ماذكر .

ويرى السيد رشيد رضا أنه لاوجه للبحث في عد ذكر «الرحمن الرحيم» في سورة الفاتحة تكرارا أو إعادة مطلقا ، وبين أن ذلك ظاهر على القول بأن البسملة ليست آية منها، وأما على القول بأنها آية منه فيحتاج إلى بيان ، وأوضح وجهه وهو أن المراد من جعلها آية منها ومن كل سورة أن النبي ﷺ كان يلقنها ويبلغها الناس إعلانا منه بأن السورة التي صُدرت بها منزلة من عند الله لتكون رحمة لخلقه بما تشتمل عليه من هدايه ، وأنه عليه أفضل الصلاة والسلام لم يكن له كسب فيها ولاصنع ، وماهو إلا مبلغ لها بأمر الله

تعالى ، فلذلك كانت مقدمة للسور كلها إلا سورة براءة المنزلة بالسيف وكشف الستار عن نفاق المنافقين ، فهي بلاء على من أنزل أكثرها في شأنه لا رحمة بهم ، ثم قال : وإذا كان المراد ببدء الفاتحة بالبسملة أنها منزلة من الله رحمة بعباده فلاينافي ذلك أن يكون من موضوع هذه السورة بيان رحمة الله تعالى مع بيان ربوبيته للعالمين ، وكونه الملك الذي يملك وحده جزاء العاملين على أعمالهم وأنه بهذه الأسماء والصفات كان مستحقا للحمد من عباده ، كما أنه مستحق له في ذاته ، ولهذا نُسب الحمد إلى اسم الذات الموصوف بهذه الصفات ، ثم أضاف إلى ذلك أن الحاصل أن معنى الرحمة في بسملة كل سورة هو أن السورة منزلة برحمة الله وفضله فلا يُعد ماعساه يكون في أول السورة أو أثنائها من ذكر الرحمة مكررا مع مافي البسملة وإن كان مقرونا بذكر التنزيل كأول سورة فصلت ﴿حمٓ ، تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيْمِ﴾(فصلت/١ ، ٢) لأن الرحمة في البسملة للمعنى العام في الوحي والتنزيل وفي السور للمعنى الخاص الذي تبينه السوره..الخ .

هذا وبما أن القرآن الكريم أنزله الله ليكون هدًى للمؤمنين ، فإن كل كلمة منه تشع منها الهداية ، وبإمكان تاليه أن يستفيد بكل ما يتلوه في تهذيب نفسه وتربية ضميره ، وذكر صاحب «المنار» أن حظ العبد من وصف الله تعالى بالربوبية أن يحمده تعالى ويشكره باستعمال نعمه التي تتربى بها القوى الجسدية والعقلية فيما خلقت لأجله مستشعرا عظم المنة من الله سبحانه عليه من غير أن يكون تعالى محتاجا إليه ، وفي هذا ما يدعوه إلى إحسان تربية نفسه وتربية من يوكل إليه تربيته من أهل وولد ومريد وتلميذ ، واستعمال نعمته بهداية الدين في تربية نفسه الروحية والإجتماعية ، وكذا تربية من يوكل إليه تربيتهم ، وأن لايبغي كما بغى فرعون فيدعى أنه رب الناس ، وكما بغى فراعنة كثيرون ولايزالون يبغون بجعل أنفسهم شارعين يتحكمون في دين

الناس بوضع العبادات التي لم ينزلها الله تعالى ، وبقولهم هذا حلال وهذا حرام من عند أنفسهم أو من عند أمثالهم فيجعلون أنفسهم شركاء لله في ربوبيته قال تعالى : ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَالَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ﴾(الشورى/٢١) وفسر النبي ﷺ اتخاذ أهل الكتاب أحبارهم ورهبانهم اربابا من دون الله بمثل هذا .

وذكر صاحب المنار أيضا أن حظ العبد من وصف الله بالرحمة أن يطالب نفسه بأن يكون رحيما بكل من يراه مستحقا للرحمة من خلق الله تعالى حتى الحيوان الأعجم ، وأن يتذكر دائما أن ذلك هو طريقه إلى رحمة الله فإن النبي ﷺ يقول : (إنما يرحم الله من عباده الرحماء) رواه الطبراني عن جرير بسند صحيح وقال : (الراحمون يرحمهم الله تبارك وتعالى ، ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء) رواه أحمد وأبو داود والحاكم من حديث ابن عمر ، وقال ﷺ (من رحم ولو ذبيحة عصفور رحمه الله تعالى يوم القيامة) رواه البخاري في «الأدب المفرد» والطبراني عن أبي أمامه وأشار السيوطي إلى صحته .

﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ في هذه الآية الكريمة تقرير لحقيقة هامة جاء القران الكريم ليقررها بكثير من آياته وهي كلية من كليات العقيدة الإسلامية الصحيحة وضرورة من ضرورات الفكر الإنساني الذي تصدر عنه التصرفات والأعمال وتقوم على أساسه حياة الإنسان فإن الإيمان باليوم الآخر ليس هو من الأمور الهامشية التي لاصلة لها بعمق الفكر ولا أثر لها في واقع الحياة ولكنه ركيزة أساسية في بناء الحياة الفكرية والعملية ، ولذلك نجد الإيمان به يأتي رديف الإيمان بالله في الذكر سواء في آيات الكتاب أو في أحاديث الرسول ﷺ خصوصا عندما يستدعي الحال تأكيد أمر أو نهي فكثيرا ما يأتي في القرآن ﴿لمن كان يرجو الله واليوم الآخر﴾ أو مايفيد مفاد هذا التعبير في حال التأكيد ، كما أنا نسمع كثيرا في حديث رسول الله ﷺ (من كان يؤمن بالله واليوم الآخر..فليفعل كذا) أو (من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يفعل كذا) وفي ذلك مايكفي برهانا أن الإيمان باليوم الآخر كالإيمان بالله في عمق أثرهما في سلوك الإنسان وقوة تأثيرهما في توجيه ميوله ورغباته وضبط غرائزه ونزعاته ، وهذا لأن الإيمان بالله يعني الإيمان بالمبدأ والإيمان باليوم الآخر يعني الإيمان بالمصير وهل تبقى للإنسان قيمة إن جهل المبدأ أو المصير ، وماذا عسى أن تكون حالة هذا الإنسان الذي يعيش على هامش الحياة لايستشعر حقوقا عليه لمبدئه ، ولامسئولية يخشى مغبتها في مصيره وإنما يلهو ويمرح ويأكل ويشرب ويسافد ويتناسل شأن البهائم التي لاعقل لها ولاضمير أما إذا أدرك واستيقن أن له مُبدئا أخرجه من العدم واسبغ عليه صنوف النعم وبوأه في الأرض ومكن له فيها فإن إدراكه لذلك يحيي في نفسه شعورا لافتقاره إلى تحري مرضاة هذا المبدىء الكريم والخالق العظيم فيدعوه ذلك إلى أن يستمد منه منهج حياته وميزانه الذي يعرف به الخير والشر والنفع والضر ولكنه مع ذلك قد يتعامى عن قصد السبيل لما يتجاذبه من طبائع النفس

ويتقاضاه من مطالب الحياة فهو واقع بين العواطف الملتهبة والغرائز الجارفة والمطالب المختلفة والدوافع المتنوعة فلاعجب إذ أنساه ذلك مايجب عليه تجاه خالقه وتجاه الخلق ، ولكن إيمانه بالمنقلب الذي يلقى فيه جزاءه يجعله يستعلي على ضرورات حياته ورغبات نفسه ودوافع غرائزه فلا يجعل العواطف أساسا لتعامله مع الناس ولا الغرائز مقياسا للنفع والضر والخير والشر ، وحياة الإنسان في الأرض حياة محدودة بل حياة وهمية إذ لا يعرف أحد مقدار بقائه فيها فهو ينتظر فراقها بين لحظة وأخرى ، فإذا لم يؤمن بحياة أطول يجازى فيها على عمله كان ذلك داعيا إلى التقاعس عن الخير واستغلال ما يمكن من المنافع العاجلة ولو على حساب الآخرين وما الذي يدعوا الإنسان إلى التفاني في البر وهو غير واثق من إستيفاء جزائه في هذه الحياة الدنيا ولارائج حياة أخرى يطمع فيها أن يلقى أجر ماكسب ، وعدم الإيمان بالمعاد مدعاة للقلق بسبب عدم وثوق الإنسان من التعمير في هذه الدنيا ، وهبه معمرا فيها فإنه لابد له من يوم يواجه فيه الموت الكريه ، فهو يحسب حسابه بإستمرار ليوم فنائه الذي يفرق ماجمع ، ويأتي على ماكسب ، وما الليل والنهار إلا مطيته الدؤب التي تسير به إلى ذلك اليوم وهذا يدعوه ــ مع عدم إعتقاد المَعَاد ــ إلى التكاسل عن واجباته الإجتماعية ، أما إذا وثق بأنه سيعاد كما كان مرة أخرى وسيوفى جزاء عمله فإن وثوقه بذلك سبب لطمأنينة نفسه ونشاطها في العمل .

والمشركون الذين كان القرآن يواجههم كانوا يؤمنون إيمانا جزئيا بالله الخالق العظيم سبحانه وتعالى ، فالله تعالى يقول عنهم : ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾(لقمان/٢٥) ولكنهم فاقدون الإيمان بيوم البعث وهذا جعلهم يعيشون بلا هدف ويحيون للشهوات الدنيئة ، فقد حكى الله تعالى عنهم قولهم : ﴿أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَٰلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ﴾(ق/٣) وقولهم

﴿أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ أَوَآبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ﴾(المؤمنون /٨٢ ، الصافات /١٦ : ١٧ ، الواقعة /٤٧ : ٤٨) وكان القرآن الكريم يواجههم بالأمثال المختلفة التي يضربها لهم لتبديد شبههم وتفريق أوهامهم ، فاسمع إلى قول الله تعالى : ﴿يَاأَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَى وَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ﴾(الحج /٥ : ٧) وإلى قوله : ﴿أَوَلَمْ يَرَ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقِدُونَ ، أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَى وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ﴾(يس /٧٧ : ٨١) تتصور تلك المعركة الحامية الوطيس ، معركة الجدال في اليوم الآخر .

وقوله تعالى : ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ جاء في هذه السورة الكريمة لقرن الترهيب بالترغيب ، فإن الآيات السابقة آيات مبشرات ، وقد قضت سنة الله في كتابه أن يجتمع الوعد والوعيد غالبا في آية أو آيات متجاورة لحكمة بالغة علمها الله تعالى ، فإن العباد بحاجة إلى تربيتهم بالترغيب والترهيب ، وإيقاظ الشعور بالخوف والرجاء في نفوسهم لينشطوا للأعمال الصالحة

بباعث الرجاء ، وليحاذروا الأعمال السيئة لداعي الخوف ، وفي الآية قراءات : «قرأ عاصم والكسائي ويعقوب وخلف في مختاره (مالك يوم الدين)، قال الألوسي : وهي قراءة العشرة إلا طلحة والزبير ، وقراءة كثير من الصحابة منهم أُبيٌّ وابن مسعود ومعاذ وابن عباس والتابعين منهم قتادة والأعمش »

وذكر ابن عطية في تفسيره عن مكي أنه نسبها ـ فيمن نسبها إليهم ـ إلي طلحة والزبير أيضا ، وقرأ باقي السبعة «مَلِكِ يوم الدين» ، ونُسبت إلى زيد وأبي الدرداءوابن عمرو وكثير من الصحابة والتابعين ، وروى أحمد بن صالح عن ورش عن نافع «ملكي»بإشباع كسرة الكاف ، وروي عن أبي عمرو من السبعة «مَلْكَ يوم الدين» بتسكين اللام ، وثم قراءات أخرى منها : «مَلَك يوم الدين»بفتح اللام فعلًا ماضياً،و«مالكَ»بالنصب و«مالكًا» بالنصب والتنوين ، و«مالكٌ» بالرفع والتنوين ، و«مالك..»بالرفع والإضافة ، و«مالكَ» بالنصب والإضافة ، و«مليك» على وزن عظيم ، وهي قراءات شاذة لايقرأ بها في الصلاة ، وإنما المشهور القراءتان الأوليان .

وروي الترمذي في سننه عن أم سلمة رضي الله عنها أن النبي ﷺ كان يقرأ «ملك» بغير ألف ، وأخرج نحوه ابن الأنباري عن أنس ، وأخرج أحمد والترمذي عن أنس رضي الله عنه أن النبي ﷺ وأبا بكر وعمر وعثمان كانوا يقرأون «مالك» بالألف ، وأخرجه الحاكم وصححه عن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعا ، ورواه الطبراني في «الكبير» عن ابن مسعود رضي الله عنه عن النبي ﷺ ، ونحوه عند سعيد بن منصور عن ابن عمر رضي الله عنهما ، واخرجه أيضا وكيع في تفسيره وعبد بن حميد وأبو داود عن الزهري يرفعه مرسلا ، وأخرجه ابن الرزاق في تفسيره وعبد بن حميد وابو داود عن ابن المسيب يرفعه أيضا ارسالا إلى رسول الله ﷺ قال الشوكاني في

تفسيره : وقد روي من طرق كثيرة فهو أرجح من الأول ، وللعلماء خلاف في ترجيح إحدى القراءتين على الأخرى مع الإجماع أن كلتيهما صحيحتان ثابتتان عن النبي ﷺ .

ذهب إلى ترجيح «ملك يوم الدين» طائفة منهم المبرد وأبو عبيد من أئمة العربية وعليه ابن جرير الطبري والزمخشري والجرجاني والقرطبي وقطب الأئمة والإمام أبو نبهان والسيد محمد رشيد رضا .

وذهب إلى ترجيح «مالك يوم الدين» طائفة أخرى منهم أبو حاتم وابن العربي وابن عطية والشوكاني والإمام محمد عبده ، ولكل حجة .

أما الأولون فيحتجون لرأيهم بأن قراءة «ملك» هي قراءة أهل الحرمين وهم أجدر أن يقرأوا القرآن غضا طريا كما أُنزل ، وبأنها تعتضد بقوله تعالى في وصف يوم الدين ﴿لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ﴾ وبقوله تعالى في سورة الناس وهي آخر القرآن ترتيبا «ملك الناس» وبأن نفوذ الملك أعم من نفوذ المالك وبأنه يلزم على قراءة «مالك» نوع تكرار لأن الرب بمعناه أيضا ، وبأنه سبحانه وصف ذاته المتعالية بالملك عند المبالغة في قوله ﴿مَالِكَ الْمُلْكِ﴾(آل عمران/٢٦) والملك مأخوذة من المُلْك بالضم بخلاف المالك فإنه من المِلك بالكسر ، واعترض على الأول بأن قراءة أهل الحرمين لاتدل على الرجحان لأنه لو سلم كون أوائلهم أعلم بالقرآن لم يسلم ذلك في عهد القراء المشهورين ، ومن المعلوم أن صحيح البخاري مقدم على موطأ مالك مع أن مالكاً هو عالم المدينة على أن القراءات المشهورة كلها متواترة وبعد التواتر المفيد للقطع لايلتفت إلى أصول الرواة ، وقول بعضهم : لا يخفي أن أهل الحرمين قديما وحديثا أعلم بالقرآن والأحكام مردود بأنه لو ثبت ذلك لأقتضى ترجيح روايتهم على كل رواية والأخذ برأيهم دون من سواهم ، واعترض على الثاني بأن عضد قراءة «ملك» بقوله تعالى : ﴿لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ﴾(غافر/١٦) يمنعه قوله

سبحانه عن ذلك اليوم : ﴿يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا﴾(الانفطار/١٩) فإنه أراد به يوم القيامة وهو يوم الدين ، ونفى المالكية عن غيره يقتضي إثباتها له ، لأن السياق لبيان عظمته تعالى ، ويعضده قوله من بعد : ﴿وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ﴾(الانفطار/١٩) فإن المقصود بالأمر واحد الأمور لا الأوامر ، واعترض على الثالث بأن ما في سورة الناس يختلف عما في سورة الفاتحة لأنه لو قُرِيء هنالك «مالك الناس» لتكرر معناه مع مافي رب الناس وأما هنا فلا تكرار لإختلاف المقام ، واعتُرِض على الرابع بأنه لايلزم أن يكون الملك أعمّ من المالك بل بينهما العموم الوجهي ويُتصور ذلك فيمن شمل ملكه مدينة فيها الكثير من الناس والممتلكات ، ولكن لامِلك له فيها ــ بالكسر ــ فهو ملك غير مالك بالنسبة إليها ، وأصحاب المِلك ــ بالكسر ــ هم الذين لهم مطلق التصرف فيما يمتلكون دون الملك ، واعتُرض على الخامس بأن دعوى التكرار مدفوعة وهي أيضا لازمة على قراءة ملك إن فُسِّر الرب بالملك كما ذكره الجوهري ، وقد أوردنا بعض الشواهد لذلك في تفسير الرب واعترض على السادس بأن قوله تعالى : «مالك الملك» أدل على المالكية منه على الملكية ، وإضافة المالك إلى الملك تدل على أن المالك أبلغ من الملك لأن المُلك ــ بالضم ــ قد جعل تحت حيطة المالكية لأنه أحد مملوكاته .

وأما الآخرون فيحتجون أيضا بأدلة ، منها أن في قراءة مالك حرفا زائدا ، ولكل حرف في التلاوة عشر حسنات كما جاء في الحديث ، فكانت قراءته أكثر ثوابا ، ومنها أن المالك أقوى تصرفا في مِلكه من الملك في مُلكه لأن الملك هو الذي يدبر أعمال رعيته العامة ولاتصرف له بشيء من شئونهم الخاصة ، قال الإمام محمد عبده : (وإنما تظهر هذه التفرقة في عبد مملوك في مملكة لها سلطان ، فلا ريب أن مالكه هو الذي يتولى جميع شئونه دون السلطان) ، ومنها أن الملك ملك للرعية ، والمالك مالك للعبيد والعبد أدون

حالا من الرعية ، فوجب أن يكون القهر في الملكية أكثر منه في المالكية ، فوجب أن يكون المالك أعلى حالا من الملك ، ومنها أن الرعية يمكنهم التخلص عن كونهم رعية ملكهم بإختيار أنفسهم وذلك بانتقالهم عن مملكته إلى مملكة أخرى وحملهم جنسية جديدة ، أما المملوك فلا يمكنه إخراج نفسه أن يكون مملوكا لمالكه وهذا يدل على أن القهر في المالكية أكمل منه في الملكية ، ومنها أن المملوك مطالب بخدمة المالك وليس له أن يستقل بأمره دونه ، ولا يجب على الرعية خدمة الملك وهذا يعني أن الإنقياد والخضوع في المملوكين أبلغ منهما في الرعايا ، ومنها أن المالك يحق له بيع مملوكه ورهنه بخلاف الملك فلا يحق له بيع رعيته ، ومنها أن المالك يضاف إلى العاقل وغيره ، فيُقال مالك الناس ، ومالك الدواب ، ومالك الأرض ، ومالك الشجر ، أما الملك فلا يضاف إلى مُطلق هذه الأشياء بل يُضاف إلى الناس لأنهم عقلاء ، ونحن إذا أمعنا النظر لم نجد فائدة في هذا الإختلاف ، فالقراءتان صحيحتان مشهورتان ، وكل واحدة منهما تؤكد معنى ، فالله تعالى قد وصف نفسه في التنزيل بأنه ملك ومالك ، فقد قال : ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ﴾(الحشر/٢٣) وقال : ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ﴾(آل عمران/٢٦) .

فلا داعي إلى ترجيح إحدى القراءتين على الأخرى مع ثبوتهما جميعا عن رسول الله ﷺ ، وإنما أختار أن يلتزم القاريءفي الصلاة وفي غيرها القراءة التي اعتادها ، فلا تكون قراءته للقرآن مركبة بعضها بقراءة قاريء وبعضها بقراءة قاريء آخر ، فنحن هنا في المشرق نقرأ بقراءة عاصم فعلينا أن نقرأ (مالك) في الصلاة وفي غيرها إلا إذا أراد أحدنا أن يقرأ في الصلاة بقراءة أحد القراء السبعة الآخرين فعليه أن يلتزم تلك القراءة في كل شيء لافي (ملك) فحسب ، وكذلك إذا أراد أحدنا أن يتلو القرآن خارج الصلاة

بقراءة قاريء آخر فعليه أن يلتزمها من أول القرآن إلى آخره لا أن يقرأ بعضه بقراءة وبعضه بقراءة أخرى ، أما أهل شمال افريقيا وغربها فهم يقرأون بقراءة نافع ، فالأولى بهم أن يقرأوا (ملك) لئلا يخرجوا عن التركيب الذي ذكرته اللهم إلا أن يريد أحدهم أن يقرأ في صلاة بعينها أو في كل الصلوات أو في تلاوة بعينها أو في جميع التلاوات بقراءة قاريء آخر فله ذلك على أن يلتزم ما تقتضيه تلك القراءة من أحكام ، أما إذا نظرنا إلى ماتدل عليه الكلمتان وجدنا أن كلمة مالك أبلغ في التنصيص على عدم وجود من يملك في ذلك اليوم شروى نقير إذ إنفراد أحد بكونه ملكا في زمان أو مكان لا يمنع من وجود ملاك تحته بخلاف ما إن (انفرد بكونه مالكا) ومن هنا قال أبو حاتم : إن مالكا أبلغ في مدح الخالق من ملك وملك ابلغ في مدح المخلوقين من مالك ، والفرق بينهما أن المالك من المخلوقين قد يكون غير ملك وإذا كان الله مالكا كان ملكا ، وبهذا تعلم أن الخشوع الذي تثيره قراءة مالك لا يقل عما تثيره قراءة ملك ، وإن قال السيد محمد رشيد رضا في «المنار» بخلاف ذلك مستدلا لما يقوله بأن الملك هو المتصرف في أمور العقلاء المختارين بالأمر والنهي والجزاء ، والمراد بالآية تذكير المكلفين بما ينتظرهم من الجزاء على اعمالهم رجاء أن تستقيم أحوالهم .

وإنما قلت بأن القراءتين جميعا تؤثران الخشوع في القلب بالسواء نظرا إلى أن المالك لذلك اليوم هو الذي وعد وتوعد ولا اخلاف لوعده أو وعيده ولا تبديل لكلماته فليس معنى لما يقوله السيد رشيد رضا من أن قراءة ملك أكثر تأثيرا في الخشوع ولا يلزم من هذه القراءة أن يكون معناها تكرارا لما في رب العالمين لأن ذكر الخاص بعد العام إنما هو دليل الاهتمام به ولا يعد من التكرار ، وذكر ابن عطية والقرطبي في تفسيريهما عن أبي على أن أبا بكر بن السراج حكى عن بعض من اختار القراءة بملك ، أن الله سبحانه قد وصف

نفسه بأنه مالك كل شيء بقوله : ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ فلا فائدة في قراءة من قرأ مالك لأنها تكرير قال أبو على : ولاحجة في هذا لأن في التنزيل أشياء على هذه الصورة تقدم العام ثم ذكر الخاص كقوله تعالى : ﴿هُوَ اللهُ الْخَالِقُ الْبَارِىءُ الْمُصَوِّرُ﴾(الحشر/٢٤) فالخالق يعم وذكر المصور لما في ذلك من التنبيه على الصنعة ووجود الحكمة ، وكما قال تعالى : ﴿وَبِالآخِرَةِ هُمْ يُوْقِنُونَ﴾(البقرة/٤) بعد قوله : ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾(البقرة/٣) والغيب يعم الآخرة وغيرها ولكن ذكرها لعظمها والتنبيه على وجوب اعتقادها والرد على الكفرة الجاحدين لها ، وكما قال : ﴿الرَّحْمٰنُ الرَّحِيمُ﴾ فذكر الرحمن الذي هو عام وذكر الرحيم بعده لتخصيص المؤمنين به في قوله : ﴿وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيماً﴾(الأحزاب/٤٣) .

والإضافة في مالك كالإضافة في ملك ليست مجرد إضافة لفظية فالتعريف بها حاصل ولذلك جاز وصف اسم الجلالة بها ويوم الدين وإن كان مستقبلا فإنه لتحقق وقوعه نازل منزلة الشيء الكائن وملك الله تعالى له أمر ثابت .

وكون الله تعالى مالك ذلك اليوم يعني أنه مالك لكل مافيه لأن الزمان كالمكان تقتضي الإضافة إليه شمول ما ينطوي عليه ، وقد جاء ذكر يوم الدين في كثير من آيات الكتاب العزيز في معرض التخويف من الجزاء وبيان عاقبة القوم الظالمين من ذلك قوله سبحانه : ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ ، ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ ، يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئاً وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ﴾(الانفطار/١٧ : ١٩) وقوله : ﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَامِ وَنُزِّلَ الْمَلَائِكَةُ تَنْزِيلًا الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمٰنِ وَكَانَ يَوْماً عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيرًا﴾(الفرقان/٢٥ ، ٢٦) وقوله : ﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَاتَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ ، فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَاؤُمُ اقْرَأُوا كِتَابِيَهْ ، إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَه ، فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ ، فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ، قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ ، كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا

أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ ، وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ ، فَيَقُولُ يَالَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ ، وَلَمْ أَدْرِ مَاحِسَابِيَهْ يَالَيْتَهَا كَانَتْ الْقَاضِيَةَ ، مَا أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيَه ، هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَه ، خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ، ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ﴾(الحاقة/١٨ : ٣٢) وبين تعالى أن العبد يومئذ يتخلى عنه كل ما أُوتيه في الدنيا من ملك وجاه ، وكل مايكون سببا للاعتزاز والافتخار فقد قال عز من قائل : ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُمْ مَاخَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ﴾(الأنعام/٩٤) وقال سبحانه : ﴿إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمٰنِ عَبْدًا ، لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ، وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا﴾(مريم/٩٤ ، ٩٥) واخبر تعالى عن تقطع جميع الصلات والأسباب يومئذ وتحول جميع المودات إلى عداوة ساخنة إلّا ما يكون بين عباده المتقين حيث قال : ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ﴾(المؤمنون/١٠١) وقال : ﴿الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾(الزخرف/٦٧) وقال : ﴿يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ ، وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ ، لِكُلِّ امْرِىءٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾(عبس/٣٤ : ٣٧) وفي هذا ما يدعو ذوي الألباب لانتهاز فرصة الحياة وتزود تقوى الله تعالى منها﴿وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى﴾(البقرة/١٩٧) .

و﴿اليوم﴾ لغة وقت طلوع الشمس إلى وقت غروبها ، وشرعا من بين طلوع الفجر الصادق إلى غروب الشمس ، ويُطلق على مجموع الليل والنهار واستُعير هنا لما بين ابتداء القيامة إلى استقرار أهل الدارين فيهما ، و(الدين) يأتي لغة لمعان ، نقتصر منها على معنيين لصلتهما بالمراد في الآية :

أولهما : الحساب على الأعمال والمجازاة عليها ، ومنه قولهم : كما تدين تُدان ، وقول الشاعر :

واعلم يقينا أن ملكك زائل   واعلم بأن كما تدين تُدان

وقول الآخر :

إذا مارمونا رميناهم ودناهم مثلما يقرضونا

ثانيهما : القضاء ومنه قوله تعالى : ﴿مَاكَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ﴾(يوسف/٧٦) وقول الشاعر :

لعمرك ماكانت حمولة معبد على جُدها حربا لدينك من مُضر

وفسر الدين في الآية بالمعنى الأول ابن عباس وابن مسعود من الصحابة رضى الله عنهم ، وعليه ابن جريج وقتادة ، حكى ذلك عنهم ابن جرير وغيره من المفسرين ، وروي عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما تفسيره بالمعنى الثاني وكلاهما سائغ ، وجاء الدين في القرآن بمعنى الجزاء في قوله : ﴿يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ اللهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ﴾(النور/٢٥) وقوله : ﴿أَإِنَّا لَمَدِينُونَ﴾(الصافات/٥٣) ويدل عليه قوله تعالى : ﴿الْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾(غافر/١٠) وقوله : ﴿الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾(الجاثية/٢٨) .

وقد يسأل سائل ، أليس الله مالكا لجميع الأيام ؟ فكيف يُخَص مُلكُه بيوم الدين ؟ .

والجواب أن كل زمان داخل في حيطة ملك الله تعالى الواسع كدخول كل مكان ، وإنما خُص يوم الدين بالذكر لأن الذين يتعامون في الحياة الدنيا عن دلائل اختصاص الله تعالى بالملك فيدعون الملك لأنفسهم أو لغيرهم ويخشون غير الله تعالى ، ويرجون سواه يدركون في ذلك اليوم أن الملك لله تعالى وحده ، فلا يتطاول أحد على ادِّعاء الملك ، ولا يتعلق خوف أحد ولارجاؤه بغير الله ، ولذلك قال الله تعالى : ﴿لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ، لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾(غافر/١٦) وفي حديث ابي هريرة رضي الله تعالى عنه عند الشيخين أن رسول الله ﷺ قال : (يقبض الله الأرض يوم القيامة ويطوي السماء بيمينه ثم يقول : أنا الملك ، أين ملوك الأرض ؟) ، ومن هنا حرم أن يوصف أي

أحد غير الله بأنه مالك يوم الدين أو ملك يوم الدين ، كما يحرم وصف غيره بأنه رب العالمين ، ومثلهما ملك الملوك وملك الأملاك فإنهما وصفان لله تعالى وحده ، ففي حديث أبي هريرة عند الشيخين أيضا أن النبي عليه أفضل الصلاة والسلام قال : (إن أخنع إسم عند الله رجل تسمى ملك الأملاك ــ زاد مسلم ــ لامالك إلا الله عَزّ وجل) وفي رواية أخرى (أغيظ رجل على الله يوم القيامة وأخبثه رجل كان يسمى ملك الأملاك ، لاملك إلا الله سبحانه) .

أما الملك فيجوز اطلاقه مجازا على غير الله كما في قوله تعالى حكاية عن بني اسرائيل : ﴿ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾(البقرة/٢٤٦)وقوله : ﴿إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكاً﴾(البقرة/٢٤٧) وفي الحديث (ناس من أمتي عُرضوا عليَّ غُزاة في سبيل الله ، يركبون ثبج هذا البحر ملوكا على الأسرة أو مثل الملوك على الأسرة) .

ولسائل أن يسأل أيضا أليست كل الأيام أيام جزاء وكل مايلاقيه الناس في هذه الحياة من البؤس هو جزاء على تفريطهم في اداء الحقوق والقيام بالواجبات التي عليهم ؟ واترك الإجابة لصاحب المنار الذي طرح هذا السئوال واجاب عنه بما معناه : أن الجزاء قد يقع في أيام الدنيا على جميع الأعمال خيرا كانت أم شرا ولكن ربما لا يظهر للمجزيين إلا على بعضها دون جميعها ، وانما يظهر الجزاء على التفريط في العمل الواجب ظهورا تاما في الدنيا بالنسبة إلى مجموع الأمة لا إلى كل فرد من أفرادها فكل أمة تنحرف عن صراط الله المستقيم ولا تراعي سننه في خليقته لا ينتظرها إلا مصير حاسم تلقى فيه من العدل الإلهي ما تستحقه من الجزاء كالفقر والذل وتبدد العزة وتلاشي السلطة جزاءً وفاقا ، أما الأفراد فإن كثيرا من المسرفين الظالمين منهم يقضون أعمارهم في لجج الشهوات والملذات وقد توبخهم ضمائرهم أحيانا ولا

يسلمون من المنغصات وقد يصيبهم النقص في أموالهم وعافية ابدانهم وقوة مداركهم ولكن كل هذا لا يقابل بعض اعمالهم القبيحة لاسيما أولئك الجبابرة المتسلطون الذين تشقى بأعمالهم السيئة شعوب وأمم ، وفي مقابل أولئك نرى المحسنين في انفسهم وفي الناس يبتلون بصنوف البلاء ولا ينالون الجزاء الذي يستحقونه على صنوف أعمالهم ! نعم يكرمهم الله تعالى براحة ضمائرهم وسلامة أخلاقهم وصحة ملكاتهم ولكن ليس ذلك كل ما يستحقون ، أما في ذلك اليوم فكل فرد من افراد العاملين يوفى جزاءه كاملا لايظلم شيئًا منه كما قال تعالى : ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ ، وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَهُ﴾(الزلزال/ ٧ ، ٨) .

﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ في هذه الآية الكريمة يعلم الله عبادة أن يفردوه بالعبادة وبالإستعانة ، وهذه ثمرة التوحيد وجوهر الإيمان والآيات المتقدمة في السورة جاءت توطئة لها ومقدمة لما فيها فإن الإله الحق الذي هو رب العالمين والمتصف بالرحمة والمالك للأمر في الدنيا والآخرة جدير بأن لاتتجه العبادة إلى غيره وأن لا يتعلق القلب بسواه ، ويرى الزمخشري أن الآية الكريمة جاءت لتبين الحمد المقصود في قول الله تعالى : ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ ويتقدمها سؤال مقدر تقديره كيف تحمدونه ؟ فأجيب : ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ ، وسوغ السيد الجرجاني ذلك لأن السؤال عن كيفية الحمد لا عن ماهيته ، فصح أن يجاب عنه بالإجابة المشتملة على الحمد وعلى غيره لأن ضم غيره إليه نوع بيان لكيفيته ، أي حال حمدنا أن نجمعه بسائر عبادات الجوارح والإستعانة في المهمات ، ونخص مجموعها بك ، وأورد السيد الجرجاني أيضا أنه صح كون العبادة بيانا للحمد من حيث أن اقصى غاية الخضوع يقتضي اعترافا تاما بالإنعام ، ووصفا للمنعم بصفات الجلال والإكرام ، وهذا لأن الحمد اصل العبادة ورأسها كما مر أنه رأس الشكر ، إذ حقيقة العبادة شكر المنعم الحقيقي ، أي اظهار الإنقياد له بقدر الإمكان غاية ما في الباب أن الجواب يشتمل على زيادة في البيان ، ورجح السيد الجرجاني أن يكون قوله «إياك نعبد» استئنافا جوابا لسؤال يقتضيه اجراء تلك الصفات العظام على الموصوف بها أزلا وأبدا ، كأن سائلا يقول : ماشأنكم مع هذا الموصوف ؟ وكيف توجهكم إليه ؟ .

فأجيب بحصر العبادة والإستعانة فيه ، واعترض الإمام أبو السعود ما يقوله الزمخشري «بأنه مع كونه لا حاجة إليه ممالاصحة له في نفسه فإن السؤال المقدر لابد أن يكون بحيث يقتضيه انتظام الكلام ، وتنساق إليه الأذهان والأفهام ، ولا ريب في أن الحامد بعد ما ساق حمده تعالى على تلك

الكيفية اللائقة لا يخطر ببال أحد أن يسأل عن كيفيته ، على أن ماقدر من السؤال غير مطابق للجواب فإنه مسوق لتعيين المعبود لا لبيان العباده حتى يتوهم أنه بيان لكيفية حمدهم ، والإعتذار بأن المعنى نخصك بالعبادة وبه يتبين كيفية الحمد تعكيس للأمر وتمحل لتوفيق المنزل المقرر بالمفهوم المقدر ، ثم قال : وبعد اللّتيا والتي إن فرض السؤال من جهته عز وجل فأتت نكته الإلتفات التي أجمع عليها السلف والخلف ، وإن فرض من جهة الغير يختل النظام لأبتناء الجواب على خطابه تعالى وبهذا هدم أبو السعود ما رجحه الجرجانى من أنه استئناف جوابا لسؤال يقتضيه اجراء تلك الصفات العظام على الموصوف بها ، وأضاف (بأن تناسي جانب السائل بالكلية وبناء الجواب على خطابه عزّ وعلا مما يجب تنزيه ساحة التنزيل عن أمثاله) ثم قال : (والحق الذي لامحيد عنه أنه استئناف صدر عن الحامد بمحض ملاحظة اتصافه تعالى بما ذُكر من النعوت الجليلة الموجبة للإقبال الكلى عليه من غير أن يتوسط هنالك شيء آخر) وأرى أن أضيف إلى ما يقوله أبو السعود أن السورة الكريمة صُدِّرت بحصر الحمد في ذات الحق تعالى وهو مشعر كما سبق بصدور جميع الآلاء عنه ثم تُلِّي ذلك بوصفه تعالى أنه رب العالمين ، وفي هذا تصريح بما يستلزمه حصر الحمد فيه من كونه مصدر جميع الآلاء ، كما أن فيه إيقاظا للشعور بعظمته تعالى المستوجبة لملأ القلب بهيبته ، ثم أُتبع ذلك وصفه بالرّحمة المستلزمة للإحسان ، واختتمت سلسلة هذه الصفات بكونه مالك يوم الدين وهو اليوم الذي ينقلب جيع الناس إليه ليلقوا جزاء ما قدموا ، وإجراء هذه الصفات العظيمة على الله باللسان مع استشعار معانيها بالقلب يجعل النفس تنساق انسياقا تلقائيا إلى منتهى الخضوع لهذا الرب الجليل الموصوف بهذه الصفات ، صفات العظمة التي لا تليق بغيره ، وليس خضوع أبلغ من خضوع العابد فناسب المقام أن يُفرد الله تعالى هنا بالعبادة

وبالإستعانةبصيغة الخطاب المشعرة بالحضور ، والخروج بالكلام من أسلوب الغَيبَة إلى أسلوب الخطاب هو المعروف عند علماء البلاغة بالالتفات ويكون أيضا بالخروج عن التكلم إلى الخطاب أو العكس وبالخروج عن الخطاب إلى الغيبة أو التكلم وهكذا..ولايعنينا هنا بحث مسائل الالتفات فإن ذلك من اختصاص علم البلاغة وانما يعنينا بحث النكتة التي يجاء به لأجلها ، وقد ذكر علماء البلاغة نكتة عامة له وهي تطرية الكلام وتجديد نشاط السامع والمتكلم ، وقد تنضم إليها نكت خاصة بحسب المقامات ، وللمفسرين والبلاغيين سباق في إظهار النكت التي تناسب هذا المقام ، منهم من قال : لما ذُكر الحقيق بالحمد ووُصف بصفات العظمة التي تميزه عن غيره تعلقت معرفة القلب بمعلوم متميز خوطب بذلك ليكون أدل على الإختصاص والترقي من البرهان إلى العيان ، والإنتقال من الغيبة إلى الشهود فكأن المعلوم صار عيانا ، والمعقول مشاهدا ، والغيب حضورا ، وقيل : لما شرح الله تعالى صدر عبده بالإسلام وأفاض على قلبه نور الإيمان ترق بسلم الحمد المستجلب لمزيد النعم إلى مقام الإحسان وهو (أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك)وأيضا حقيقة العباده هو الإنقياد المطلق من النفس لأحكام المعبود ، وصورة هذا الإنقياد وقالبه الإسلام ، ومعناه وروحه الإيمان ، وسره وغايته الإحسان ، وبالإلتفات في (نعبد) يصل العبد عبر المرحلتين السابقتين إلى المرحلة الثالثة ، وذكر الألوسي «بأنه يحتمل أن يكون السر أنّ الكلام من أول السورة إلى هنا ثناء ، والثناء في الغيبة أولى ومن هنا إلى الآخر دعاء وهو في الحضور أولى» ، وقيل غير ذلك .

والعبادة لغة بمعنى الذل ، يقال : عبد إذا ذل ، وعُبِّد إذا ذُلل ، ومنه قوله تعالى : ﴿أَنْ عَبَّدْتَ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾(الشعراء/٢٢) ويُقال طريق معبد إذا وطئته الأقدام حتى ذللته ، ومنه قول طرفة بن العبد :

تبارى عتاقا ناجيات وأتبعت وظيفا وظيفا فوق مور معبد

أما إصطلاحا فللناس فيها مذاهب ترجع إلى المعنى اللغوي ، فابن جرير الطبري يفسرها بالخضوع والإستكانة والذل مع الإقرار بالربوبية للرب المعبود وحده ، وروي عن ترجمان القرآن رضي الله عنه «أن المراد بقوله سبحانه ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ إياك نوحد ونخاف ونرجو» ، ورواه عنه ايضا ابن ابي حاتم ، وابن كثير يرى أن العبادة استكمال المحبة مع منتهى الخضوع والخوف ، وابن تيميه يرى أن العباده الجمع بين المحبة والخضوع ، ولجهابذة العلماء في العصر الحديث أنظار في مدلول لفظ العباده ، فالإمام أبو الأعلى المودودي يرى أن العبادة تتكون من عناصر ، منها الإذعان التام من العابد لعلو المعبود والنزول له عن حريته واستقلاله ، وترك كل مقاومة وعصيان إزاءه والإعتقاد بعلائه ، والإعتراف بعلو شأنه ، وأن يكون قلبه مفعما بعواطف الشكر والإمتنان على نعمه وأياديه بحيث يبالغ في تمجيده وتعظيمه ، ويتفنن في إبداء الشكر على آلائه ، وفي أداء شعائر العبدية له ، ويرى العلامة المودودي أن هذا التصور لاينضم إلى معاني العبدية إلا إذا كان العبد لا يخضع لسيده رأسه فحسب ، بل يخضع معه قلبه أيضًا ، ويستمد السيد الموردودي نظرته هذه في تفسير العبادة من مدلول الكلمة اللغوي ، فإن العربي بمجرد سماعه كلمة العبد والعبادة لا يتصور إلا العبديه والعُبودية ، وبما أن وظيفة العبد الحقيقية هي طاعة سيده المطلقة فإن تصور الطاعة بمجرد ذكر العبد والعبادة أمر لابد منه ، وخلاصة رأيه في العبادة أنها خضوع الظاهر والباطن والانقياد المطلق من العابد للمعبود مع غمرة القلب بالشعور العبودي .

أما الأستاذ الشيخ محمد عبده فيرى أن العبادة شعور خاص في القلب يستلزم الخضوع المطلق والإنقياد التام من العابد للمعبود وفي ذلك يقول : ماهي العبادة ؟ يقولون هي الطاعة مع غاية الخضوع وما كل عبارة

تمثل المعنى تمام التمثيل وتجليه للأفهام واضحا لايقبل التأويل فكثيرا ما يفسرون الشيء ببعض لوازمه ويعرفون الحقيقة برسومها ، بل يكتفون احيانا بالتعريف اللفظي ، ويبينون الكلمة بما يقرب من معناها ، ومن ذلك هذه العبارة التي شرحوا بها معنى العبادة ، فإن فيها اجمالا وتساهلا واننا إذا تتبعنا آى القرآن وأساليب اللغة واستعمال العرب لعبد وما يماثلها ويقاربها في المعنى ـــ كخضع وخنع واطاع وذل ـــ نجد أنه لاشيء من هذه الألفاظ يضاهي عبد ويحل محلها ويقع موقعها .

ولذلك قالوا : إن لفظ العباد مأخوذ من العبادة فتكثر إضافته إلى الله تعالى ولفظ العبيد تكثر إضافته إلى غير الله تعالى لأنه مأخوذ من العبودية بمعنى الرق وفرق بين العبادة والعبودية بذلك المعنى ، ومن هنا قال بعض العلماء إن العبادة لاتكون في اللغة إلا لله تعالى ولكن استعمال القرآن يخالفه .

يغلو العاشق في تعظيم معشسوقه والخضوع له غلوا كبيرا حتى يفنى هواه في هواه وتذوب إرادته في ارادته ومع ذلك لا يسمى خضوعه هذا عبادة بالحقيقة ، ويبالغ كثير من الناس في تعظيم الرؤساء والملوك والأمراء فترى من خضوعهم لهم وتحريهم مرضاتهم مالاتراه من المتحنثين القانتين دع سائر العابدين ، ولم يكن العرب يسمون شيئا من هذا الخضوع عبادة فما هي العبادة إذاً ؟.

تدل الأساليب الصحيحة والاستعمال العربي الصراح على أن العبادة ضرب من الخضوع بالغ حد النهاية ، ناشيء عن استشعار القلب عظمة للمعبود لا يعرف منشأها واعتقاده بسلطة له لايدرك كنهها وماهيتها وقصارى ما يعرفه منها أنها محيطة به ، ولكنها فوق إدراكه فمن ينتهي إلى أقصى الذل لملك من الملوك لايقال إنه عبده وإن قبل موطىء أقدامه ما دام سبب الذل

والخضوع معروفا وهو الخوف من ظلمه المعهود أو الرجاء لكرمه المحدود اللهم إلا بالنسبة إلى الذين يعتقدون أن للملك قوة غيبية سماوية أفيضت على الملوك من الملأ الأعلىٰ واختارتهم للاستعلاء على سائر أهل الدنيا لأنهم أطيب الناس عنصرا وأكرمهم جوهرا ، وهؤلاء هم الذين انتهى بهم هذا الاعتقاد إلى الكفر والإلحاد فاتخذوا الملوك آلهة وأربابا وعبدوهم عبادة حقيقية .

ويضيف الأستاذ إلى ذلك فيقول : للعبادة صور كثيرة في كل دين من الأديان شرعت لتذكير الإنسان بذلك الشعور بالسلطان الإلٰهي الأعلى الذي هو روح العبادة وسرها ولكل عبادة من العبادات الصحيحة أثر في تقويم أخلاق القائم بها وتهذيب نفسه والأثر إنما يكون عن ذلك الروح والشعور الذي قلنا إنه منشأ التعظيم والخضوع فإذا كانت صورة العبادة خالية من هذا المعنى لم تكن عبادة كما أن صورة الإنسان وتمثاله ليس إنسانا خذ إليك عبادة الصلاة مثلا وانظر كيف أمر الله بإقامتها دون مجرد الإتيان بها وإقامة الشيء هى الإتيان به مقوما كاملًا يصدر عن علته وتصدر عنه آثاره ، وآثار الصلاة ونتائجها هي ما أنبأنا الله تعالى بها بقوله : ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾(العنكبوت/٤٥) وقوله عز وجل ﴿إِنَّ الإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا ، وَإِذا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا ، إِلَّا الْمُصَلِّينَ﴾(المعارج/١٩ : ٢٢) وقد توعد الذين يأتون بصورة الصلاة من الحركات والألفاظ مع السهو عن معنى العبادة وسرها فيها المؤدى إلى غايتها بقوله : ﴿فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ الَّذِينَ هُمْ يُرَاؤُنَ وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ﴾(الماعون/٤ : ٧) فسماهم مصلين لأنهم أتوا بصورة الصلاة ووصفهم بالسهو عن الصلاة الحقيقية التي هي توجه القلب إلى الله تعالى المذكر بخشيته والمشعر للقلوب بعظم سلطانه ثم وصفهم بأثر هذا السهو وهو الرياء ومنع الماعون .

هذا كلام الأستاذ في العبادة ، وهو يفيد أن معنى العبادة لايتم إلا مع استشعار عظمة المعبود التي لاتكتنه ، وقدرته التى لاتُحد ، وهو صحيح بالنظر إلى العبادة الصحيحة الواجبة لله تعالى ، ولكن لايمنع أن يطلق اسم العباده على تعظيم أحد لغيره تعظيما يخرج به عن حدود استحقاق البشر ، ويدل على ذلك أن الله سبحانه وتعالى أخبر عن أهل الكتاب أنهم اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله مع أنهم لم يكونوا يعتقدون لهؤلاء الأحبار والرهبان القدرة المطلقة التي لاتُحد ، والعظمة الباهرة التي لاتكتنه ، وروى الإمام أحمد والترمذي وابن جرير عن عدي بن حاتم أنه سمع رسول الله ﷺ يتلو قوله سبحانه : ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾(التوبة/٣١) ــ وكان امرأً قد تنصر ــ فقال له إنهم لم يعبدوهم ، قال له:«بلى إنهم حرموا عليهم الحلال وأحلوا لهم الحرام فاتبعوهم ، فذلك عبادتهم إياهم» فإذا كان اتباع الإنسان على تحليله الحرام وتحريمه الحلال عبادة فما بالك بما يكون من مخلوق لمخلوق مثله من تعظيم لا يليق إلا بمقام الألوهية .

هذا والعبادة هي الغاية التي لأجلها خلق الإنسان ، قال تعالى : ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾(الذاريات/٥٦) ومن هنا كانت فطرة كل إنسان داعية إليها لما تستشعره من الفراغ الروحي والخواء النفسي بدونها ، ومن ثم كانت العبادة تلبية لنداء الفطرة الذي يجلجل من أعماق النفس الإنسانية ، وإنما الفطرة وحدها لا تستطيع أن تهتدي إلى العبادة الصَّحيحة ولذا فإن الله سبحانه أرسل رسله وأنزل كتبه لتوجيه هذه الفطرة إلى الصراط المستقيم ، وما من رسول إلا وكانت دعوته الأولى في قومه إلى إفراد الله تعالى بالعبادة ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾(الأنبياء/٢٥) والعبادة الخالصة لله تعالى توائم بين حركتي الإنسان الاختيارية والاضطرارية ، فجسم الإنسان تُعَد خلاياه بملايين الملايين ، وكل

هذه الخلايا تتحرك بحسب سنة الله فيها ، فإذا انقاد هذا الإنسان وأذعن لربه العظيم وعبده حق عبادته حصل الانسجام التام مابين هذه الحركات الطبيعية في جسمه وحركته الاختيارية التي ينساق إليها مختارا طاعة لمولاه ، ومن هنا نجد الإمام المحقق سعيد بن خلفان الخليلي رحمه الله يُعبر في إحدى قصائده النورانية عما يشعر به وهو يسبح لله سبحانه من تجاوب ألسنة لا تحصى فيه مع هذا التسبيح حيث يقول :ـــ

أعاين تسبيحي بنور جناني فأشهد مني ألف ألف لسان
وكل لسان أجتلي من لغاته إذا ألف ألف من غريب أغان
ويُهدى إلى سمعي بكل لُغية هدي ألف ألف من شتيت معان
وفي كل معنى ألف ألف عجيبة يقصر عن إحصائها الثقلان

ولا تقف عبادة الإنسان عند هذا الحد بل توائم بين حركته وحركة كل شيء في هذا الكون الواسع الذي تسبح كل ذرة منه بحمد الله وتسجد خاضعة لجلاله ، ﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمٰوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ ، وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَاتَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾(الإسراء/٤٤) ، ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمٰوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ والْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ﴾(الحج/١٨) ولذلك كانت عبادة الله الخالصة داعية للشعور بالانسجام مع الكون والألفة مع الوجود ، فلاينظر إليه العابد نظرة نفرة وعداء ، وإنما ينظر إليه نظرة وئام ووداد .

أما إذا تخلى الإنسان عن عبادة ربه فإنه يشعر بعداوة الكون وخصومة الطبيعة له ، ولذلك تجد الغربيين الذين رانت على قلوبهم الجاهلية الحديثة ينظرون إلى الكون نظرة الخصومة والعداء ، ويتجلى ذلك في عباراتهم ، فكثيرا ما يرد على ألسنتهم وأقلامهم قهر الطبيعة وقسوتها ، فإذا حقق أحدهم شيئا قالوا قهر الطبيعة أو تغلب عليها ، وإذا أصيب أحدهم بمكروه قالوا قست

الطبيعة عليه ، أما المؤمن الذى يسبح بحمد الله ويسجد لكبريائه فهو لا يشعر بأية عداوة بينه وبين الطبيعة ، وإنما يشعر بالألفة والمودة بينه وبينها لما يربطهما من الخضوع لله والتسبيح بحمده ، ولما يتلوه على صفحاتها من آيات بينات تزيد إيمانه رسوخا ويقينه ثباتا ، ومما يؤسف له أن تردد ألسنة تلامذة الغرب المنتسبين إلى الإسلام هذه العبارات الوقحة بدون شعور بهاجس نفسي يؤنبهم على استعمالها ، وهذا إن دل على شيء فهو دليل على ما أصاب قلوبهم من المسخ وبصائرهم من الطمس ، وإذا كانت العبادة منشأ الألفة والوئام بين العابد وجميع الكائنات فإن ذلك يقتضي أن تكون العبادة أوسع مدلولا مما يظنه كثير من الناس من أنها منحصرة في الصلاة والزكاة والصوم والحج ، وهذا هو الذى تدل عليه الآيات والأحاديث . أما الآيات فأرى أن أؤخر الكلام عليها إلى أن أصل إليها إن شاء الله في مواضعها ، وأما الأحاديث فبحسبي أن أذكر مثالين منها :

١ ــ قال رسول الله ﷺ « في كل ذى كبد رطبة أجر » وهو دليل على أن الإنسان يتقرب إلى الله سبحانه بالإحسان حتى إلى البهيمة العجماء .

٢ ــ يقول عليه أفضل الصلاة والسلام « في بضع أحدكم صدقة » قيل له يارسول الله أيصيب أحدنا شهوته ويؤجر ؟ قال : « أرأيت إن وضعها في حرام ألم يكن يؤزر » قيل له بلى يارسول الله قال : « كذلك يؤجر إن وضعها في حلال » فانظر كيف يكون العَمل الفطرى الذى يلبى به الإنسان داعي الغريزة عبادة يؤجر عليها إن أحسن توجيهه واستصحب معه حسن النية .

وبهذا يتضح أن العبادة تقتضى الخضوع المطلق لمنهاج الله فلا يحكم العابد إلّا به ولا يحتكم إلا إليه ولذلك حكم الله على من لم يحكم بما أنزل

بالكفر والظلم والفسق حيث قال : ﴿ وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ ﴾ (سورة المائدة / ٤٤) وقال : ﴿ وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ (سورة المائدة / ٤٥) وقال : ﴿ وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ (سورة المائدة / ٤٧) وانكر على الذين يدعون الإيمان وهم يتحاكمون إلى غير شرعه في قوله : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ ﴾ (سورة النساء / ٦٠) ونفى الايمان عن كل من لم يحكم رسوله ﷺ الناطق بوحيه المبلغ لأمره في قوله : ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَايُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَايَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ (سورة النساء / ٦٥)

والعبادة أسمىٰ ما ينتسب إليه الانسان ولذلك وصف الله عبده ورسوله محمدا ﷺ بالعبودية في أعلى مقامات ذكره وهى صنو العبادة فقد قال في معرض ذكر إنزال الكتاب عليه ﴿ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ .... الآية ﴾ (آل عمران / ٧) وقال ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى أَنْزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا ﴾ (الكهف / ١) وقال : ﴿ تَبَارَكَ الَّذِى نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا ﴾ (الفرقان / ١) وقال في معرض الحديث عن إبلاغه الرسالة ودعائه الله ﴿ وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللهِ يَدْعُوهُ . كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا ﴾ وقال في الحديث عن الإسراء برسول الله ﷺ الذى ترتب عليه أن ينال من الإكرام ما لم ينله أحد قبله ﴿ سُبْحَانَ الَّذِى أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَىٰ الْمَسْجِدِ الْأَقْصَىٰ الَّذِى بَارَكْنَا حَوْلَهُ ، لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾ (الاسراء / ١) وهذا لأن عبادة الإنسان لربه وعبوديته له تعنيان تحرير رقبته من الذل لسواه وتخليص قلبه من الخضوع لغير عزته ، وقد غلا بعضهم فادعى أن العبودية أشرف من الرسالة حكى

ذلك الفخر الرازى في تفسيره ولم يتعرض له بشيء ، وحاصل ما احتج به هذا القائل أن الرسالة انصراف عن الحق إلى الخلق ، والعبودية انصراف عن الخلق إلى الحق ، والعبودية أيضا تجرد عن التصرفات ، والرسالة تلبس بها ، وهذه فلسفة باطلة لا يجوز لمن يؤمن بالله ورسله أن يقرها فالرسالة هى أشرف المقامات وأعلى الدرجات التي يوصل إليها بمحض اصطفاء الله تعالى ولا تنافي العبودية ولذلك وصف الله بهما أحب الناس إليه وأرفعهم عنده سيدنا رسول الله ﷺ ، وليست الرسالة ــ كما قال ــ انصرافاً من الحق إلى الخلق وإنما هى اضطلاع بواجب أمانة الحق لابلاغها إلى الخلق ، وإذا كانت تقتضي اشتغالا بالتصرفات فإن تلك التصرفات هى من أقرب القربات إلى المرسِل سبحانه فهى داخلة في حدود عبادته ، وأعظم الدلائل على إخلاص العبودية له .

والفخر والألوسي قسما العبادة إلى ثلاث درجات تمشيا مع آراء كثير من العلماء :

الدرجة الأولى : أن تكون العبادة ابتغاء ثواب الله وخشية عقابه ، وهى أضعف الدرجات وسماها الألوسي في تفسيره عبادة .

الدرجة الثانية : أن تكون لأجل نيل الشرف بما فيها من التزلف إلى الله تعالى ، وهى درجة متوسطة عندهم ، وسماها الألوسي عبودية .

الدرجة الثالثة : أن تكون لذات الله مع غض النظر عن كل ما سواه وسماها الألوسي عبودة .

وفي هذا التصنيف نظر ، إذ لايستند إلى دليل من كتاب ولاسنة ، وتعظيم الله سبحانه بالعبادة وإخلاصها لوجهه لاينافيان ابتغاء ثوابه والحذر من عقابه كما لاينافيان الرغبة في نيل شرف عبادته عزَّ وجل ، وللإمام نورالدين السالمي رحمه الله في معارجه بحث نفيس في هذه المسأله ، ناقش فيه كلام

هؤلاء الذين يقسمون العبادة من تلقاء أنفسهم أقساما ، واستدل لرده بما جاء من الآيات التي تصف الأنبياء أنهم كانوا يعبدون الله رغبا ورهبا ، كقوله سبحانه : ﴿وَكَانُوا يَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا﴾(الأنبياء/٩٠) وهي في معرض مدحهم والإبانة عن علو قدرهم ، ولاريب أن الأنبياء أرسخ في العبادة قدما ، وأسرع إلى كل خير سبقا من غيرهم ، فلو كانت العبادة التي تكون بباعث الخوف والرجاء أضعف من غيرها لكانت عبادات الأنبياء غير مقرونة بهما على أن الخوف والرجاء هما السور المتين الذي يحوط أعمال البر كلها .

وكما تطالب الآية الكريمة الناس أن يفردوا الله سبحانه وتعالى بالعبادة تطالبهم بأن يفردوه بالاستعانة لأن القوة المطلقة لله وكل ما يحدث في الكون فهو بأمر الله وكما أن الله تعالى قد تفرد بخلق الكون فهو متفرد بتدبيره فلا معنى للتعلق بغيره ، والقرآن الكريم جاء ليقرر هذه الحقيقة بكثير من الآيات التي تخاطب الناس بالبرهان وتضرب لهم الأمثال ، منها قول الله سبحانه ﴿قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللهُ ، قُلْ أَفَتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ لَا يَمْلِكُونَ لِانْفُسِهِمْ نَفْعاً وَلَا ضَرًّا ، قُلْ هَلْ يَسْتَوِيَ الْأَعْمىٰ وَالْبَصِيرُ ، اَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ ، اَمْ جَعَلُوا لِلّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ اللهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾(الرعد/١٦) وقوله : ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللهُ ، قُلْ اَفَرَاَيْتُمْ مَاتَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ اِنْ اَرَادَنِيَ اللهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ اَوْ اَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ قُلْ حَسْبِيَ اللهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾(الزمر/٣٨) ويبين لنا القرآن أن كل محاولة من المخلوقين لرد سراء أو ضراء كتبها الله لأحد أو عليه لابد أن تبوء بالفشل الذريع ﴿مَايَفْتَحِ اللهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾(فاطر/٢) ﴿وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ ، وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ

﴿يُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾(يونس/١٠٧) والنبي ﷺ كان يربي أمته على هذه العقيدة القرآنية لتتحول إلى واقع ملموس في أحوال المؤمنين ففي حديث ابن عباس رضي الله عنهما عند الشيخين (إذا سألت فاسأل الله وإذا استعنت فاستعن بالله) .

وهنا سؤال يفرض نفسه وهو أن الإنسان كائن اجتماعي يشترك مع غيره في المصالح والمنافع ولا يمكنه الاستقلال عن سائر بني جنسه فهو بحاجة دائما إلى من يعينه فإذا مرض احتاج إلى الطبيب ، وإذا أفلس احتاج إلى من يقرضه أو يتصدق عليه ، وإذا اضطر إلى حمل شيء لايطيقه احتاج إلى من يعينه عليه ، وهكذا فكيف يمنع من الاستعانة بالناس ؟ على أن القرآن نفسه يرشدنا إلى التعاون في قوله : ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾(المائدة/٢) وأترك الإجابة عن هذا السؤال لفيلسوف الإسلام الإمام محمد عبده وتلميذه السيد محمد رشيد رضا.

أما الإمام محمد عبده فيجيب بما معناه : أن أعمال الناس تتوقف ثمراتها ونجاحها على حصول الأسباب التي اقتضت الحكمة الإلهية أن تكون مؤدية اليها وانتفاء الموانع التي جعلها الله بمقتضى حكمته حائلة دونها ، والإنسان بما اوتي من علم وقوة مكن الله له من كسب بعض الأسباب ودفع بعض الموانع ولكن حجب عنه البعض الآخر فيجب على الناس أن يقوموا بما فيه استطاعتهم من ذلك ويتقنوا أعمالهم بما في وسعهم وأن يتعاونوا ويساعد بعضهم بعضا ويفوضوا الأمر فيما وراء الكسب إلى القادر على كل شيء ويلجأوا إليه وحده طالبين منه المعونة المتممة للعمل والمؤدية إلى جناء ثمرته وليس لهم أن يتعلقوا بما وراء الاسباب إلا بمسببها سبحانه ، ويتضح بهذا أن قوله تعالى : ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ متمم لمعنى قوله ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾لأن هذه الاستعانة هي فزع من القلب إلى الله وتعلق من النفس به وذلك من مخ

العبادة ، فإذا توجه بها العبد إلى غير الله كان ضربا من ضروب العبادة الوثنية التي انتشرت في زمن التنزيل وقبله ، وخصت بالذكر لئلا يتوهم الجاهلون أن الاستعانة بالذين اتخذوهم أولياء من دون الله واستعانوا بهم فيما وراء الأسباب المكتسبة للناس هي كالاستعانة بسائر الناس في الأسباب العامة فأراد الله سبحانه أن يزيل هذا اللبس ببيان أن الاستعانة بالناس في حدود استطاعتهم ضرب من استعمال الأسباب المسنونة ، وما مثلها إلا كمثل الآلات المستعملة فيما خصت به بخلاف الاستعانة بهم فيما وراء طاقاتهم البشرية كالاستعانة في شفاء المريض بما وراء الدواء ، وعلى غلبة العدو بما وراء العدة والعدد فإن ذلك مما لا يجوز أن يكون إلا بالله تعالى الذي بيده الأسباب والمسببات وهو على كل شيء قدير ، وضرب الإمام محمد عبده مثلا لذلك : الزارع عندما يبذل جهده في الحرث والعذق وتسميد الأرض وريها فهو يمارس الوسائل المؤدية مع التوفيق إلى حصول المطلوب ، ويستعين بالله تعالى على النجاح طالبا منه منع الآفات والجوائح السماوية والأرضية ، ومثل بالتاجر الذي يحذق في اختيار الأصناف ويمهر في فن الترويج ، ويتوكل على الله فيما وراء ذلك ، وخلص الأستاذ الإمام من هذا إلى تفنيد حالة الذين يستعينون بأصحاب الأضرحة والقبور على قضاء حوائجهم ، وتيسير أمورهم وشفاء أمراضهم ، ونماء حرثهم وزرعهم ، وهلاك أعدائهم وغير ذلك من الأمور التي ليست في استطاعة الأحياء بله الأموات ، وقال عنهم : إنهم عن صراط التوحيد ناكبون ، وعن ذكر الله معرضون ، واستخرج الأستاذ الإمام من قول الله سبحانه : ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ فائدتين جليلتين قال فيهما : (هما معراج السعادة في الدنيا والآخرة) :

أولاهما : أن الإنسان مطالب بالأعمال النافعة والاجتهاد في إتقانها ما استطاع ، لأن طلب المعونة لا يكون إلا على عمل بذل فيه المرء طاقته فلم

يوفه حقه أو يخشى أن لا ينجح فيه فيطلب المعونة على إتمامه وكماله .

فمن وقع من يده القلم على المكتب لا يطلب المعونة من أحد على إمساكه ، أما من وقع تحت عبء ثقيل يعجز عن النهوض به وحده فهو جدير بطلب المعونة من غيره على رفعه ولكن بعد استفراغ القوة في الاستقلال به ، ثم قال الأستاذ بعد هذا التحرير : وهذا الأمر هو مرقاه السعادة الدنيوية وركن من أركان السعادة الأخروية .

ثانيتهما : مايفيده الحصر المستفاد من تقديم المعمول على العامل من وجوب تخصيص الاستعانة بالله وحده فيما وراء ذلك ، قال : وهو روح التوحيد وكمال الدين الخالص الذي يرفع نفوس معتقديه ويخلصها من رق الأغيار ، ويفك إرادتهم من أسر الرؤساء الروحانيين والشيوخ الدجالين ، ويطلق عزائمهم من قيد المهيمنين الكذّابين من الأحياء والميتين ، فيكون المؤمن مع الناس حرا خالصا وسيدا كريما ، ومع الله عبدا خاضعا ﴿وَمَنْ يُطِعِ اللهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عِظِيماً﴾(الأحزاب/٧١) .

وأما السيد محمد رشيد رضا فيقول «إن عبادة الله تعالى هي غاية الشكر له في القيام بما يجب لألوهيته ، واستعانته هي غاية الشكر له في القيام بما يجب لربوبيته ، أما الأول فظاهر لأنه هو الإله الحق فلا يعبد بحق سواه ، وأما الثاني فلأنه هو المربي للعباد الذي وهب لهم جميع ما تكمل به تربيتهم الصورية والمعنوية ، قال : ومن هنا تعلم أن إيراد ذكر العبادة والاستعانة بعد ذكر اسم الجلالة الأعظم واسم الرب الأكرم إنما هو لترتبهما عليهما من قبيل ترتيب النشر على اللف ، والاستعانة بهذا المعنى ترادف التوكل على الله وتحل محله ، وهو كمال التوحيد والعبادة الخالصة ، ولذلك جمع القرآن بينهما في مثل قوله تعالى : ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾(هود/١٢٣) فهذه الاستعانة هى ثمرة التوحيد واختصاص الله تعالى

بالعبادة ، فإن من معنى العبادة الشعور بأن السلطة الغيبية التي هي وراء الأسباب العامة الموهوبة من الله تعالى لعباده كافة هي لله وحده ، كما تنطق به الآية التي استشهدنا بها آنفاً على قرن العبادة بالتوكل فمن كان موحدا خالصا لايستعين بغير الله تعالى قط ، فما كان من أنواع المعونة داخلا في حلقات سلسلة الأسباب كان طلبه بسببه طلبا من الله تعالى ولكنه يحتاج في تحقيق ذلك إلى قصد وملاحظة وشهود قلبى وما كان غير داخل فيها يتوجه في طلبه إلى الله تعالى بلا واسطة ولا حجاب .

قال : وبهذا البيان تعلم أنه لامنافاة بين التوحيد والتوكل وبين الأخذ بالأسباب وإقامة سنن الله تعالى بل الكمال والأدب في الجمع بينهما ، فالسيد المالك إذا نصب لعبيده وخدمه مائدة يأكلون منها غدوا وعشيا وجعلهم خدما يقومون بأمرها لايكون طلب الطعام منه إلا بالاختلاف إلى المائدة ، وإنما ينبغي أن لا يغفلوا بها وبخدمها عن ذكر صاحب الفضل الذي أنشأها بماله وسخر أولئك الخدم للآكلين عليها ، ولاعن حمده وشكره ، وهذا مثال مائدة الكون بأسبابه ومسبباته فالعبد إذا احتاج شيئا من الأشياء التى لم يجعلها سيده مبذولة لجميع عبيده في كل وقت طلبه منه دون سواه ، فإن أظهر الحاجة إلى غيره كان ذلك من قلة ثقته بمولاه حيث جعل ذلك الغير في مرتبته أو أجدر منه بالفضل ، قال : هذا في العبيد مع السادة الذين لهم نظراء وأنداد فكيف إذا كان العبد الذي يتوجه إلى غير مولاه لايجد من يتوجه إليه سواه إلا أمثاله من العبيد المحتاجين إلى المولى مثله لأنه هو السيد الصمد الذي ليس له كفوا أحد ، وأتبع ذلك قوله أن لفظ الاستعانة يشعر بأن يطلب العبد من الرب تعالى الإعانة على شيء له فيه كسب ليعينه على القيام ، به وفي هذا تكريم للإنسان بجعل عمله أصلا في كل ما يحتاج إليه لإتمام تربية نفسه وتزكيتها ، وإرشاد له إلى أن ترك العمل والكسب ليس

من سنة الفطرة ، ولامن هدي الشريعة فمن تركه كان كسولا مذموما لا متوكلا محمودا ، وتذكير له من جهة أخرى بضعفه لكيلا يغتر فيتوهم بأنه مستغن بكسبه عن عناية ربه فيكون من الهالكين في عاقبة أمره ، هذا كلامه وهو ككلام أستاذه في إثبات كون الاستعانة بالله وعدم إشراك غيره فيها من لوازم الإيمان ومقتضيات التوحيد ، وإنما بين كلاميهما خلاف لفظي ، فالأستاذ الإمام يرى أن الاستعانة فيما كان داخلا في إطار الأسباب التي منحها الله عباده جائزة أن تكون بأولئك الذين أجرى الله الأسباب على أيديهم وعلى ذلك يحمل نحو قوله تعالى : ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾(المائدة/٢) أما تلميذه السيد محمد رشيد رضا فهو ينظر إلى أن أولئك ليسوا مستقلين بالأسباب وإنما وهبهم الله تعالى من فضله التفوق فيها وسخرهم بحكمته لإعانة المحتاجين إليها فالمستعين بهم إنما يستعين في الحقيقة بالله واهب الأسباب ومقدرها فيجب على المؤمن ألا يغفل عن هذه الحقيقة عندما يطلب من غيره قضاء حاجته .

هذا وقد يفهم من كلامه في الأسباب العَامة وقوله إنها موهوبة للناس كافة أنه يرى تكافؤ جميع الناس فيها ، وهو أمر ترده المشاهدة فإن الناس متباينون في المواهب منهم من وهب حصافة الرأي ، ومنهم من وهب قوة البدن ومنهم من وهب الحذق في أعمال خاصة وهذا لتكون حياة الناس قائمة على أسس الاجتماع ولو تساوى الناس في مواهبهم لاستغنى كل أحد بنفسه واستكفى بموهبته ولكن الله سبحانه يريد بذلك تذكير الناس بفقرهم واحتياجهم ، لئلا يغتر إنسان بما أوتي فيدعي أنه أوتيه باستحقاق ، فتجد الملك بحاجة إلى الحجام والقين والحداد والطباخ كحاجته إلى المستشارين والوزراء فسبحان الغني الذي تفرد بالعزة والكبرياء .

وبهذا الذي حررناه تدرك خطورة ما يصنعه كثير من الناس من التعلق بغير الله سبحانه في طلب الحاجات التي لم يجعل الله قضاءها بيد الناس والأعجب من ذلك أن يأتي أحدهم إلى ضريح طالبا من صاحبه الميت البالي أن يعينه على ما لا يستعان عليه إلا بالله ، أو يأتي إلى صخرة صماء أو شجرة أو نهر أو أي شيء من هذا القبيل طالبا منه ذلك مع أن هذه الأشياء لاتسمع ولا تبصر ولا تحس ولا تعقل وإذا كان النبي ﷺ وهو أكرم الخلق منزلة وأعظمهم شأنا يقول له سبحانه في حياته ﴿ قُل لَّا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ ﴾ (الأعراف / ١٨٨) فما بالك بغيره ﷺ بل ما بالك بالأموات والجمادات والنباتات هل من المعقول أن تلبي هذه الأشياء لأحد طلبا أو تسمع له دعاء أو تستجيب له نداء ؟ وإنما ذلك شأن العقول إذا ضلت والأفكار إذا زاغت .

ولعمري ليس تفشي مثل هذه الضلالات في هذه الأمة إلا تصديقا لنبوة النبي الصادق ﷺ حيث يقول كما ثبت في الصحيحين (لتتبعن سنن من قبلكم شبرا بشبر وذراعا بذراع حتى ولو دخلوا جحر ضب لدخلتموه)، وفي حديث أبي واقد الليثي عند الترمذي أن رسول الله ﷺ لما خرج إلى خيبر مر بشجرة للمشركين يقال لها «ذات أنواط» يعلقون عليها أسلحتهم ، فقيل له: يارسول الله اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط، فقال النبي: (سبحان الله هذا كما قال قوم موسى «إجعل لنا إلها كما لهم آلهة» والذي نفسي بيده لتركبن سنة من كان قبلكم) .

هذا وفي المقام مباحث :

الأول :ـــ في تقديم العبادة على الاستعانة ، ولأفكار العلماء تزاحم في استخراج حكمة ذلك وقد استظهروا وجوها :

أولها : أن العبادة أمانة كما قال تعالى : ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى

السَّموَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ﴾(الأحزاب/٧٢) لذلك كانت أجدر بالعناية ، فقدمت .

ثانيها : أن إسناد المتكلم العبادة إلى نفسه يوهم التبجح والاعتداد بما صدر عنه ، فكان جديرا بأن يُتْبع ما يدل على أن العبادة لاتتم إلا بمعونة وتوفيق من الله وهذا يستفاد من جملة «وإياك نستعين» .

ثالثها : أن العبادة قربة محضة إلى الله تعالى ، أما الاستعانة فقد تكون لمنفعة عاجلة .

رابعها : أن العبادة مطلوبة لله تعالى من العباد ، والاستعانة مطلوبة للعباد من الله ، وتقديم ما كان لله أولى مما كان للعباد .

خامسها : أن العبادة في جملتها واجبة لله على العبد ، ولذلك كانت هي الغاية من خلق الإنس والجن ، قال تعالى : ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾(الذاريات/٥٦) أما الاستعانة فيختلف حكمها باختلاف حال المستعان عليه .

سادسها : أن العبادة أظهر مناسبة بذكر الجزاء فجيء بها بعده ، والاستعانة أكثر التئاما مع طلب الهداية فجيء بها قبله .

سابعها : أن الاستعانة ثمرة للعبادة ، فإن إخلاصَ العبادة لله يستلزم إفراده بالاستعانة ، قال صاحب المنار : «ولا ينافي هذا أن العبادة نفسها مما يستعان عليه بالله تعالى ليوفق العابد للإتيان بها على الوجه المرضي له عز وجل ، لا منافاة بين الأمرين لأن الثمرة التي تخرج من الشجرة تكون حاوية للنواة التي تخرج منها شجرة أخرى ، فالعبادة تكون سببا للمعونة من وجه ، والمعونة تكون سببا للعبادة من وجه آخر ، كذلك الأعمال تكون الأخلاق التي هي مناشيء الأعمال ، فكل منها سبب ومسبَّب ، وعلة ومعلول ، والجهة مختلفة فلا دور في المسألة» .

ويرى ابن جرير أن الترابط الذي بين العبادة والاستعانة يقتضي جواز تقديم أي منهما على الآخر كما يجوز أن يُقال : قضيت حقي فأحسنت إليّ ، أو أحسنت إليّ فقضيت حقي ، ويُسْتفاد مما قاله أنه لايرى ما يسوغ البحث في تقديم العبادة على الاستعانة .

الثاني :ــ في تقديم المعمول وهو (إياك) على العامل وهو (نعبد) و(نستعين) ، وذكروا له وجوها :ــ
أولها : الدلالة على الحصر والاختصاص ، ومن هنا فسره ابن عباس رضي الله تعالى عنهما بلا نعبدُ غيرك ، ويراد به التبرؤ عن الشرك والتعريض بالمشركين .
ثانيها : أن المتقدم في الوجود أحق بالتقدم في الذكر ، فالله تعالى كان قبل كل موجود ، ولذلك كان الأنسب تقديم ذكره عن ذكر عبادته .
ثالثها : أن في تقديم ذكره تعالى تنبيها للعابد من أول الأمر على أن المعبود هو الله ، فيوقظ ذلك الهمة في نفسه ويقضي على الكسل والتواني .
الثالث :ــ في المجيء بصيغة الجمع دون الإفراد في قوله ﴿إياك نعبد وإياك نستعين﴾ وفيه أقوال :
أولها : أن العبد يحتقر نفسه في مقام الخطاب لله عز وجل ، ويستقل عبادته بجانب ما لله تعالى من منة أسبغها عليه وحق يجب له تعالى على العبد ، فيجدر به أن يخاطبه مع غيره وأن يوجه عبادته إليه مختلطة بعبادة العابدين .
ثانيها : أن الإنسان مع خضوعه لأهل الدنيا وطلبه منهم ما يجدر طلبه من الله إن قال بمفرده إياك اعبد وإياك أستعين كان كاذبا ، أما إن وجه الخطاب بصيغة الجمع الدالة على اشتراكه مع العابدين والمستعينين كان أبعد عن الكذب ، لوجود من أخلص له العبادة وقصر الاستعانة عليه من بينهم .

ثالثها : أن صيغة الجمع أدعى إلى القبول والاستجابة من صيغة الإفراد لأن المخاطب يحشر نفسه في زمرة المخاطبين ، ولا يعتد بخطابه بنفسه ، وذكروا أنّه مما يرشد إلى ذلك ما حكاه الله عن الذبيح إسماعيل عليه السلام من قوله : ﴿سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾(الصافات/١٠٢) وما حكاه عن الكليم عليه السلام من قوله : ﴿سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا﴾(الكهف/٦٩) وقد صبر الذبيح لتواضعه بعد نفسه واحدًا من جمع ، ولم يصبر الكليم لإفراده نفسه مع أنهما قالا جميعا «إن شاء الله» .

رابعها : إن الإسلام دين وحدة واجتماع ، وليس بدين تشتت وافتراق ولأجل ذلك شرعت بعض العبادات تؤدي بطريقة جماعية لا على الانفراد ، وفي المجيء بصيغة الجمع هنا في هذه السورة التي يجب على المسلم أن يكررها في كل ركعة من ركعات الصلاة التي هي أهم عبادة في الإسلام تذكير بواجب الترابط بين المسلمين وإيقاظ لمشاعر الأخوة والمودة بينهم .

الرابع :ـ في تكرار «إياك» وفيه آراء :ـ

أولها : أنه للتنصيص على أن طلب العون منه تعالى فإنه لو قال : «إياك نعبد ونستعين» لاحتمل أن يكون إخبارا عن طلب العون من غير تعيين للجهة المطلوب منها .

ثانيها : أن العبادة هي قربة إلى الله تعالى ولو لم تكن مقرونة بالاستعانة ، والاستعانة كذلك ولو لم تكن في حال العبادة ، ولو أفرد ذكر الضمير لأوهم أنه لايتقرب إليه إلا بالجمع بينهما .

ثالثها : أن في التكرار تعليما للناس بأن يجددوا ذكر الله عند كل حاجة تعن .

الخامس : في إطلاق الاستعانة وعدم تقييدها بمستعان فيه معين ، وقد ذكروا لذلك نكته وهي قصد العموم لاحتمال دخول كل ما يستعان عليه ،

والفعل المثبت وإن كان له حكم الإطلاق المخالف لحكم العموم في عدم احتوائه جميع أفراد مدلولات لفظه دفعة واحدة ، فإنه بعدم تقييده يقضي باحتمال قصد أي فرد من أفراد تلك المدلولات ، ومن جهابذة المفسرين من يرى أن الاستعانة هنا ليست على إطلاقها وإنما هي محصورة في العبادة ، وممن جنح إلى هذه العلامة الزمخشري في كشافه حيث جعل الاستعانة مبهمة أوضحها قول الله تعالى فيما بعد : ﴿إهدنا الصراط المستقيم﴾ فكأنما المستعينون سُئلوا من قبل العلي الأعلى : كيف أعينكم ؟ فقالوا : إهدنا الصراط المستقيم .

واللائق بعقيدة التوحيد عموم الاستعانة في كل ما يطلب العون فيه وهذا لايمنع أن تكون العبادات داخلة من باب الأولوية فيما يستعان فيه ، وقد أسلفنا حديث ابن عباس رضي الله عنهما الدال على أن الاستعانة بالله شاملة لكل ما يُطلب فيه العون ، وقد نبَّه النبي ﷺ على طلب العون من الله في أداء العبادة ، فقد أخذ يوما بيد معاذ رضى الله عنه وقال : (والله إني لأحبك أوصيك يا معاذ ، لا تدعن في دبر كل صلاة أن تقول : «اللهم أعني على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك») .

﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ .

الهداية تطلق على الدلالة ، وخصها بعضهم بالدلالة المصحوبة باللطف وأجيب عما عساه يتجه إلى هذا من سؤال عن قول الله تعالى : ﴿فَاهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ﴾(الصافات/٢٣) الذي تنافي الهداية فيه اللطف المزعوم بأن الآية واردة مورد التهكم على حد ﴿فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾(التوبة/٣٤) وكما قال الشاعر :ـ

وخيل قد دلفت لها بخيل تحية بينهم ضرب وجيع

والهداية في القرآن ذات مدلولات متعددة ، فلذلك تأتي تارة مسنداً فعلها إلى الله وحده ومنفيا عمن سواه ، كما في قوله تعالى في خطاب الرسول ﷺ : ﴿إِنَّكَ لَاتَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾(القصص/٥٦) وفي قوله : ﴿وَمَا أَنْتَ بِهَادِي الْعُمْيِ عَنْ ضَلَالَتِهِمْ﴾(النمل/٨١) وقوله : ﴿لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾(البقرة/٢٧٢) ويُسند فعلها تارة إلى غيره تعالى كإسناده إلى الرسول ﷺ في قوله ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾(الشورى/٥٢) وإسناده إلى النبيين من قبله كما في قوله عزّ من قائل : ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا﴾(الأنبياء/٧٣) وإسناده إلى القرآن في قوله سبحانه : ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾(الإسراء/٩) وتأتي تارة محصورة في المؤمنين وحدهم دون الكافرين كما في قوله سبحانه في وصف القرآن : ﴿هُدًى لِلْمُتَّقِينَ﴾(البقرة/٢) وقوله : ﴿هُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾(النمل/٢) وقوله : ﴿هُدًى وَرَحْمَةً لِلْمُحْسِنِينَ﴾(لقمان/٣) وقوله سبحانه في وصف المؤمنين : ﴿وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ وَهُدُوا إِلَى صِرَاطِ الْحَمِيدِ﴾(الحج/٢٤) وقوله : ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾(العنكبوت/٦٩) وقوله : ﴿وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللهِ يَهْدِ قَلْبَهُ﴾ وقوله : ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ﴾(محمد/١٧) وقوله : ﴿وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ فَلَنْ يُضِلَّ

أَعْمَالَهُمْ ، سَيَهْدِيْهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ﴾(محمد/٤ ، ٥) وقوله : ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيْهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ﴾(يونس/٩) وقوله في النبيين : ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَىٰ اللهُ فَبِهُدَاهُمْ اقْتَدِهْ﴾(الأنعام/٩٠) وتأتي تارة شاملة للمؤمنين والكفار كما في قوله سبحانه : ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾(الإنسان/٣) وقوله : ﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَينِ﴾(البلد/١٠) بل تأتى تارة نصا في الكفار وحدهم كما في قوله سبحانه : ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى﴾(فصلت/١٧) ومن هذا الباب قول الله تعالى : ﴿الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾(طه/٥٠) وقوله : ﴿الَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ﴾(الأعلى/٣) .

وقد استظهر أصحابنا رحمهم الله من هذا أن الهداية تنقسم إلى قسمين : هداية بيان ، وهداية توفيق ، فهداية البيان تعم المؤمن والكافر ويُحْمل عليها نحو قوله تعالى : ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ﴾ ، وأما هداية التوفيق فهي محصورة في المؤمنين ، ويُحمل عليها نحو قوله عز وجل : ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللهُ﴾ ، وهداية البيان يصح إسناد فعلها إلى غير الله تعالى كما في قوله : ﴿ وإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ فإن المراد بهدايته ﷺ إلى الصراط المستقيم دعاؤه إليه المقرون ببيان معالمه ، أما هداية التوفيق فليست من مقدور البشر وإنما هي من مقدور القادر على كل شيء الذي يصرف القلوب كيف يشاء ، وإذا نظرنا إلى الآيات التي أوردناها وجدنا أن الهداية أوسع مدلولا وأكثر تشعبا مما ذكره أصحابنا ، فمدلولها يشمل هداية الدين وغيرها ، ومتعلقها الإنسان المخاطب بهداية الدين وغيره من المخلوقات ، لذلك أميل إلى ما قاله بعض أئمة التفسير في القديم والحديث في تفسير الهداية وتقسيمها إلى أقسام :ـــ

الأول : هداية الوجدان الطبيعي والإلهام الفطري ، وتكون للإنسان وغيره

منذ الولادة ، فالمولود يشعر بحاجته إلى الغذاء فيصرخ طالبا له بفطرته ، ويُلهم امتصاص الثدي بمجرد وصوله إلى فيه .

الثاني : هداية الحواس والمشاعر ، وهي تتميم للهداية المذكورة في القسم الأول ، وهي أيضا مشتركة بين الإنسان وغيره ، بل غير الإنسان أكمل فيها وفيما قبلها منه فإن حواس الحيوان وإلهامه تكمل له بعد ولادته بقليل ، أما الإنسان فإنه يتدرج فيها في زمن طويل ، ولذلك لاتظهر عليه عقب الولاده علامات إدراك الأصوات والمرئيات ، وعندما يبصر لايمكنه تحديد المسافات فيرى البعيد قريبا وتحدثه نفسه بأن يمد إليه يده وهذا الغلط في الحس لاينفك عن الإنسان حتى بعد نموه وكماله ، ألا تراه يرى النجم نقطة في السماء وهو قد يكون أكبر من الأرض بملايين المرات ، وهذان القسمان داخلان في عموم قوله تعالى : ﴿الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾(طه/٥٠) وقوله : ﴿الَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى﴾(الأعلى/٣) .

الثالث :هداية العقل وهي خاصة بالإنسان من بين الكائنات الحية المستقرة في الأرض وهذا لأن الإنسان ينوء بثقل أمانة الخلافة في الأرض وهو كائن اجتماعي تتوقف مصالحه على التعارف والتفاهم بين بني جنسه ولم يعط من قوة المشاعر الباطنة والظاهرة ما يكفيه للقيام بما تقتضيه الحياة الاجتماعية كما أعطى النحل والنمل فإن الله قد وهبها من الإلهام الفطري ما يكفيها لأن تعيش مجتمعه يؤدي كل واحد منها وظيفة العَمَل لجميعها ويؤدي الجميع وظيفة العمل للواحد ، وهذا سبب الترابط بين أفرادها ووجود النظام فيما بينها .

أما الإنسان فلم تكن له هذه الخاصية ولم يتوفر له هذا الإلهام ، ومع ذلك فهو يتميز عنها بما منحه من شرف الخلافة في الأرض والسيادة فيها ، وقد وهبه الله في مقابل ذلك هداية العقل التي هي أقوى من هداية الحس

والمشاعر ، فإن العقل هو الذي يصحح أخطاء الحواس والمشاعر ويكشف عن أسباب هذه الأخطاء ، فعندما يرى البصر الكبير صغيرا على البعد ، ويرى العود المستقيم معوجا في الماء ، ويذوق الصفراوي الحلو فيحس منه المرارة يحكم العقل في ذلك فيفند هذه الأخطاء ويبين أسبابها ، وحمل بعضهم على هذه الهداية قول الله سبحانه ﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾(البلد/١٠) .

الرابع : هداية الدين ، فإن العقل وحده لا يستطيع أن يقوّم سلوك الإنسان المعوج ، ويهدي فكره المنحرف فإن الخطأ يتسلط عليه كما يتسلط على الحس ، وقد يتأثر عقل الإنسان بالجو الذي يعيش فيه ، والمحيط الذي يتربى وسطه ، فيستحسن ما يستقبحه غيره ، ويستقبح ما يستحسنه سواه ، وقد تستعلي عواطفه أو رغباته على العقل فتطمس نوره وتوهن قواه ، ولذلك ينساق كثير من الناس ـــ مع ما أوتوه من قوة التفكير ـــ وراء شهواتهم وعواطفهم ، غير مبالين بالمصير الذي تؤديهم إليه ؛ بل يسخّرون أحيانا طاقاتهم العقلية والحسية للوصول إلى ما يهدفون إليه من مقاصد دنيئة ، بدلا من استخدام العقل فيما يؤول إلى سعادة الإنسان الشخصية والنوعية ، ولا تقف رغبات الإنسان عند حد معين ، ولذلك كثيرا ما تفضي به إلى التطاول إلى ما في يد غيره ، وعدم المبالاة بإمتهان كرامة بني جنسه ، فيؤدي الأمر إلى التنازع والتدافع والتقاتل والتفاني ، ولاتغني تلك الهدايات شيئا ، وهذا أمر مشاهد حتى في الشعوب والأمم التي تعد نفسها أرقى من غيرها حضارة ، ولا أدل على ذلك مما يحصل أحيانا في سلسلة الحروب الدولية ، من إبادة شعوب أو استرقاقها ، واهلاك الحرث والنسل بالوسائل العلمية ، التي تستخدمها عقول ضلت سبيل الرشد وأخفقت في بناء مجتمع بشري ينعم بالسعادة والهناء والإستقرار ، ومن ثم كان الإنسان بحاجة إلى هداية أسمى من الهدايات السابقة الذكر تملأ القلب خشية من سلطة غيبية أعلى

وأجل من تصورات البشر ومدارك العقول والأفكار ، وتضع حدودا للأعمال ورسوما لكل ماتتطلبه حياة الإنسان فلا يعدو أحد على غيره ، كما تصل الإنسان بالغيب الذي يتطلع إليه وما هو ببالغه إلا من طريق هذه الهداية .

هذا وقد أودع في غريزة كل إنسان الشعور بهذه القوة الغيبية التي لايحاط بها علما ، والتي تهيمن على الوجود كله وإليها يرد الإنسان بفطرته كل مالا يعرف له سببا لأنها هي التي تهب كل موجود ما يكون به قوام وجوده ، كما أودع في غريزة كل أحد بأن هذه الحياة الدنيا ليست هي الحياة النهائية التي يحياها الإنسان ولذلك يتطلع كل أحد إلى حياة أوسع منها .

والهدايات الثلاث السابقة لا تصل إلى تحديد ما يجب على الإنسان لذي القوة الغيبية الذي خلقه في أحسن تقويم وسخر له ما يحتاج إليه كما لا تصل إلى تحديد ما تكون به السعادة في الحياة الأخرى ، ومن هنا كانت ضرورته إلى الدين وإفتقاره إلى توجيهه ، والهدايات الثلاث السابقة مشتركة بين البر والفاجر ، ويرى بعض المفسرين أنها يشار إليها جميعا بقوله تعالى : ﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾(البلد/١٠) وبعضهم يرى دخول الهداية الرابعة ضمن الإشارة وهذه الهداية الرابعة ــ أعني هداية الدين ــ قد يشارك فيها الفاجر إذا فسرت بالبيان دونما إذا فسرت بالتوفيق كما أسلفنا من قبل ، وهداية التوفيق تنقسم إلى ثلاث مراتب :ــ

المرتبة الأولى : التوفيق لقبول الحق والعمل به وإليها الإشارة بنحو قوله عزوجلّ : ﴿وَلَكِنَّ اللهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾(البقرة/٢٧٢) .

المرتبة الثانية : التوفيق للإستمرار على الحق والإستزادة منه ، وإليها الإشارة بنحو قوله تعالى : ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾(العنكبوت/٦٩) فإن الجهاد نفسه لا يكون إلا بهداية توفيقية من الله سبحانه ، وقوله : ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ﴾(محمد/١٧) واخْتُلف في هذه الهداية ، هل

هي مكتسبة من العبد نظراً إلى العمل يسببها ؟ نحو الجهاد الوارد في قوله عزّوجلّ : ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا﴾ ، أو هي هبة من الله لعبده نظرا إلى أن الله هو الذي أفاضها عليه ، والإختلاف بإختلاف الإعتبارات ليس غير ، ولذلك تصح نسبة إكتسابها إلى العبد كما تصح نسبة هبتها إلى الله تعالى .

المرتبة الثالثة : التوفيق لجوار الله سبحانه في جنات عدن وإليها الإشارة بقوله عز وجل : ﴿وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ ، سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ﴾(محمد/٤ : ٦) وقوله : ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَانِهِمْ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾(يونس/٩) وهذه هي أسمى مراتب الهدايات وأرقى منازل المهتدين ، وجميع الهدايات السابقة سُلَّم للصعود إليها ، ووسائل للحصول عليها .

والأصل في كلمة هدى أن تستعمل بمعنى الإمالة ــ هكذا نقل القرطبي في تفسيره ــ واستدل له بقوله تعالى : ﴿إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ﴾(الأعراف/١٥٦) أي ملنا ، وبحديث عائشة في الصحيحين : (خرج رسول الله ﷺ يتهادى بين رجلين) أي يتمايل من المرض ، ومنه الهدية لأنها تمال من مِلك إلى مِلك والهَدْيُ للحيوان الذي يساق إلى الحرم ، لأنه يمال به من مكان إلى مكان ، وفي الاستدلال لذلك بقوله تعالى : ﴿إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ﴾ نظر فإنه من هاد يهود وليس من هدى يهدي .

ويتعدى فعل الهداية إلى المفعول الثاني بنفسه كما في هذه الآية ، وفي قوله تعالى حكاية عن إبراهيم عليه السلام : ﴿اتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا﴾(مريم ٤٣) ويتعدى إليه باللام نحو قوله سبحانه حكاية عن أهل الجنة : ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ﴾(الأعراف ٤٣) ويتعدى إليه بإلى نحو قوله عز وجل ﴿وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ وَهُدُوا إِلَىٰ صِرَاطِ الْحَمِيدِ﴾(الحج ٢٤) .

وللعلماء آراء في التفرقة بين معنى الهداية إن تعدت بِنَفْسِها إلى المفعول الثاني ومعناها إن تعدت إليه بحرف . ولم تقم أدلة على صحة آرائهم بل قامت على دحض بعضها لذلك استغنيت عن ذكرها . وَطلبُ الهداية هنا محمول على طلب المزيد منها ، أو على طلب التوفيق للاستمرار عليها لأن الإنسان عرضة للخطأ والضلال والتأثر بالمؤثرات الداخلية والخارجية ، وبهذا يجاب عما لو سُئل :

أليس مَن حمد الله بمحامده ، ووصفه بصفاته ، وخصه بالعبادة والإستعانة مهتديا ؟ فلماذا يطلب منه الهداية ؟ وهل هو إلا تحصيل حاصل ؟.

والصراط الطريق ومنه قول الشاعر :

أمير المؤمنين على صراط ... إذا اعْوجَّ الموارد مستقيم

وقول الآخر :

وطِئْنَا أرضهم بالخيل حتى ... تركناهم أذل من الصراط

وأصله السراط بالسين لأنه يسترط السابلة أي يبتلعها ، أو يسترطه السابل بالقطع ، ولذلك سمي لَقَمًا لأنه يلتقم السالك ، أو يلتقمه السالك وأُبدلت السين صادا لمكان الطاء .

روى الحاكم وصححه وتعقبه الذهبي عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قرأ (الصراط المستقيم) بالصاد ، وروى البخاري في تاريخه وسعيد بن منصور وعبد بن حميد عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قرأ (السراط المستقيم) بالسين ، والقراءة بالسين أخرجها ابن الأنباري عن ابن كثير ، أحد القراء السبعة والرواية عنه مختلفة ، فقد روى عنه أيضا الصاد والمضارعة بينها وبين الزاي ، وأخرج ابن الأنباري أيضا عن حمزة أنه كان يقرأ (الزراط)بالزاي الخالصة ، قال الفرّاء : وهي لغة لعذرة وكلب وبني القين ، وهذه القراءة

رواها الأصمعي عن أبي عمرو ، وذكر ابن عطية وأبو حيان في تفسيرهما عن بعض اللغويين ، أنه قال ماحكاه الأصمعي من هذه القراءة خطأ منه ، إنما سمع أبا عمرو يقرأ بالمضارعة فتوهمها زايا ، ولم يكن الأصمعي نحويا فيؤمن على هذا .

ثم ذكر أن هذا الكلام حكاه أبوعلى عن أبي بكر بن مجاهد ، وقد مر أن هذه القراءة أسندها ابن الأنباري إلى حمزة ، وهو أحد القراء السبعة ، وأنها لغة عذرة وكلب وبني القين ، فتخطئة بعض اللغويين للأصمعي في نقلها عن ابي عمرو تسرّع منه ، وأبو حيان الذي نقل هذه التخطئة كما نقلها ابن عطية نقل من بعد عن ابي جعفر الطوسي ، وهو أحد أئمة التفسير من الشيعة الإمامية أنه قال : «الصراط بالصاد لغة قريش ، وهي اللغة الجيدة وعامة العرب يجعلونها سينا ، والزاي لغة عذرة وكعب وبني القين» والجمهور قرأوا بالصاد .

وللمفسرين أقوال في معنى الصراط ترجع إلى ما قاله ابن جرير : أجمعت الأمة من أهل التأويل جميعا على أن الصراط المستقيم هو الطريق الواضح الذي لااعوجاج فيه ، وهو كذلك في لغة جميع العرب.

قيل : هو القرآن ، رواه ابن أبي حاتم وابن جرير عن علي كرم الله وجهه مرفوعا ، ورواه ابن جرير موقوفا عليه ، ويشهد له ما رواه أحمد والترمذي عن علي مرفوعا في فضائل القرآن : «وهو حبل الله المتين ونوره المبين والذكر الحكيم والصراط المستقيم» وقد تقدم الحديث بتمامه في مقدمة التفسير ، وهذا القول أخرجه ابن المنذر ووكيع وعبد بن وحميد وأبو بكر الأنباري والحاكم وصححه ، والبيهقي عن ابن مسعود .

وقيل هو الإسلام اخرجه وكيع وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر والحاكم وصححه ، عن جابر بن عبد الله ونص ما رووا عنه أنه قال :(هو

دين الإسلام وهو أوسع مما بين السماء والأرض) ، وأخرج نحوه ابن جرير عن ابن عباس رضي الله عنهما ، وكذلك عن ابن مسعود وناس من الصحابة وروى ابن جرير عن محمد بن الحنفية أنه قال : هو دين الله الذي لا يقبل من العباد غيره ، وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : هو الإسلام ، رواه عنه ابن جرير ايضا ، ويشهد لهذا التفسير قول الله تعالى : ﴿قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ، دِينًا قِيَمًا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾(الأنعام/١٦٢) كما يشهد له ما اخرجه أحمد والترمذي وحسنه ، والحاكم وصححه ، والنسائي وابن جرير وابن المنذر وابوالشيخ وابن مردويه والبيهقي في شُعَب الإيمان عن النوّاس ابن سمعان عن رسول الله ﷺ قال : (ضرب الله مثلا صراطا مستقيما وعلى جنبتي الصراط سوران فيهما أبواب مفتّحة ، وعلى الأبواب ستور مرخاة وعلى باب الصراط داع يقول : يا أيها الناس ادخلوا الصراط جميعا ولا تَفرّقوا ، وداع يدعو من فوق الصراط فإذا أراد الإنسان أن يفتح شيئا من تلك الأبواب ، قال ويحك لا تفتحه فإنك إن تفتحه تلجه ، فالصراط الإسلام ، والسوران حدود الله ، والأبواب المفتحة محارم الله ، وذلك الداعي على رأس الصراط كتاب الله ، والداعي من فوق واعظ الله تعالى في قلب كل مسلم) قال ابن كثير : ــ بعدما أورد بعض أسانيد الحديث ــ وهو إسناد حسن صحيح .

وقيل : هو السُّنَّة ذكره بعض المفسرين عن بعض الصحابة .

وقيل : هو رسول الله ﷺ وصاحباه أبوبكر وعمر ، أخرجه عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن عدي وابن عساكر عن عاصم الأحول عن أبي العالية ، وجاء فيه عن عاصم الأحول أنه ذكر للحسن البصري تفسير أبي العالية فقال : صدق ابو العاليه ونصح ، وأخرج الحاكم وصححه عن أبي العالية عن ابن عباس مثله .

قال قطب الأئمة رحمه الله في الهيميان : «ويُقدر مضاف أي اهدنا اتّباعهم ، وفيه تكلف بعيد ، وتجوز تسمية أشخاصهم طريقا ووجهه أنهم واسطة إلى الجنة لمن اقتدى بهم ممن أنعم الله عليه ، وعلى هذا الأخير يكون الخطاب لغيره ﷺ وغير أبي بكر وعمر رضي الله عنهما ، قيل : وهو قوي في المعنى» .

وأخرج الطبراني عن ابن مسعود رضي الله عنه قال : الصراط المستقيم الذي تركنا عليه رسول الله ﷺ ، وذكر القرطبي في تفسيره عن الفضيل بن عياض أنه قال : هو طريق الحج ، قال القرطبي : وهذا خاص والعموم أولى .

وهذه الأقوال كلها ماعدا الأخير متحدة في المعنى وإن اختلفت في اللفظ ، فإن الإسلام يتمثل في تعاليم القرآن وهديه ، وسنة الرسول ﷺ وهديه وهدى أصحابه رضي الله عنهم ، فلا يختلف تفسير من فسره بالقرآن عن تفسير من فسّره بالإسلام أو السنة أو الرسول ﷺ وصاحبيه ، وإنما اختلفت العبارات لإختلاف الإعتبارات ، وقد أوردنا سابقا كلام ابن تيميه ، الذي أوضح فيه أن مثل هذا لايُعد خلافا ، وانتقد الفخر الرازي تفسير الصراط المستقيم بالإسلام أو القرآن نظرا إلى أن قوله تعالى : ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ بدل من «الصراط المستقيم» والبدلية تقتضي صحة حلول البدل محل المبدل منه ، فكأنه قيل : إهدنا صراط الذين أنعمت عليهم ، والأمم السابقة لم يكن لها القرآن والإسلام ، ورد عليه أبوحيان في البحر المحيط بأن هذا لايتأتي له إلا إذا صح أن الذين أنعم الله عليهم هم متقدمون ، قال : «وستأتي الأقاويل في تفسير الذين أنعم الله عليهم» : ورد الألوسي على الفخر بما حاصله أن الفخر نفسه اختار فيما اختار من الوجوه التي ارتضاها أن الصراط المستقيم هو الوسط بين طرفي الإفراط والتفريط في كل

الأخلاق وفي كل الأعمال ، وأكد ذلك بقوله تعالى : ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾(البقرة/١٤٣) قال الألوسي : «فياليت شعري ماذا يقول لو قيل له لم يكن هذا للمتقدمين من الأمم ، وتلونا عليه الآية التي ذكرها ، وسبحان من لا يُرد عليه» .

هذا وقد تقدم ما يدل على صحة تفسير الصراط المستقيم بالإسلام من القرآن والحديث ، ومما يؤكد ذلك قول الله تعالى : ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ﴾(الأنعام/١٥٣) ولا معنى لما يقوله الفخر ، من أن الأمم الماضية لم يكن لها إسلام ، فإن الإسلام لم تختص به هذه الأمة فحسب ، بل هو مشترك بينها وبين جميع الأمم ، التي اتبعت هدى أنبيائها فإن المرسلين ما بعثوا لتفريق الدين بل بعثوا لجمعه وتوحيده ، وينص على ذلك قول الله تعالى : ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ، وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ، اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ﴾(الشورى/١٣) وإذا كانت شرائع النبيين قد اختلفت باختلاف الظروف التي واجهوها ، وأحوال الأمم التي بعثوا فيها ، فإن أصول دينهم لم تختلف ، إذ لم يأت رسول إلا ويدعو إلى توحيد الله وعدم إشراك غيره في العبادة ،وهذا هو الإسلام عينه . ومما يدل على ماقلناه قول الحق سبحانه ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِياً وَلَا نَصْرَانِياً وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُسْلِماً وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾(آل عمران/٦٧) وقد حكى الله عن إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام أنهما كانا يقولان ــ وهما يرفعان قواعد البيت العتيق ــ : ﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ﴾(البقرة/١٢٨) وقال عز وجل : ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُ ، وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ إِذْ قَالَ لَهُ

رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَابَنِيَّ إِنَّ اللهَ اصْطَفَىٰ لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُم مُسْلِمُونَ﴾(البقرة/١٣٢) ونجد في القرآن الكريم نصا صريحا على أن النبيين الذين كانوا يحكمون بالتوراة كانوا من المسلمين ، فقد قال عز وجل : ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا﴾(المائدة/٤٤) فلا معنى لقول من يقول : إن الإسلام من اختصاص هذه الأمة ، نعم أنزل الإسلام على هذه الأمة على أكمل وجهه ، وأوسع أبوابه ، وأوضح طرقه ، ليكفي الإنسانية مشاكلها ، إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها ، ولا إشكال في تفسير الصراط بالقرآن ، لتضمن القرآن الكريم ما جاء به النبيون من الهدى .

ويرى الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده أن الصراط ، جملة ما يوصل إلى سعادة الدنيا والآخرة ، من عقائد وآداب وأحكام وتعاليم ، ويرى أن سبب تسمية ذلك صراطا ، كون العقيدة الصحيحة وما تستلزمه من أعمال صالحة بمثابة الطريق التي تفضي بسالكها إلى الغاية ، وهذا الذي يقوله لا ينافي تفسير الصراط بالإسلام ، لدخول ما ذكره في ضمن مدلوله ، فإن الإسلام ينظم أعمال الدنيا والآخرة ، بدليل قول الله تعالى : ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِيْ وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِيْ لِلهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ . لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾(الأنعام/١٦٣) والمستقيم في عرف أهل الهندسة أقصر خط يصل بين نقطتين ، لسلامته من الإعوجاج الذي يؤدي إلى الطول ، وهو لازم للمعنى اللغوي ، ويقابله كل مافيه انحراف ، لأن كل من يمل عن الخط المؤدي للغاية المطلوبة بسهولة ، يكن أضل عن القصد ، وأبعد عن الغاية ممن يمشي في خط ذي **تمعج** وتعاريج ، لأن الأخير يمكنه الوصول إلى الغاية ولوبعد زمن طويل ، أما الأول فكلما أوغل في السير ازداد بعدا عنها ، والإسلام بتعاليمه السمحه ومنهاجه السليم ، يوصل سالكه إلى سلامة الدنيا

وسعادة الآخرة ، والذي يميل عنه يزيغ عن السلامة بقدر ميلولته ، وفسر (الصراط المستقيم) بقوله :ـــ

﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾

فصراط هنا بدل من الصراط الذي ذكر من قبل ، وهذا النوع من البدل يعبر عنه النحويون ببدل الكل من الكل ، وزعم بعضهم بأن «صراط» الثاني غير «الصراط» الأول ، وكأنه نُوى فيه حرف عطف ، واختلف هؤلاء في تعيينه ، فجعفر بن محمد يرى أنه العلم بالله والفهم عنه ، وبعضهم يرى أنه موافقة الباطن للظاهر في إسباغ النعمة ، ومنهم من يرى أنه التزام الفرائض والسنن . ودعوى أن «صراط» الثاني غير الأول ، ما هي إلا هروب من الواضح إلى المشكل ، وفائدة المجيء بالبدل والمبدل منه ، التنصيص على أن صراط هؤلاء هو عَلمَ في الإستقامة ، فلو قيل : إهدنا صراط الذين أنعمت عليهم ، لم تحصل هذه الفائدة ، ومثال ذلك إذا أردت المبالغة في وصف أحد بالكرم والفضل فإنك تقول : (هل أدُلك على أكرم الناس وأفضلهم فلان ، فإنك بذلك جعلته علما على الكرم والفضل ، بحيث إذا ذكر تُصوِّر الكرم والفضل في أعلى مراتبهما ، بين يدي السامع وأمام ناظريه ، ولو جئت بأسلوب آخر وقلت : هل أدُلك على فلان أكرم الناس وأفضلهم ، لم تفد العبارة هذه المبالغة ، وكذلك هنا ذُكر أولا الصراط المستقيم ثم فُسر بصراط الذين انعم الله عليهم ليكون نصًّا في أن هؤلاء المنعم عليهم هم معالم الإستقامة وأعلام الاعتدال والرشد ، يُهتدى بهم إلى مرضاة الرب تعالى .

واختلف في المقصود بهم فالجمهور يرون أنهم النبيون والصديقون والشهداء والصالحون ، أخذا من قوله تعالى : ﴿وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُوْلَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقاً﴾(النساء/٦٩) ويعتضد ذلك بذكر الصراط

المستقيم في هذا السياق قبل هذه الآية في قوله عز وجل : ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ ، وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا وَإِذاً لآتَيْنَاهُمْ مِن لَدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا وَلَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيماً﴾(النساء ٦٦-٦٨) وهذا هو الذي رواه ابن جرير عن ابن عباس رضي الله عنهما ، وروي عنه : أنهم المؤمنون . وأخرج عبد ابن حميد عن الربيع بن أنس أنهم النبيون ، وقيل : هم قوم موسى وعيسى قبل النسخ والتبديل ، وقيل : هم المسلمون ، وقيل : أصحاب محمد ﷺ ، وروي عن أبي العالية أنهم محمد ﷺ وصاحباه أبو بكر وعمر رضي الله عنهما ، وانتقد الإمام محمد عبده تفسير المنعَم عليهم بالمسلمين ، محتجا بأن الفاتحة أول سورة نزلت ، كما روى عن الإمام على كرم الله وجهه ، وكما حققه الإمام محمد عبده نفسه .

وإن لم تكن أول سورة على الإطلاق ، فلا خلاف في أنها من أوائل السور ولم يكن المسلمون حال نزول السورة بحيث يطلب الإهتداء بهداهم ، لأن هداهم معقود بالوحي ، وتلك هي بداية الوحي ، ثم انهم هم المأمورون بأن يطلبوا من الله أن يهديهم هذا الصراط ، صراط الذين أنعم عليهم من قبلهم فهم قطعا غيرهم ، ورجح الإمام محمد عبده قول الجمهور أنهم هم الذين أنعم الله عليهم ، من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين ، وانتقاد الإمام موجه إلى الذين يزعمون أن هؤلاء المنعم عليهم هم مسلمو هذه الأمة وهو لاينافي أن يكون المعنيون ــ وإن كانوا قبل هذه الأمة ــ من المسلمين أيضا ، لما علمت من أن الإسلام ليس محصورا في هذه الأمة ، وإنما هو دين جميع النبيين والصالحين ، وأوضح الإمام محمد عبده أن ما جاء من ذكر المنعم عليهم إلى آخره ، مجمل لما فصل في سائر القرآن من أخبار الأمم وبيان أحوالها مما يقدر بثلاثة أرباع القرآن تقريبًا ، والمراد من ذلك توجيه الأنظار إلى الإعتبار بأحوال الأمم في الكفر والإيمان ، والشقاوة والسعادة إذ

لاشيء ــ يهدي الإنسان كالمثُلات، والوقائع ، فإذا إمتثل المسلمون الأمر والإرشاد ، ونظروا في أحوال الأمم السالفة ، وأسباب علمهم ، وجهلهم ، ورقيهم ، وانحطاطهم ، وقوتهم ، وضعفهم، وعزهم ، وذلهم ، وسائر ما يعرض للأمم ، كان لهذا النظر أثر إيجابي في نفوس المسلمين ، يحملهم على الإقتداء بالصالحين من قبلهم واتباع أسباب العلم والرقي والقوة والعز ، ليتمكنوا في الأرض ، واجتناب أسباب الجهل والإنحطاط والضعف والذل التي تؤدي إلى الشقاوة والهلاك والدمار .

ثم أشار الأستاذ محمد عبده إلى علم التاريخ ، ومافيه من الفوائد والثمرات وذكر أن العاقل تأخذه الدهشة والحيرة إذا سمع أن كثيرا من شيوخ الدين من أمة هذا كتابها يعادون التاريخ بإسم الدين ، ويزهدون فيه غيرهم ، كما يرغبون بأنفسهم عنه ، زاعمين أنه لاحاجة إليه ولافائدة منه ، ثم قال وكيف لايدهش ويحار والقرآن ينادي بأن معرفة أحوال الأمم من أهم مايدعو إليه هذا لدين ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمُ الْمَثُلَاتُ﴾(الرعد/٦) .

وأورد بعد هذا سئوالا وهو : كيف يأمرنا الله باتباع صراط من تقدمنا ؟! وعندنا احكام وإرشادات لم تكن عندهم، وبذلك كانت شريعتنا أكمل من شرائعهم ، وأصلح لزماننا ، وما بعده؟ وأجاب مما ذكرناه من قبل أن دين الله في جميع الأمم واحد، وانما تختلف الأحكام بالفروع التي تختلف بإختلاف الزمان ، وأما الأصول فلا خلاف فيها فالإيمان بالله وبرسله وباليوم الآخر ، وترك الشر وعمل البر ، والتحلي بالأخلاق الفاضلة والتخلي عن العادات المذمومة، كل من ذلك أمر مشترك بين الجميع ، وقد أمرنا الله بالنّظر فيما كانوا عليه ، والاعتبار بما صاروا إليه ، لنقتدي بهم في القيام على أصول الخير ، وهو أمر يتضمن الدليل على أن في ذلك الخير والسعادة ، على

حسب طريقة القرآن ، في قرن الدليل بالمدلول ، والعلة بالمعلول والجمع بين السبب والمسبب ، وتفصيل الأحكام التي هذه كلياتها بالإجمال نعرفه من شرعنا ، وهدى نبينا عليه أفضل الصلاة والسلام .

وزاد السيد محمد رشيد رضا عما قال أستاذه ، أن في الإسلام من ضروب الهداية ماقد يُعَد من الأصول الخاصة به ، ويَرى أنه مما يقتضي الاستدراك على ما قرره الأستاذ الشيخ محمد عبده ، وذلك نحو بناء العقائد في القرآن على البراهين العقلية والكونية ، وبناء الأحكام الأدبية والعملية على قواعد جلب المصالح والمنافع ، ودفع المضار والمفاسد ، ونحو بيان أن للكون سننا مطّردة تجري عليها عوالمه العاقلة وغير العاقلة ، وكالحث على النظر في الكائنات لقصد العلم والمعرفة ، لما فيها من الحكمة والأسرار التي يرتقي بها العقل ، وتتسع بها أبواب المنافع للإنسان ، وكل ذلك مما امتاز به القرآن ، وأجاب عن ذلك أنه تكميل لأصول الدين الثلاث ، التي بعث بها كل نبي مرسل لجعل بنائه رصينا مناسبا لارتقاء الإنسان ، والأصول الثلاثة هي الإيمان الصحيح ، وعبادة الله تعالى وحده ، وحسن المعاملة مع الناس ، ولا خلاف فيها في رسالات جميع المرسلين .

والإنعام أطلق في الآية الكريمة لأن من رُزِق نعمة التوفيق للخير ، فكأنما استجمع جميع النعم ، والخير بأسره محصور في الإسلام ، فمن هُدي إليه فقد جمع بين نعمة الحال والمــآل ، وللعلماء رأيان في الكفرة ، هل يقال فيهم : إن الله أنعم عليهم أو يمنع ذلك ؟ فالمعتزلة يجيزون هذا الوصف في غير المسلمين ، وأكثر علماء الكلام من غيرهم يمنعونه ، ونجد الفخر الرازي في تفسيره (مفاتيح الغيب) يستدل للقائلين بالمنع بأنه لو جاز نحو هذا الوصف في غير المؤمنين ، لأدى ذلك إلى دخولهم ضمنا في قوله سبحانه : ﴿الذين أنعمت عليهم﴾ وهذا يقتضي جواز أن يقول الإنسان في

دعائه : (إهدني صراط من أنعمت عليهم من القوم الكافرين) ولما امتنع ذلك بالإجماع ، ثبت لدينا عدم صدق وصف الإنعام على غير المؤمنين ، وأنت إذا تدبرت ما جاء من تقييد في نفس هذه الآية الكريمة إتضح لك بطلان ما يقوله الرازي ، فإن قوله سبحانه ﴿غير المغضوب عليهم ولا الضالين﴾ وصف تقييدي للمنعم عليهم ، يُخرج مما يقتضيه إطلاق لفظ الإنعام ، كل من لم يكن على طريقة أصحاب الصراط المستقيم المعنيين في الدعاء ، ويدل على ذلك ما جاء في القرآن ، من تذكير الناس — مؤمنهم وكافرهم — بآلاء الله ، وقد يأتي الخطاب موجها إلى غير المؤمنين ، ومما ورد هذا المورد قول الله عز وجل : ﴿يَاأَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ، الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾(البقرة ٢١ / ٢٢) وقوله : ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ، هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمٰوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾(البقرة ٢٨ / ٢٩) وقوله عز وجل ﴿يَابَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ﴾(البقرة /٤٧) وقوله سبحانه : ﴿يَابَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾(البقرة /١٢٢) وقوله تعالى : ﴿لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ إِيلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ ، فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ . الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِنْ خَوْفٍ﴾(سورة قريش) .

إلى ما وراء ذلك من آيات الإمتنان ، التي تعم المؤمن والكافر تارة ، وتخص الكافرين تارة أخرى ، أمّا ما قيل من أن هذه العطايا التي بسطها الله للكفار ليست إنعاما عليهم ، وإنما هي استدراج ولا تساوى شيئا ، إذا قيست بما

ينتظرهم من عقاب ، فالجواب عنه : أنها وإن كانت استدراجا فهي لا تنافي أن تكون إنعاما ، كما نص عليه الكتاب في خطاب بني إسرائيل ، والعقاب العظيم الذى ينتظر الكفار ليس مترتبا على النعم ، وإنما هو مترتب على كفرهم بها وبواهبها سبحانه وتعالى ، والكفر قد كان باختيارهم ، ولم يكونوا عليه مكرهين .

والنعمة عرّفها بعض العلماء بأنها الحالة التي يستلذها الإنسان ، وقسمها بعضهم إلى دنيوية وأخروية ، والدنيوية إلى روحانية وجسمانية ، فالروحانية نفخ الروح وإنارة العقل وإذكاء المشاعر ، والجسمانية تكوين الجسم وتجهيزه بالطاقات المختلفة والحواس المتنوعة ، والأخروية هى الفوز برضوان الله والسعادة بجواره ، في جنات عدن ، وهي تترتب على نعمة الهداية المترتبة على التوفيق لاستخدام العقل فيما يؤدى إلى الخير ، وبهذا التقسيم يتضح لك أن من النعم مايكون مشتركا بين المؤمن والكافر ، ومنها ما يكون خاصا بالمؤمنين ، والمنعم عليهم هنا هم المؤمنون ، لأنهم الذين وفقوا لسلوك صراط الحق ، المؤدى إلى رضوان الله عز وجل ، وطريقهم هو طريق العز والنصر في الدنيا ، والفوز والسعادة في الدار الآخرة ، فإن اللهُ سبحانه قد وعد بالاستخلاف والتمكين للمؤمنين الملتزمين لنهج الإيمان ﴿ وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا آسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلِيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلِيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ، يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا ﴾(النور/٥٥).

﴿ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ﴾

الجمهور قرأوا بجر « غير » ، وابن كثير قرأ بنصبها ، وروى عنه الجر ، ولا إشكال في قراءة النصب ، لأن « غير » يلزمها التنكير ،وإن أضيفت إلى المعارف كمثل ، وذلك أنك إذا قلت : رأيت غيرك فكل ، ما سوى المخاطب يحتمل أن يكون المراد ، وكذلك إذا قلت : رأيت مثلك فإن الاعداد المحتمل قصدها من أمثاله لا تحصى ، لكثرة وجوه المماثلة ، وعليه فالنصب هنا على الحال ، وأما قراءة الجر فلعلماء العربية فيها رأيان : أولهما أن تكون « غير » بدلا من « الذين » أو بدلا من الضمير في « عليهم » والوجه الثاني ضعيف ، وهذا الرأي مبني على جواز الإبدال بالمشتق وما في حكمه ، ويرى أبوحيان ضعفه . ثانيهما : أن تكون « غير » صفة للذين وهو مبني على أحد أمرين إما اعتبار « الذين » في حكم المعرّف بلام الجنس ، وهو المعبر عنه بالمعهود الذهني ، فإنه يكون مَعرفة بالنظر إلى مدلوله وله حكم النكرة بالنظر إلى قرينة البعضية المبهمة ، ولذلك يعامل معاملتها في الوصف بالجملة وهي في حكم النكرة ، نحو قول الشاعر :

ولقد أمر على اللئيم يسبني فمضيت ثمت قلت لايعنيني

وإما إعتبار «غير» في حكم المعرفة ، نظراً إلى وقوعها بين معرفتين متضادتين ، وفي مثل هذه الحالة تكتسب التعريف ، نحو قولك : إلزم العلم غير الجهل ، وقولك : إرغب في الحياة غير الموت ، فإنه لاضد للعلم إلا الجهل ، ولاضد للحياة إلا الموت ، وكذلك قول الله تعالى : ﴿الذين أنعمت عليهم﴾ فإن هؤلاء لاضد لهم إلا ما جاء بعد «غير» .

وانتقد أبو السعود إعتبار «الذين» في حكم المعهود الذهني في الإبهام ، لأنه لا معنى لأن يضاف بدل «الصراط المستقيم» إلى الموصول إلا لشهرته

وتميزه ، المنافيين للإبهام ، فإن البدل يراد به إيضاح المبدل منه . أما الزمخشري فإنه سوغ كل واحد من الإعتبارين . وابن جرير اعتبرهما في حكم الوجه الواحد ، وأضاف إليه وجها آخر وهو تقدير «صراط» مضاف إلى «غير» ، وفي هذا تكلف لايخفى على متأمل ، وأنت إذا نظرت في الرأي الأول ، وجدته لايخلو من مسوغ ، فإن توغل «غير» في الإسمية كافٍ لإعطائها بعض أحكام الجوامد كالبدلية ، وإن كانت في حكم المشتق ، والوصف أيضا ليس بالضعيف لإمكان اعتبار إكتساب «غير» هنا للتعريف بسبب وقوعها بين ضدين ، وقد علمت مما نقلناه عن أبي السعود بطلان دعوى أن الإسم الموصول في قوله ﴿صراط الذين أنعمت عليهم﴾ في حكم النكرة ، وبهذا تعلم عدم صحة ما قاله العلامة الساليكوتي وغيره ، في تسويغ تلك الدعوى مما حاصله أنه لا صحة لإرادة جنس المنعم عليهم من حيث هو إذ لاصراط له ، ولا غرض يتعلق بطلب صراط من أنعم عليهم على سبيل الاستغراق ، سواء أريد استغراق الأفراد والجماعات ، أو المجموع من حيث المجموع ، فالمطلوب صراط جماعة ممن أنعم عليهم بالنعم الأُخروية وهم طائفة من المؤمنين لا بأعيانها ، فإن نظر إلى البعضية المبهمة المستفادة من إضافة الصراط إليهم كان كالنكرة ، وإن نظر إلى مفهومه الجنسي أي المنعم عليهم كان معرفة ، نقل ذلك العلامة الألوسي ولم يعقب عليه إلا بقوله : ولا يخلو من دغدغة ، وبطلانه يظهر من حيث أن صراط جميع المنعم عليهم صراط واحد ، وهو الذي ذكره الله تعالى في قوله : ﴿وَأَنَّ هٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيْماً فَاتَّبِعُوهُ ، وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ﴾(الأنعام/١٥٣) وقد صوره النبي ﷺ للأذهان في صورة المحسوس ، عندما خط خطا في الأرض مستقيما لا عوج فيه ، وقال : (هذا صراط الله) وخط عن يمينه ، خطوطا وقال : (هذه السبل ، مامن سبيل إلّا وعلى رأسه شيطان يدعو إليه) ثم تلا الآية ، وهذا

يعني أن صراط أي فرد من المنعم عليهم هو صراط الجنس كله ، وليس لكل طائفة منهم صراط خاص ، حتى يقال بأن الصراط المقصود هنا هو صراط طائفة من المؤمنين ، ويؤكد ذلك أن الصراط المبدل منه معرّف ، وما أريد بالبدل إلا مزيد الإيضاح فلا معنى لمجيئه مبهما ، ولو كان مبهما ــ كما قالوا ــ لما صح أن يكون علما على الاستقامة ومجانبة الإنحراف والاعوجاج .

و«غير» هنا أشربت معنى النفي ، فلذلك صح أن تقابل بلا النافيه ، ولو كانت للإستثناء المحض لما جاز ذلك .

و«الغضب» هو انفعال نفسي يدفع بصاحبه إلى الإنتقام ، وهذا لا يليق بجلال الله سبحانه ، المنزه عن جميع صفات المخلوقين ، فلذلك أول الغضب في مثل هذا المقام ، إما بمسبّبه القريب وهو إرادة الانتقام ، أو بمسبّبه البعيد وهو إنزال العقوبة ، ولفظة الغضب تدل على الشدة ، ولذلك يطلق العرب وصف الغضوب على الناقة العبوس ، وعلى الحيّة الخبيثة ، ويسمون الدرقة من جلد البعير المطويّ بعضه على بعض «غضبه» كما يسمون بذلك الصخرة المتميزة في الجبل ، ومنه قول الراجز : أوغضبة في هضبة ما أمنعا .

و«الضلال» يطلق على الذهاب عن الطريق السوي ، ومنه قوله عز من قائل : ﴿أَئِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ﴾(السجدة/١٠) أي غبنا فيها بالموت ، ومنه قول العرب : ضل اللبن في الماء إذا إمتزج به .

وجيء بفعل الإنعام مسندا إلى ضمير الخطاب ، الموجه إلى الله ، بخلاف الغضب والإضلال ، لأجل تعليم العباد كيف يتأدبون في مخاطبته عز وجل .

وجمهور المفسرين : على أن المراد بالمغضوب عليهم اليهود وبالضالين النصارى ، وذكر ابن أبي حاتم أنه لا يعلم خلافا بين المفسرين في ذلك ، وهو من التفسير المأثور عن الرسول ﷺ ، فقد أخرج عبد الرزاق وأحمد في مسنده وعبد بن حميد وابن جرير والبغوي وابن المنذر وأبو الشيخ عن عبد

الله بن شقيق قال : أخبرني من سمع رسول الله ﷺ وهو بوادي القرى على فرس له ، ويسأله رجل من بني القيْن فقال : من المغضوب عليهم يارسول الله ؟ قال :(اليهود) قال فمن الضالون ؟ قال : (النصارى) وأخرجه إبن مردويه عن عبد الله بن شقيق عن أبي ذر رضي الله عنه أنه سأل رسول الله ﷺ عن ذلك فأجابه بما ذكر ، وأخرج البيهقي عن عبد الله بن شقيق عن رجل من بني القيْن أنه أتى رسول الله ﷺ فسأله ...إلخ وأخرج وكيع وعبد بن حميد وابن جرير عن عبد الله بن شقيق قال : كان رسول الله ﷺ يحاصر أهل وادي القرى فقال له رجل ...إلخ ، وأخرج أحمد وعبد بن حميد والترمذي وحسّنه وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن حبان في صحيحه عن عدي بن حاتم قال : قال رسول الله ﷺ : (إن المغضوب عليهم هم اليهود وإن الضالين هم النصارى) وأخرج أحمد وأبو داود وابن حبان والحاكم وصححه والطبراني عن الشريد قال : مرّ بي رسول الله ﷺ وأنا جالس هكذا ، وقد وضعت يدي اليسرى خلف ظهري واتكأت على ألية يدي فقال : (أتقعد قعدة المغضوب عليهم) وهذا التفسير مروي عن جماعة من أصحاب النبي ﷺ منهم ابن مسعود وابن عباس رضي الله عنهما وروى عن الربيع بن أنس وعبدالرحمن بن زيد بن أسلم وكثير من أئمة التابعين فمَن بعدهم ، قال الشوكاني : والمصير إلى هذا التفسير النبوي متعين وهو الذي أطبق عليه أئمة التفسير من السلف .

وعضد هذا التفسير باقتران ذكر اليهود بالغضب وذكر النصارى بالضلال في عدة آيات من الكتاب نحو قوله عز وجل : ﴿بِئْسَ مَااشْتَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ أَنْ يَكْفُرُوْا بِمَا أَنْزَلَ اللهُ بَغْيًا اَنْ يُنَزِّلَ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ فَبَاؤُا بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾(البقرة/٩٠) وقوله : ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذلِكَ مَثُوبَةً عِنْدَ اللهِ مَنْ لَعَنَهُ اللهُ وَغَضِبَ

عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ أُولَٰئِكَ شَرٌّ مَكَانًا وَأَضَلُّ عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾(المائدة/٦٠) وقوله عز من قائل : ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾(المائدة/٧٨) وقوله تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾ ، والأوْلى — كما قال الألوسي : الاستدلال بالحديث ، لأن الغضب والضلال وردا في القرآن لجميع الكفار على العموم قال تعالى : ﴿وَلَٰكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اللَّهِ﴾(النحل/١٠٦) وقال : ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا ضَلَالًا بَعِيدًا﴾(النساء/١٦٧) وقال ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾(الفرقان/٤٤) .

واليهود والنصارى جميعا جديرون بوصف الضلال ، حقيقون بالغضب ، لذا يتوجه السئوال عن وصف اليهود «بالمغضوب عليهم» والنصارى «بالضالين» وأجاب عنه ابن جرير : بأن الله وسم لعباده كل فريق بما تكررت العبارة عنه به وفهم به امره ولم ير ابن عطية هذه الإجابة تشفي غليلا — وإنها لكذلك — لذلك عدل عنها إلى الجواب ، بأن أفاعيل اليهود من اعتدائهم وتعنتهم وكفرهم ، مع رؤيتهم الآيات ، وقتلهم الأنبياء بغير حق أمور توجب الغضب في عرف الناس فسمى الله ما أحل بهم غضبا ، والنصارى لم تصدر منهم هذه الأشياء ، وإنما ضلوا من أول أمرهم ، دون أن يقع منهم ما يوجب غضبا خاصا بأفاعيلهم في عرف الناس بل ، الغضب العام الذي يستحقه كل كافر ، فلذلك وصفت كل واحدة من الطائفتين بما وصفت به .

ونقل الفخر الرازي تضعيف هذا التفسير ، لأن منكري الصانع والمشركين أخبث دينا من اليهود والنصارى ، فكان الإحتراز عن دينهم أوْلى ، واختار

الفخر أن يُحمل المغضوب عليهم على كل من أخطأ في الأعمال الظاهرة وهم الفساق ، ويَحمل الضالون على كل من أخطأ في الإعتقاد ، لأن اللفظ عام والتقييد خلاف الأصل ، وذكر وجها آخر وهو أن المغضوب عليهم الكفار ، والضالين المنافقون ، لأن الله تعالى بدأ بذكر المؤمنين والثناء عليهم في أوائل البقرة ثم ثنّى بذكر الكفار وتوعّدهم ، ثم ثلّث بذكر المنافقين وتصوير أحوالهم ، فيُحْتمل أن يكون المغضوب عليهم هنا الكفار والضالون المنافقين كما أن المُنعَم عليهم المؤمنون ، ورد ذلك الألوسي بأنه لا قول لقائل ، ولا قياس لقايس بعد قول رسول الله ﷺ الصادق الأمين ، وحكى القرطبي أن المغضوب عليهم هم متبعو البدع ، والضالين هم الذين ضلوا عن سنن الهدى وذكر عن السُّلَمِيّ في حقائقه ، والماوردي في تفسيره ،أنهما حكيا : بأن المغضوب عليهم من أسقط فرض هذه السورة في الصلاة ، والضالين من ضل عن بركة قراءتها .

قال القرطبي : وليس بشيء ، ونقل عن الماوردي قوله : وهذا وجه مردود لأن ما تعارضت فيه الأخبار وتقابلت فيه الآثار ، وانتشر فيه الخلاف ، لم يجز أن يطلق عليه هذا الحكم .

ويرى بعض المفسرين أن المغضوب عليهم هم الذين نبذوا الحق وراء ظهورهم بعد معرفتهم به ، وقيام حجته عليهم ، والضالين هم الذين لم يعرفوا الحق رأسا ، أو عرفوه على غير وجهه الصحيح ، ومن بين القائلين بذلك الإمام محمد عبده ، وأوضح أن المغضوب عليهم ضالون أيضا ، لأنهم بنبذهم الحق وراء ظهورهم قد استدبروا الغاية واستقبلوا غير وجهتها ، فلا يصلون منها إلى مطلوب ولا يهتدون فيه إلى مرغوب ، ولكن فرقا بين من عرف الحق فأعرض عنه على علم ، وبين من لم يظهر له الحق فهو تائه بين الطرق لايهتدي إلى الجادة الموصلة منها ، وهم من لم تبلغهم الرسالة ، أو بلغتهم على وجه لم

يتبين لهم فيه الحق ، فهؤلاء هم أحق باسم الضالين ، فإن الضال حقيقة هو التائه الواقع في عماية ، لايهتدي معها إلى المطلوب ، والعَماية في الدين هي الشبهات التي تلبس الحق بالباطل ، وتشبّه الصواب بالخطأ .

وقسّم الإمام محمد عبده الضّالين إلى أقسام:ـــ

الأول : من حُرموا بلوغ دعوة الرسالة إليهم ، أو بلغتهم على غير وجهها الصحيح ، فهؤلاء لم يُرزَقُوا من أنواع الهداية إلا ما يحصل بالحس والعقل ، وحُرموا رشد الدين ومن الطبيعي أن لا تستقيم أحوالهم في شئونهم الدنيوية ، ولو قُدِّر أن استقامت على الوجه الصحيح ، فلا محيص لهم عن الضلال فيما تكون به نجاة الأرواح وتتحقق به سعادتها في الدار الآخرة على أنَّ الدين المستقيم من شأنه أن يفيض على أهله من روح الحياة ما تكون به سعادتهم في الدنيا والآخرة معا ، فمن حرم الدين حرم السعادتين ، وظهر أثر التخبط والإضطراب في أعماله المعاشية ، وحل به من الرزايا ما يكون عادة نتيجة الضلال والخبط وهي سنة الله في هذا العالم ولن تجد لسنته تبديلا .

ويرى الإمام محمد عبده أن أمر هؤلاء في الآخرة إلى الله إن شاء عفا عنهم وإن شاء أخذهم ولن يساووا المهتدين في منازلهم . وزاد السيد محمد رشيد رضا على كلام أستاذه ، أن الذين حُرموا هداية الدين لايُعقل أن يؤاخذوا في الآخره على ترك شيء مما لايُعرف إلا بهذه الهداية ، وهو معنى كونهم غير مكلفين ، ونسبه إلى جمهور المتكلمين واستدل له بقوله عز وجل : ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً﴾(الإسراء/١٥) .

وانتقد السيد محمد رشيد رضا من قال إنهم مكلفون بالعقل لعدم ظهور وجه لقوله ، إلا إن أراد أن حالهم في الآخرة تكون على حسب ارتفاع أرواحهم بهداية العقل وسلامة الفطرة ، لأن الناس يتفاوتون في إدراكهم وأعمالهم ، بسبب تفاوت استعدادهم الفطري ولإختلاف وسائل تربيتهم .

ويرى السيد محمد رشيد رضا بهذا الجمع بين القولين في تكليفهم وعدمه أو الفصل بينهما ، وذكر أن ما يعطيهم الله تعالى إياه في الدار الآخرة على حسب ما يكونون عليه من الخير أو الشر ، ومن الفضيلة أو الرذيلة هو الجزاء العادل على أعمالهم الإختيارية ويزيدهم الله من فضله إن شاء .

هذه خلاصة كلامهما وأنت تدري أن من الأمور التكليفية ما تكون طريقة معرفته العقل كمعرفة الخالق عز وجل وصفاته الواجبة وانتفاء أضدادها ولذلك يحيل القرآن الكريم إلى التفكر في ملكوت السماوات والأرض ، لأجل الإهتداء إلى معرفة الخالق وعظمته وتقوية الإيمان به عز وجل ، ويشير القرآن الكريم إلى أن الذين يستفيدون من ذلك هم أولوا الألباب الذين يستخدمون ما وهبهم الله تعالى من طاقات العقل والفكر في استجلاء الحقيقة واستظهار الحق ، ومن ذلك قوله عز وجل : ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾(البقرة/١٦٤) وقوله عز من قائل : ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾(آل عمران/١٩٠) والكفار الذين حُرموا نعمة الهداية والدين ، قد طمسوا أنوار بصائرهم بما أخلدوا إليه من الكفر وجنحوا إليه من الضلال ، ولذلك حكى الله تعالى عنهم قولهم يوم القيامة: ﴿لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾(الملك/١٠) .

إذا تدبرت ذلك ، اتضح لك أن من لاحت له معالم الحقيقة وانكشفت لبصيرته أعلام الحق فتعامى عنها مستمسكا بما ورثه من العقائد ، لن يكون سالما ، وكذلك الذي لا يكلف نفسه مؤونة البحث عن الحق والتفتيش عن الصواب ، أما الذي ينشد الحق ويتبع كل بارقة تلمع له من نوره ويحرص على

أداء واجباته الإجتماعية من غير تفريط فيها فذلك الذي تُرجى له السلامة عند الله .على أن الحجة قد قامت على الناس بما يسمعون عنه من أخبار النبوات وأحوال النبيين وما عليهم إلا أن يفتشوا عن ضالتهم المنشوده والله لا يضيع عمل عامل ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾(العنكبوت/٦٩) .

ونحن نسلم أن الشرع هو الحكم في العقائد والأعمال ولكنا نرى وجوب استخدام العقل مع تعذر الوصول إلى الشرع وهذا يقضي أن يتجنب الإنسان كل ما يستقبحه عقله قبل التوصل إلى حكمه الشرعي ولا ريب أن العقول السليمة كلها تقضي بمنع الإعتداء والظلم والفساد ، لأجل ذلك ذهب من ذهب من علمائنا ــ كالإمامين أبي سعيد وابن بركه ــ إلى وجوب تحكيم العقل عند تعذر الوصول إلى الشرع حتى في الأمور العملية ولهذه المسألة مباحث ليس من غرضنا استيفاؤها ، فمن أرادها فليطلبها من مظانها ككتاب الإستقامة للإمام الكُدَمي ومشارق أنوار العقول للإمام السالمي رحمهما الله .

الثاني : من بلغته الدعوة على وجه يؤدي إلى النظر ، فساق همته إليه واستفرغ جهده فيه ولكن لم يوفق إلى الإيمان بما دُعي إليه ، وانقضى عمره وهو جاد في الطلب ، وهذا القسم لا يتكون إلا من أفراد متفرقين في الأمم ولا ينطبق على شعب بأسره من الشعوب ، فلا يظهر له أثر سلبي في أحوال شعب أو أمة ، وما يكون لهما من سعادة أو شقاء في الحياة الدنيا ، أما منزلة صاحب هذه الحالة في الدار الآخرة ، فقد نقل الإمام محمد عبده عن بعض الأشاعرة ، أنه ممن تُرجى له رحمة الله تعالى ، وعزا صاحب هذا الرأي مثله عن أبي الحسن الأشعري ، وعزا الإمام محمد عبده إلى الجمهور ــ بناء على رأيهم ــ أن مؤاخذته أخف من مؤاخذة الجاحد ، الذي أنكر التنزيل واستعصى على الدليل وكفر بنعمة العقل ورضي بحظه من الجهل .

هذا ملخص ما قاله في أصحاب هذا القسم ، ولكنني أستبعد جدا أن يتجه إنسان إلى الحق غير راغب عن شيء منه ولا مؤثر لهواه عن بعض ما يقتضيه الحق ويستلزمه الرشد مستخدما كل الوسائل الممكنة له في الوصول إليه ، ثم يحال بينه وبينه لأن الله تعالى يقول : ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ والله لايخلف الميعاد ، فلا يتصور هذا بحال وإذا ضل الإنسان عن جملة الحق أو عن بعضه فما هو إلا نتيجة تقصيره في البحث أو اتباعه الهوى بعدما تبين له الهدى ، ومثل هذا لايصح أن تُرجى له رحمة الله ،لأن رحمةالله إنما هي للمتقين.

الثالث : من بلغتهم الرسالة وصدّقوا بها ، بدون نظر في أدلتها ولا وقوف على أصولها فكانت عقائدهم نابعة من أهوائهم ، وهم أصحاب البدع المنحرفون في إعتقادهم عن هداية الوحي ، وهم الذين مزّقوا شمل الأمّة لإنحرافهم عن نهج سلفها الصالح ، وأشار الإمام محمد عبده إلى طَرَفٍ من آثار هؤلاء في الناس ، فذكر أن الرجل منهم يأتي إلى دوائر القضاة ، فيستحلف بالله العلي العظيم أنه لم يفعل ما نسب إليه فيحلف وعلامة الكـــــــــــــذب باديـــــــــــــة على وجهه فإذا أتاه المستحلف من طريق آخر وحمله على الحلف بشيخ من المشايخ الذين يعتقد لهم الولاية ، لم يلبث أن يتغير لونه وتتزلزل أركانه ويرجع في قسمه ويقول الحق ، مقرا بأنه فعل ما حلف أولا بالله أنه لم يفعله ، تكريما لاسم ذلك الشيخ وخوفا منه أن يسلب عنه نعمة أو ينزل به نقمة إذا حلف باسمه كاذبا ، ويرد الإمام محمد عبده هذا الضلال إلى الضلال في الإيمان بالله وما يجب له من الوحدانية في الأفعال ، ثم أشار بعد ذلك إلى الضلالات المتنوعة التي عرضت على دين الإسلام وسلكت بهذه الأمة سبلا معوجة ، لاتوصل إلى حق ولا رشدٍ ، وذكر أن من أشنع هذه الضلالات أثرا وأشدها

ضررا خوض رؤساء الفرق منهم في مسائل القضاء والقدر والاختيار والجبر والوعد والوعيد وتهوين مخالفة الله على النفوس ، ثم ذكر أنه لابد لمن أراد تمحيص الإعتقاد ومعرفة ما فيه من الضلال والرشاد من تنزيه القرآن عن إدخال أي شيء مما في أدمغة الناس من المعتقدات فيه وبدون ذلك لا يمكن معرفة الهداية من الضلال ، لاختلاط الموزون بالميزان ، فلا يُدرى ما هو الموزون به ، ثم أوضح أن معنى ذلك أن يكون القرآن أصلا تحمل عليه المذاهب والآراء في الدين ، لا أن تكون المذاهب أصلا والقرآن هو الذي يحمل عليها ، ويُرجع بالتأويل أو التحريف إليها كما جرى عليه المخذولون وتاه فيه الضالون .

الرابع : الذين ضلوا في الأعمال وحرفوا الأحكام عما وضعت له نتيجة الخطأ في فهم مقاصد الشعائر الدينية والواجبات الاجتماعية التي فرضت في الإسلام وضرب الإمام محمد عبده لذلك مثلا : الإحتيال في الزكاة بتحويل المال إلى ملك الغير قبل حلول الحول ثم استرداده بعد مضي جزء من الحول الثاني هروبا من الزكاة المفروضة ، ويظن المحتال أنه بحيلته قد خلص من أداء الفريضة ونجا من غضب من لا تخفى عليه خافية ، ولا يعلم أنه بذلك يهدم ركنا من أركان دينه ويعمل عمل من يعتقد أن الله قد فرض فرضا وشرع بجانب ذلك الفرض ما يذهب به ويمحو أثره وذلك محال على الله سبحانه وتعالى .

ومثل هذا التحايل الذي ذكره الأستاذ الإمام ، الحيل الرِّبَوِيّةِ التي كثيرا ما يستخدمها الذين لا يرعون للدين حرمة ولا يرقبون في مؤمن إلا ولا ذمة ، نحو ما تعارف عليه الناس من بيوع الإقالة ، فتجد أحدهم إذا احتاج يبيع عقاراً للآخر بثمن معلوم ويشترط الإقالة إلى مدة معلومة ويتفق البائع والشاري على أن يستأجر البائع المبيع من المشتري في كل شهر بقدر معلوم

من غير أن يتخلى عنه ويقبضه المشتري ، وفي هذا العقد حُرَم متعددة :ـــ

الأولى : حرمة التذرع إلى الربا والتحايل على من لا تخفى عليه خافية ، وحرمة الربا لما فيه من الاستغلال وابتزاز ثروات المحتاجين ، وهذا المعنى حاصل في هذه المعاملة .

الثانية : حرمة بيع ما لم يقبض وربح ما لم يضمن ، وقد صح النهي عن ذلك عن النبي ﷺ .

الثالثة : حرمة بيعين في بيع ، وللإيجار حكم البيع ، فاجتماع عقدته وعقدة البيع معاً يُضفي على هذا العقد هذا الحكم نفسه .

الرابعة : حرمة الشرطين في بيع ، وهذا العقد ليس منطويا على شرطين فحسب ، بل على ثلاثة شروط : أولها شرط الإقالة ، ثانيها شرط الاستئجار ، ثالثها اشتراط كون الاستئجار بثمن معلوم ، ومثل هذا قد تفشى في معاملات الناس ، نتيجة الجهل والإستخفاف بأحكام الله تعالى .

وذكر الأستاذ الإمام أن ثلاثة أقسام من هذا الضلال ، أولها وثالثها ورابعها يظهر أثرها في الأمم ، فتختل فيها قوى الإدراك ، وتفسد الأخلاق وتضطرب الأعمال ، ويحل بها الشقاء عقوبة من الله ، لابد من نزولها بهم ، سنة الله في خلقه ولن تجد لسنته تحويلا ، وذكر أن حلول الضعف ونزول البلاء بأمة من الأمم ، من العلامات والدلالات على غضب الله تعالى ، بما أحدثته في عقائدها وأعمالها مما يخالف سننه ، لهذا علمنا الله تعالى كيف ندعوه بأن يهدينا طريق الذين ظهرت نعمته عليهم ، بالوقوف عند حدوده وتقويم العقول والأعمال بفهم ما هدانا إليه ، وأن يجنبنا طرق أولئك الذين ظهرت فيهم آثار نقمه ، بالإنحراف عن شرائعه ، سواءً كان ذلك عمداً وعناداً أو غواية وجهلًا ، وذكر أن الأمة إذا ضلت سبيل الحق ولعب الباطل بأهوائها فسدت أخلاقها واعتلت أعمالها وقعت في الشقاء لا محالة ، وسلط

الله عليها من يستذلها ويستأثر بشئونها ولا يؤخر لها العذاب إلى يوم الحساب وإن كانت ستلاقى منه نصيبها أيضا ، فإذا تمادى بها الغي ، وصل بها إلى الهلاك ومحا أثرها من الوجود ، لهذا علمنا الله تعالى كيف ننظر في أحوال من سبقنا ، ومن بقيت آثارهم بين أيدينا من الأمم لنعتبر ونميز بين ماتكون به سعادة الأمة أو شقاؤها ، أما في الأفراد فلم تجر سنة الله بلزوم العقوبة لكل ضال في هذه الحياة الدنيا ، فقد يُستدرج الضال من حيث لا يعلم ويدركه الموت قبل أن تزول النعمة عنه وإنما يلقى جزاءه ﴿ يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ ﴾(الانفطار ١٩) انتهى كلامه وهو بحث نفيس ولأجل نفاسته حرصت على إيراد أقسام الضالين التي ذكرها وإن كنت أجنح إلى تفسير الضالين في الآية بما أثر عن النبي ﷺ وعن السلف .

ويرى السيد محمد رشيد رضا الجمع بين التفسير المأثور والتفسير الذى عزاه إلى المحققين ــ ومنهم شيخه الإمام محمد عبده ــ بما حاصله ، أنّ ما ذكره المحققون ليس مخالفا للمأثور ، لورود المأثور مورد التمثيل لا التخصيص والحصر .

ونستفيد أمرين جليلين من قوله تعالى ﴿ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ﴾ :

أولهما : وجوب الترابط والتلاحم بين المؤمنين بحيث يكوّن أفرادهم كتلة منيعة ، وتأتي أجيالهم حلقات متتابعة في سلسلة واحدة ، يواصل كل جيل منها ما بدأه الجيل الذى تقدمه .

ثانيهما : وجوب نفرة المؤمنين عن أعداء الدين ومنابذتهم بحيث لا يلتقون معهم على فكر ولا خلق ولا سلوك .

وهذان الأمران هما المعروفان عند العلماء ــ وخاصة أصحابنا ــ بالولاية والبراءة ولأجل أهميتهما جاءت هذه السورة التي هى أكثر تكرارا على ألسنة

المسلمين في الصلاة وغيرها ، مؤكدة عليهما ، فالله تعالى يُعَلِّم عباده أن يطلبوا منه ، بأن يهديهم صراط الذين أنعم عليهم ، من سلفهم الصالحين الذين استقاموا على الطريقة وقاوموا الإنحراف ، وأن يطلبوا بأن يوفقهم لمجانبة طرق أضدادهم من المغضوب عليهم والضالين ، وما أجملته الآية الكريمة هنا قد فصّلته وأكدته آيات أخرى في سائر القرآن منها قوله عز وجل : ﴿ وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللهُ إِنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ (التوبة / ٧١) وقوله : ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللهِ ، وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ، وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُم مِنْ وَلَايَتِهِمْ مِن شَيْءٍ حَتَى يُهَاجِرُوا وَإِنْ اِسْتَنْصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ إِلَّا عَلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ، وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾(الأنفال /٧٢ ، ٧٣) وقوله تعالى : ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُم مِنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُوا بِاللهِ رَبِّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَاِبْتِغَاءَ مَرْضَاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنْتُم وَمَنْ يَفْعَلْهُ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ، إِنْ يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءً وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُمْ وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ﴾(الممتحنة /١ ، ٢) وضرب الله مثلا لعباده المؤمنين ابراهيم عليه السلام ومن معه الذين أعلنوا براءتهم من القوم الكافرين وإن كانوا من ذوي قرباهم حيث قال : ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا

وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللهِ وَحْدَهُ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللهِ مِن شَيْءٍ رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ، رَبَّنَا لَاتَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَاغْفِرْ لَنَا رَبَّنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾(الممتحنة/٤ ، ٥) ثم تلا ذلك ما يدل على وجوب التأسي بهم وعلى أن ذلك لازم الإيمان بالله واليوم الآخر ، حيث قال : ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾(الممتحنة/٦) ومفهوم هذا أن من لم يتأس بهم ليس من الذين يرجون الله واليوم الآخر ، وفي خاتمة الآية مالا يخفى من الوعيد لمن أعرض عن هذا الأمر واستخف بهذا الواجب ، وبين سبحانه أنه ليس من شأن المؤمن أن يوالي أحدا ممن عرف عداوته لله ولدينه ، ولو كان أقرب قريب ، فقد قال عز وجل : ﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ﴾(المجادلة/٢٢) وأكد سبحانه وتعالى أن من تولى كافرا فله حكمه ، حيث قال : ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَاتَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللهَ لَايَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾(المائدة/٥١) وبين عز وجل أن هذه الموالاة لا تنشأ إلا عن مرض نفساني عضال ، يستحكم في قلوب الذين لا يرجون الله واليوم الآخر ، حيث قال : ﴿فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَى أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ فَعَسَى اللهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَى مَا أَسَرُّوا فِي أَنْفُسِهِمْ نَادِمِينَ﴾(المائدة/٥٢) وحذّر في هذا السياق من الإرتداد تعريضا بالذين إتخذوا الكافرين أولياء من دون المؤمنين وتنبيها على أن هذه الموالاة تؤدي إلى الردة والعياذ بالله وذلك في قوله : ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى

الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ﴾(المائدة/٥٤) ويأتي في هذا السياق نفسه بيان صفات القوم الذين يجب على المؤمن أن يرتبط بهم بحبل الولاية ، وهم الذين يجمعون بين الإيمان الراسخ والعمل الصالح ، وذلك حيث يقول : ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ﴾(المائدة/٥٥) وأتبع ذلك ما يكشف عن عاقبة الترابط بين المؤمنين برباط الولاية في قوله تعالى : ﴿وَمَنْ يَتَوَلَّ اللهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللهِ هُمُ الْغَالِبُونَ﴾(المائدة/٥٦) ثم أتبع ذلك كله تأكيد التحذير من ولاية جميع القوم الكافرين في قوله : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَالْكُفَّارَ أَوْلِيَاءَ﴾(المائدة/٥٧) .

وفي هذا ما يكفي العاقل تنفيرا وتحذيرا من الإندفاع وراء خطوات الكافرين وهم الذين لا يضمرون لهذه الأمة إلا الحقد الأسود الدفين ولا يريدون لها إلا الذوبان في بوتقة الإلحاد ، أو الغرق في خِضَمِّ الفساد ، ولذلك ينصبون كل ما يمكن من شراك المكائد ، لاصطياد مرضى القلوب وضعاف الإيمان من هذه الأمة الذين يعشيهم بريق المظهر وتستهويهم نغمة التضليل والإفساد ، وما الغاية من ذلك إلا ترغيبها في سفاسف الأمور ، وتزهيدها في معاليها ، هذا بجانب التآمر عليها في استقلالها وثرواتها .

ولا ريب أن غفلة هذه الأمة عن ذلك كله ، هو الداء العضال المستعصي على العلاج ، وإذا ألقينا نظرة على طريقة السلف الصالح ، الذين مكّن الله لهم في الأرض واستخلفهم فيها ، نجد حياتهم تنم عن عمق فهمهم لمقاصد هذه التوجيهات الربانية ، ولذلك كانوا ينأوْن بأنفسهم ويربأون بها عن الدنو حول ما يوهم مودة لأعدائهم أو إعجابا بشيء من أمرهم وذلك كله نتيحة التربية العملية التي رُبوا بها على هداية القرآن ، وإرشاده ونصحه وتعاليمه ، وكان على رأس من قام بهذه التربية في هذه الأمة رسول الله ﷺ .

كما يتجلى ذلك في أقواله وأفعاله ﷺ فقد بلغ الحال أن كان صلوات الله وسلامه عليه يحرص على مخالفة الكفار حتى في الأمور العادية ، ومن ذلك ما يروى أنه عليه أفضل الصلاة والسلام ، كان واقفا في حال دفن ميت وكان أصحابه وقوفا معه ، فمر بهم يهودي وقال : هكذا تصنع أحبارنا ، فقعد النبي ﷺ وأمر أصحابه بالقعود ، مخالفة لمسلك اليهود ، وكثيرا ما كان الرسول ﷺ يقول لأصحابه في معرض الأمر والنهي ، (خالفوا اليهود أو خالفوا المشركين) وذلك لئلا يتأثر السلوك فتتأثر بالتالى العقيدة ، وهنا لايملك المؤمن إلا أن يقف خاشعا أمام عظمة الإسلام وعمق حكمته وسلامة تربيته ولكن ياللأسف الشديد ، أين هذه التعاليم القرآنية والتوجيهات النبوية من أمة اليوم ؟ التي أخذت تلهث وراء بهرجة الجاهلية الحديثة ، واطئة بأقدامها على قيمها وأخلاقها وعقيدتها ، فما أكثر أولئك الذين يقيسون التقدم الحضاري بمقياس التأثر بحياة الغرب الجاهلية ، فأصبحوا يتأسون بالغربيين في مأكلهم ومشربهم وملبسهم ونومهم وحديثهم ، وجميع أمورهم المعاشية معتقدين بأن ذلك رمز الوعي وعنوان الترقي ولا يدري هؤلاء البله أن ذلك إن دل على شيء ، فإنما يدل على الحماقة والتخلف والإنحطاط والذوبان .

هذا وقد بلغ الإسلام من دقته في هذه الأمور أن كل ماأراد أن يصل إلى هذه الأمة من مواريث النبوات السابقة ، أوصله إليها بطريق الوحي لا بطريق العادات الجاهلية ، بل قطع أولا صلتهم بالجاهلية رأسا ، لئلا تبقى هذه الأمة عالة على غيرها من الأمم ، في شيء من عقيدتها ، ولا في شيء من عباداتها وعاداتها ، ويكفي مثلا لذلك تعظيم البيت الحرام ، الذي بقي عند العرب مما ورثوه عن أبي الأنبياء ابراهيم عليه السلام ، ولكن بما أن ذلك قد تلوث بلوثات الجاهلية ، صرف الله تعالى هذه الأمة أولًا ، حتى عن الإتجاه إلى

البيت الحرام في صلاتها ، لتتلقى جميع أمور دينها عن ربها سبحانه ، من طريق الوحي ، لا من طريق العادات الجاهلية ولما استقرت عقيدتها ورسخ إيمانها وصارت لاتتلقى إلا عن الله تعالى ، أُمرت من جديد باستقبال البيت الحرام ، وشُرعت لها المناسك العظام ، بعدما محصتهم هداية الله ونجحوا في مرحلة الامتحان ، ولذلك يقول الله تعالى : ﴿وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّن يَنْقَلِبُ عَلَى عَقِبَيْهِ وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ﴾(البقرة/١٤٣) وفي هذا ما يكفي لأن يكون عبرة لأولي الألباب ، نسأل الله العون والتوفيق والتأييد والتسديد ، وهو حسبنا وكفى .

تلاوة الفاتحة في الصلاة

فاتحة الكتاب هي أم القرآن ، بالنص الثابت عن النبي ﷺ وبما ذكرناه من اشتمالها على مجمل معاني القرآن ، ولذلك شُرعت تلاوتها في الصلاة ،لتذكيرالمصلي بماتحتويه من المعاني القيمة، التى أنزل القرآن لتبيانها ، ولا خلاف بين الامة في مشروعية تلاوة الفاتحة في الصلاة ، ولكنهم اختلفوا في فرعين من فروع هذه المسألة ، نقسم الحديث عنهما إلى مبحثين :ـــ

المبحث الأول : في وجوب تلاوة الفاتحة في الصلاة : لقد جاءت الأحاديث الصحيحة عن رسول الله ﷺ ، دالة على مشروعية تلاوة الفاتحة في الصلاة ، بل على وجوبها منها ما أخرجه الربيع رحمه الله عن أبي عبيدة ، عن جابر بن زيد عن أنس بن مالك رضي الله عنهم ، قال : قال رسول الله ﷺ : (من صلى صلاة لم يقرأ فيها بأم القرآن فهي خداج) ورواه الجماعه إلا البخاري وابن ماجه عن أبي هريرة رضي الله عنه . وعن عائشة رضي الله عنها قالت : سمعت رسول الله ﷺ يقول : (من صلى صلاة لم يقرأ فيها

بأم القرآن فهي خداج) رواه أحمد وابن ماجه ، ورواه البيهقي من طريق علي مرفوعا بلفظ (كل صلاة لم يُقرأ فيها بأم القرآن فهي خداج) ، وفسّر الربيع رحمه الله الخداج بالناقصة وهي غير التمام ، ومنها ما أخرجه أحمد وأبو داود عن أبي هريرة رضي الله عنه ، أن النبي ﷺ أمره أن يخرج فينادي : (لاصلاة إلا بقراءة فاتحة الكتاب فما زاد) وهو وإن أعل بجعفر ابن ميمون الذي قال النسائي عنه : ليس بثقة ، وقال أحمد : ليس بقوي ، وقال ابن عدي يكتب حديثه في الضعفاء ، فإنه يعتضد بما أخرجه مسلم وأبو داود وابن حبّان عن عبادة بن الصامت ، رضي الله عنه ، أن النبي ﷺ قال : (لا صلاة لمن لم يقرأ بفاتحه الكتاب فصاعدا) والحديث مروي عند الجماعة بدون لفظة (فصاعدا) وإنما تفرد بها منهم مسلم وأبو داود ، وأخرجه الدارقطني بلفظ (لاتجزيء صلاة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب) وقال إسناده صحيح وصححه ابن القطان أيضا ، ويعتضد بشاهد من حديث أبي هريرة مرفوعا بهذا اللفظ ، أخرجه ابن خزيمة وابن حبان وغيرهما ، ورواه أحمد بلفظ (لاتقبل صلاة لايقرأ فيها بأم القرآن) والأحاديث في ذلك كثيرة يعزز بعضها بعضا ، منها حديث أنس عند أحمد والترمذي ، وحديث أبي قتادة عند أبي داود والنسائي ، وابن عمر عند ابن ماجه ، وأبي سعيد عند أحمد وأبي داود وابن ماجه ، وأبي الدرداء عند النسائي وابن ماجه ، وجابر عند ابن ماجه .

وجمهور الأمة يحملون هذه الأحاديث على الوجوب ، حتى أن الفخر الرازي نقل عن ابي حامد الإسفرائينى أنه حكى إجماع الصحابة رضوان الله تعالى عليهم على وجوب قراءة الفاتحة في كل ركعة من الصلاة ، وذكر جماعة عن أبي حنيفة والثوري والأوزاعي ما يدل على عدم وجوب قراءتها ، وذلك أنهم قالوا : إن تركها عامدا في صلاته كلها وقرأ غيرها أجزأه على اختلاف عن الأوزاعي في ذلك ، وقال أبو يوسف ومحمد بن الحسن صاحبا أبي

حنيفة : أقله ثلاث آيات ، أو آية طويلة : كآية الديْن ، وذكر عن محمد بن الحسن أيضا أنه قال : أسوغ الإجتهاد في مقدار آية ومقدار كلمة مفهومه نحو الحمد لله ، ولا أسوغه في حرف لايكون كلاما .

وذكر القرطبي عن الطبري أنه قال : يقرأ المصلي بأم القرآن في كل ركعة فإن لم يقرأ بها لم يجزه إلا مثلها في القرآن عدد آياتها وحروفها ، ونقل القرطبي عن ابن عبد البر قوله : وهذا لامعنى له ، لأن التعيين لها والنص عليها قد خصها بهذا الحكم دون غيرها ، ومحال أن يجيء بالبدل منها من وجبت عليه فتركها وهو قادر غليها ، وإنما عليه أن يجيء بها ويعود إليها كسائر المفروضات المتعينات في العبادات ، وذكر الحافظ ابن حجر في الفتح ، أن الحنفية يتفقون مع غيرهم على وجوب قراءة الفاتحة في الصلاة ، لكن بنوا على قاعدتهم أنها مع الوجوب ليست شرطا في صحة الصلاة ، لأن وجوبها إنما ثبت بالسنة والذي لاتتم الصلاة إلا به فرض ، والفرض عندهم لايثبت بما يزيد على القرآن ، وقد قال تعالى : ﴿فَاقْرَءُوا مَاتَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ﴾(المزمل / ٢٠) فالفرض قراءة ماتيسر ، وتعيين الفاتحة إنما ثبت بالحديث فيكون واجبا يأثم من يتركه وتجزيء الصلاة بدونه .

وَأَتْبَعَ الحافظ ذلك قولُه : وإذا تقرر ذلك ، لا ينقضي عجبي ممن يتعمد ترك قراءة الفاتحة منهم وترك الطمأنينة ، فيصلي صلاة يريد أن يتقرب بها إلى الله تعالى وهو يتعمد ارتكاب الإثم فيها مبالغة في تحقيق مخالفته لمذهب غيره ، والذي نسبه إلى الحنفية من وجوب الفاتحة في الصلاة ، نص عليه الكاساني منهم في بدائع الصنائع وإنما حصر الوجوب في الركعتين الأوليين من ذوات الأربع والثلاث ، وفي كلتا الركعتين من ذات الركعتين وذكر أن من تركها عمدا كان مسيئا ، ومن تركها سهوا لزمه سجود السهو ، قال : وهذا عندنا — يعني الحنفية — .

وهذا التفصيل نسبه الفخر الرازي إلى أبي حنيفة نفسه وقال في الركعتين الأخيرتين ، يخير المصلي إن شاء قرأ وإن شاء سبّح وإن شاء سكت ، ونسب الفخر إلى صاحب كتاب الاستحباب أن القراءة واجبة في الركعتين من غير تعيين ، وحكى عن ابن الصبّاغ أنه نقل في كتاب الشامل عن سفيان ، وجوب القراءة في الركعتين الأوليين وكراهتها في الأخريين ، والقول بالاكتفاء بالتسبيح في الأخريين منسوب في بعض كتب أصحابنا إلى الإمام أبي معاوية عزان بن الصقر رحمه الله ، وحكى الفخر عن الأصم وابن عليّة آن القراءة غير واجبة أصلا ، وذهب الحسن البصري والحسن بن صالح بن حي إلى أن قراءتها في ركعة واحدة مجزئة ، سواء كانت الصلاة ثنائية ، أو ثلاثية أو رباعية ، ونسبه القرطبي إلى المغيرة بن عبد الرحمن المخزومي المدني ، وإلى أكثر أهل البصرة . وحاصل المقام أن في المسألة أقوالا :ـــ

أولها : قول الجمهور ، وهو اشتراط الفاتحة في كل ركعة من ركعات الصلاة ، وحكى الإسفرائيني إجماع الصحابة عليه ، وذكر أنه قال به أبو بكر وعمر وعلي وابن مسعود ، ونسبه غيره إلى ابن عباس وأبي هريرة وابن عمر وأبي بن كعب وأبي أيوب الإنصاري وعبد الله بن عمرو بن العاص وأبي سعيد الخدري وعثمان بن أبي العاص وخوات بن جبير ، وعليه جمهور أصحابنا ، وبه قال مالك والشافعي ، وهو المشهور عن أحمد ، ونسبه القرطبي إلى مشهور مذهب الأوزاعي ونسبه الشوكاني إلى العترة .

ثانيها : عدم وجوب القراءة في الصلاة أصلا ، وهو قول الأصم وابن عليّة .

ثالثها : وجوبها في ركعة من ركعات الصلاة فقط وهو قول الحسن البصري ومن تابعه ، ونُسب إلى داود وإسحاق والهادي والمؤيّد بالله .

رابعها : وجوبها في الركعتين الأوليين والإجتزاء بالتسبيح في الأخريين وهو

رأي الحنفية وبه يقول أبو معاوية عزان بن الصقر من أصحابنا ، غير أن الحنفية لا يرون بطلان الصلاة بدونها ، كما تقدم ، بناءً على تفرقتهم بين الفرض والواجب .

خامسها : الاستغناء عن الفاتحة بغيرها من القرآن نحو ثلاث آيات أو آية طويلة كآية الديْن ، وهو رأي أبي يوسف ومحمد بن الحسن ، وسوّغ محمد بن الحسن الاجتهاد في آية أو كلمة مفهومة نحو (الْحَمْدُ لِلَّهِ) دون حرف لا يكون كلاما ، وذكر ابن قدامة في المغني عن أحمد رواية أنها لا تتعين وتجزىء قراءة آية من القرآن من أي موضع كان .

سادسها : اشتراط قراءة الفاتحة أو مثلها من القرآن في عدد آياتها وحروفها نسبه القرطبي إلى الطبري .

سابعها : وجوب قراءتها في الركعتين الأوليين ، وكراهتها في الأخريين ، وهو قول سفيان حسبما نقله الفخر الرازي ، عن كتاب الشامل لابن الصبّاغ .

والصحيح من هذه الآراء القول بوجوب قراءة الفاتحة في كل ركعة ، وهو الذي تقتضيه الأحاديث التي أسلفنا ذكرها ، ويعضده إجماع الصحابة الذي حكاه أبو حامد الإسفرائيني ، أما القول بإسقاط وجوب القراءة رأسا فهو منافٍ لدلالة قوله تعالى : ﴿ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ ﴾ (المزمل / ٢٠) ومصادم لنصوص الأحاديث التي أسلفنا ذكرها .

وأما القائلون بالإجتزاء بتلاوتها في ركعة من ركعات الصلاة فيرد عليهم قول النبي ﷺ للمسيء صلاته : « ثم افعل ذلك في صلاتك كلها » ، بعد أن أمره بالقراءة . رواه الجماعة من طريق أبي هريرة رضي الله عنه ، وفي رواية لأحمد وابن حبان والبيهقي في قصة المسيء صلاته أن النبي ﷺ قال له : « ثم افعل ذلك في كل ركعة » كما يرد عليهم فعل النبي ﷺ ، فقد أخرج البخاري عن إبي قتادة أن النبي ﷺ كان يقرأ في كل ركعة بفاتحة الكتاب

.. والنبي عليه أفضل الصلاة والسلام تأتي أفعاله في العبادات ، تشريعا لأمته يستوضح بها ما انبهم ويستبان بها ما أجمل ، وقد قال : « صلوا كما رأيتموني أصلي » ، ولا متعلق لهم في نحو قوله ﷺ « لا تقبل صلاة لا يقرأ فيها بأم القرآن » اعتبارا أن الاستثناء من النفي إثبات ، فإذا حصلت قراءة الفاتحة في الصلاة مرة واحدة صحت الصلاة ، لأن سنته ﷺ القولية والفعلية بينت أن هذه القراءة المطلوبة يجب أن تكون في كل ركعة من ركعات الصلاة ، لافي ركعة واحدة فحسب ، فاتضح بذلك أن صحة الصلاة موقوفة على تلاوة الفاتحة في كل ركعة ، وبهذا يُرد على القائلين بالاجتزاء بها في الركعتين الأوليين من صلاة رباعية أو ثلاثية .

وأما القائلون بكفاية غيرها عنها ــ سواء القائلون بكفاية آية أو ثلاث آيات أو مثل الفاتحة في مثل عدد آياتها وحروفها ــ فأحاديث اشتراط الفاتحة كافية في هدم رأيهم والكشف عن ضعفه ، ولا حجة لهم في إطلاق قوله تعالى ﴿فَاقْرَءُوا مَاتَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ﴾ ، وقول النبي ﷺ للأعرابي المسيء صلاته : « ثم اقرأ بما تيسر معك من القرآن » ، لأن المجمل يحمل على المبين والمطلق يرد إلى المقيد ، على أنه ورد في حديث المسيء أيضا ، عند أحمد وأبي داود وابن حبان بلفظ : « ثم اقرأ بأم القرآن » وروى الشافعي بإسناده عن رفاعة بن رافع ، أن النبي ﷺ قال للأعرابي : « ثم اقرأ بأم القرآن وما شاء الله أن تقرأ » وفي مثل هذا دليل على تعين الفاتحة وأن ما تيسر محمول على ما زاد عليها ، مع احتمال أنه لم يكن يحسن الفاتحة ، والآية الكريمة جاءت في سياق أمر النبي ﷺ بقيام الليل ، وليست في الصلوات الخمس ، وذكر بعض العلماء احتمال أنها نزلت قبل نزول الفاتحة ، لأنها نزلت بمكة المكرمة في صدر زمن الرسالة ، فليس فيها ما يدل على معارضة الأحاديث ، أما مايتعلقون به من حديث أبي سعيد بلفظ : « لا صلاة إلا

بفاتحة الكتاب أو غيرها » فإن ابن سيد الناس يقول : لايدرى بهذا اللفظ من أين جاء وقد صح عن أبي سعيد عند أبي داود أنه قال : أمرنا أن نقرأ بفاتحة الكتاب وما تيسر .. وإسناده صحيح ورواته ثقات .

وأما تعلقهم بحديث أبي هريرة عند أبي داود بلفظ : « لا صلاة إلا بقرآن ولو بفاتحة الكتاب » فيجاب عنه بأنه من رواية جعفر بن ميمون وقد سبق أن ذكرنا عن النسائي وأحمد وابن عدي تضعيفه وهو أيضا مردود بأن أبا داود أخرج من طريقه عن أبي هريرة بلفظ : « أمرني النبي ﷺ أن أخرج فأنادي ، أنه لا صلاة إلا بقراءة فاتحة الكتاب فما زاد » وليست تلك الرواية بأولى من هذه ، بل هذه أولى بما يشهدها من الروايات الأخرى ، التي هي أقوى سندا وأصح متنا ، على أنه يحتمل أن المراد بقوله عليه أفضل الصلاة والسلام ــ لو صحت الرواية ــ « لا صلاة إلا بقرآن ولو بفاتحة الكتاب » الاجتزاء بقراءة الفاتحة وحدها ، في بعض الصلوَات كصلاة السر ، كما هو المذهب عندنا .

وبالجملة فإن كل ما يتعلق به المخالف في هذه المسألة ، إما رواية واهية أو ذات احتمال ، والدليل إذا طرقه الإحتمال سقط به الاستدلال ، أما أدلتنا على وجوب الفاتحة في كل ركعة فهى أقوى من أن تُغمز ، وأظهر من أن تؤوّل ، وإن حاول جماعة قلب الاستدلال بها لصالح رأيهم ، ومن ذلك دعواهم أن قول الرسول ﷺ : « من صلى صلاة لم يقرأ فيها بأم القرآن فهي خداج » يدل على صحة الصلاة بدونها ، لأن غاية مافي الحديث أن الصلاة دونها ناقصة ، وهو لا يدل على بطلانها ، ويُجاب عن ذلك بأن الصلاة المطلوبة شرعاً هي الصلاة المستكملة لشروطها وأركانها ، فإذا اختل شيء منها انهدم جميعها ، والخداج هو في الأصل ، اسم لإلقاء الناقة ولدها لغير تمام الحمل ، كما قال اللغويون ، وهو سبب من أسباب هلاك الحمل ، على أن الروايات

الأخرى التي جاءت تارة بلفظ « لا صلاة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب » ، وأخرى بلفظ « لا تجزيء صلاة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب » صريحة في بيان المقصود بالخداج .

وحاولوا كذلك قلب الدلالة ــ من قوله ﷺ « لا صلاة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب » زاعمين بأن المراد نفي الكمال لا نفي الذات ، لأن الذات قائمة غير منتفية ، ونفي الكمال يدل بمفهومه على وجود الحقيقة ، وأجاب عن ذلك الحافظ ابن حجر في الفتح بما حاصله : إما أن يدعى هؤلاء أن المراد بالصلاة حقيقتها اللغوية ، وإما أن يسلّموا أن المراد بها معناها الشرعي ، والأول غير مُسَلّم لأن ألفاظ الشرع محمولة على مصطلحاته ، إذ هي المستوجبة للبيان ولم يُبعث الشارع لبيان الموضوعات اللغوية ولكنه بُعث لبيان الحقائق الشرعية ، وإذا ثبت أن الصلاة المنفية هنا هى الصلاة الشرعية اتضح نفي حقيقتها ، من غير احتياج إلى إضمار الإجزاء ولا الكمال ، لأنه يؤدى إلى الإجمال ، كما نُقل عن القاضى أبي بكر وغيره حتى مال إلى التوقف لأن نفي الكمال يُشعر بحصول الإجزاء ، فلو قدر الإجزاء منتفيا لأجل العموم قدر ثابتا لأجل إشعار نفي الكمال بثبوته ، فيؤدي إلى التناقض ولا سبيل إلى إضمارهما معا ، لأن الاضمار إنما احتيج إليه للضرورة وهي تندفع باضمار فرد فلا حاجة إلى أكثر منه ودعوى إضمار أحدهما ليست بأولى من الآخر ، قاله ابن دقيق العيد ، وتعقبه الحافظ ابن حجر بأن في هذا الأخير نظرا ، لأنا إن سلمنا تعذر الحمل على الحقيقة ، فالحمل على أقرب المجازين إليها أولىٰ من الحمل على أبعدهما ، ونفى الاجزاء أقرب إلى نفي الحقيقة وهو السابق إلى الفهم ، ولأنه يستلزم نفي الكمال من غير عكس ، فيكون أولى ، وأيد الحافظ ذلك برواية « لا تجـزيء » التي ذكرناها ، وبرواية « لا تقبل صلاة لا يقرأ فيها بأم القرآن » وإذا علمت وجوب قراءتها في كل

ركعة من الصلاة ، فاعلم أن تركها عمداً أو نسياناً ، أو ترك شيء منها ، مفض إلى بطلان الصلاة على الصحيح ، وهو قول أصحابنا في العمد ، ونسيان أكثرها ، وقول أكثرهم في نسيان الأقل منها ، ووافقنا عليه الشافعي في الجديد ، وعليه ابن حزم الظاهرى في المحلّى ، وذهب الشافعي في قديمه إلى أن نسيانها لا يفسد الصلاة ، واحتج بما روى عن أبي سلمة بن عبد الرحمن قال : صلى بنا عمر بن الخطاب رضى الله عنه المغرب ، فترك القراءة ، فلما انقضت الصلاة قيل له ، تركت القراءة ، قال : كيف كان الركوع والسجود ، قالوا : حسنا ، قال : فلا بأس ، واعتبر الشافعي حدوث هذه الواقعة بمحضر الصحابة من غير نكير منهم في حكم الإجماع ، ثم رجع عنه في الجديد ، كما ذكرنا ، أخذا بالأدلة العامة التي تشمل العمد والسهو ، وأجاب عن قصة عمر بجوابين :

أولهما : أن الشعبي روى أن عمر رضي الله عنه أعاد الصلاة . وهي زيادة من الثقة حكمها القبول ، والمثبت مقدم على النافي عند التعارض .

ثانيهما : احتمال أن يكون عمر رضى الله عنه لم يترك نفس القراءة وإنما ترك الجهر بها ، قال الشافعي : هذا هو الظن بعمر .

وضعّف القرطبي ما رُوى عن عمر أنه اعتد بالصلاة التي لم يقرأ فيها بعدم إعادته لها ، وقال عنه : منكر اللفظ ، منقطع الإسناد ، لأنه يرويه ابراهيم بن حارث التيمي عن عمر ، ومرة يرويه ابراهيم عن أبي سلمة بن عبد الرحمن عن عمر ، وكلاهما منقطع لا حجة فيه ، وقد ذكره مالك في الموطأ ، وهو عند بعض الرواة وليس عند يحيى وطائفة معه ، لأنه رماه مالك من كتابه بأخره ، وقال ليس عليه العمل لأن النبي ﷺ قال : « كل صلاة لا يقرأ فيها بأم القرآن فهى خداج » ، ثم ذكر القرطبي ما رُوى عن عمر ، أنه أعاد تلك الصلاة ، وقال : وهو الصحيح عنه ، روى يحيى بن يحيى

البنيسابورى قال : حدثنا أبومعاوية عن الأعمش ، عن ابراهيم النخعي عن همام بن الحارث ، أن عمر نسي القراءة في المغرب ، فأعاد بهم الصلاة ، قال ابن عبد البرّ : وهذا حديث متصل شهده همام من عمر ، رُوى ذلك من وجوه ، وروى أشهب عن مالك قال : سُئل مالك عن الذى نسى القراءة ، أيعجبك ما قال عمر ، قال : أنا أنكر أن يكون عمر فعله ــ وأنكر الحديث ــ وقال : يرى الناس عمر يصنع هذا في المغرب ولا يسبحون به ، أرى أن يعيد الصلاة من فعل هذا .

والمفهوم من كلام المالكية أن مالكا يرى رأينا في من يتركها عمدا وهو خلاف ما ذكره عنه ابن حزم وغيره ، والاعتماد على ما يرويه عنه أصحابه أولىٰ ، أما في حالة النسيان ، فذكر ابن خويزمنداد البصرى المالكي ، عدم اختلاف قول مالك ، في بطلان صلاة من تركها في ركعة من صلاة ركعتين ولزوم الإعادة عليه ، واختلف قوله في من تركها ناسيا في ركعة من صلاة رباعية أو ثلاثية ، فقال مرة يعيد الصلاة ، وقال مرة أخرى يسجد سجدتي السهو ، وهى رواية ابن عبد الحكم وغيره عن مالك ، قال ابن خويزمنداد : وقد قيل إنه يعيد تلك الركعة ، ويسجد للسهو بعد السلام ، قال ابن عبد البر : الصحيح من القول إلغاء تلك الركعة ، والاتيان بركعة بدلا منها كمن أسقط سجدةً سهوا ، وهو اختيار ابن القاسم .

المبحث الثـاني
في تلاوة الفاتحة للإمام والمأموم والمنفرد

فاتحة الكتاب جامعة لما لم يجمعه غيرها من مجملات معاني القرآن ، وهذا سر مشروعية قراءتها في الصلاة كما أسلفنا ، ومن هنا أطلق عليها اسم الصلاة . أخرج الإمام الربيع عن أبي عبيدة عن جابر بن زيد عن أبي هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « يقول الله عزّ وجل قُسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين ، نصفها لي ونصفها لعبدي ، ولعبدي ما سأل » وقال رسول لله ﷺ : « إذا قال العبد الحمد لله فيقول الله حمدني عبدي ، فإذا قال العبد : الرحمن الرحيم فيقول الله أثنى عليّ عبدي ، وإذا قـــال العبد : (مالك يوم الدين)فيقول الله : مجدني عبدي ، فيقول : العبد إياك نعبد وإياك نستعين ، فيقول الله : هذه بيني وبين عبدي ولعبدي ما سأل ، فيقول العبد : اهدنا الصراط المستقيم ، صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين ، فيقول الله : هذه لعبدي ولعبدي ماسأل) .

وأخرج الحديث الجماعة إلا البخاري وإبن ماجه بلفظ قال : رسول الله ﷺ : (من صلى صلاة لم يقرأ فيها بفاتحة الكتاب فهي خداج) ، فقيل لأبي هريرة إنا نكون وراء الإمام فقال : إقرأ بها في نفسك فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول : (قال الله عزوجل قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين ولعبدي ما سأل ، فإذا قال العبد : الحمد لله رب العالمين ، قال الله : حمدني عبدي...إلخ) .

والحديث الأول هنا حديث مستقل ، أخرجه الإمام الربيع رحمه الله ، من طريق أنس رضي الله عنه كما سبق ، وإطلاق إسم الصلاة على الفاتحة يدل

على أهميتها في الصلاة ، وضرورة قراءتها ، لتوقف صحة الصلاة عليها ، فهي بمثابة العمود الفقري فيها ، وفي هذا ما يكفي حجة لإيجابها على كل مصل ، إماما كان أو مأموما أو منفردا ، فإن الفاتحة في الصلاة لا تقل أهمية عن الركوع والسجود ، بل الحديث يدل على سبق أهميتها ، وإذا كان الركوع والسجود لايحملهما إمام عن المأموم ، فأجدر أن يكون هذا الحكم على الفاتحة ، ووجوب قراءتها على المأموم كالإمام والمنفرد مروي عن جماعة الصحابة رضي الله عنهم ، منهم عمر بن الخطاب ، فقد روى الدار قطني عن يزيد بن شريك قال : سألت عمر عن القراءة خلف الإمام فأمرني أن أقرأ ، قلت : وإن كنت أنت ، قال : وإن كنت أنا ، قلت : وإن جهرت ، قال : وإن جهرت .

قال الدارقطني هذا إسناد صحيح ، وأخرجه ابن حزم مسندا في المحلّى عن يزيد بن شريك وعباية بن رداد وخيثمة بن عبد الرحمن عن عمر رضي الله عنه وذكر الترمذي في جامعه أن أكثر أهل العلم من أصحاب النبي ﷺ والتابعين يقولون بذلك ، وعزاه إلى مالك بن أنس وابن المبارك والشافعي وأحمد واسحق ، وصحح هذا الرأي القرطبي من المالكية في تفسيره ، وعليه جمهور أصحابنا ، ونُسب إلى الناصر من أهل البيت ورجّحه الشوكاني .

وقيل : بعدم القراءة مطلقا خلف الإمام سواءً أسرَّ أو جهر ، وهو قول : أبي حنيفة وأصحابه ، وبه قال : ابن وهب وأشهب وابن الحكم وابن حبيب من أصحاب مالك ، وقال : بعض سلف مشارقتنا ، حتى قال بعضهم : جمرة في عينه أحب إليه من أن يقرأ الفاتحة خلف الإمام ، وعزي هذا القول إلى الإمام ابن محبوب رحمه الله ، وعزا إليه القطب رحمه الله في الشامل وشرح النيل رجوعه عنه .

وقيل : بالتفرقة بين الجهرية والسرية ، فينصت لها المأموم من إمامه في الجهر ويقرؤها في السر ، وهو مشهور مذهب مالك ، ونسبه الشوكاني إلى زيد بن علي والهادي والقاسم وأحمد بن عيسى وعبيد الله بن الحسن العنبري واسحاق بن راهويه وأحمد ، وذكر ابن قدامة في المغني أنه رواية الجماعة عن أحمد ، وعزاه أيضا إلى الزهري والثوري وابن عيينه وإلى إسحاق ، واعتمده من قبله سلفه الخرقي في مختصره .

وذكر ابن حزم الظاهري اختلاف أصحابه الظاهرية في ذلك ، فمنهم من رأى وجوب القراءة مطلقا خلف الإمام ، كما هو القول الأول ورجحه هو وعُزِي إلى سلفه داود ، ومنهم من فرق بين قراءتي السر والجهر كما هو القول الثالث ، ويؤيد القول الأول ، ما أخرجه الربيع عن عبادة بن الصامت رضي الله ، عنه قال : صلى بنا رسول الله ﷺ صلاة الغداة فثقلت عليه القراءة ، فلما انصرف قال : (لعلكم تقرأون خلف إمامكم) قلنا أجل ، قال : (لاتفعلوا إلا بأم القرآن فإنه لاصلاة إلا بها) والحديث أخرجه عن عبادة أيضا أحمد والبخاري في جزء القراءة ، وصححه ابوداود والنسائي والدارقطني وابن حبان والحاكم والبيهقي ، من طريق ابن اسحاق قال : حدثني مكحول عن محمود بن ربيعه ، عن عبادة ، وتابعه زيد بن واقد وغيره عن مكحول ، وأخرجه أبو داود عن نافع بن محمود بن الربيع الأنصاري قال : أبطأ عبادة بن الصامت عن صلاة الصبح ، فأقام أبونعيم المؤذن الصلاة فصلى أبونعيم بالناس ، وأقبل عبادة ابن الصامت وأنا معه حتى صففنا خلف أبي نعيم ، وأبونعيم يجهر بالقراءة ، فجعل عبادة يقرأ بأم القرآن فلما انصرف قلت : لعبادة سمعتك تقرأ بأم القرآن وأبو نعيم يجهر ، قال : أجل «صلى بنا رسول الله ﷺ بعض الصلوات التي يجهر فيها بالقراءة فالتبست عليه ، فلما انصرف أقبل علينا بوجهه فقال : هل تقرأون إذا جهرت بالقراءة فقال :

بعضنا : إنا نصنع ذلك ، قال : (فلا وأنا أقول مالي ينازعني القرآن فلا تقرأوا بشيء من القرآن إذا جهرت إلا بأم القرآن) وأخرجه أبو عيسى الترمذي من حديث محمد بن اسحاق بمعناه وحسنه ، وقال الدارقطني : هذا إسناد حسن ورجاله كلهم ثقات ، وجاء في كثير من روايات الحديث (لاتفعلوا إلا بأم القرآن فإنه لا صلاة لمن لم يقرأ بها) ، وذكر الشوكاني من شواهده ، مارواه أحمد من طريق خالد الحذّاء ، عن ابي قلابة بن أبي عائشة ، عن رجل من أصحاب النبي ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : (لعلكم تقرأون والإمام يقرأ) ، قالوا : إنا لنفعل ، قال : (لا إلا أن يقرأ أحدكم بفاتحة الكتاب) ،قال الحافظ : إسناده حسن ، ورواه ابن حبان من طريق أيوب عن أبي قلابة عن أنس ، وزعم أن الطريقتين محفوظتان ، وخالفه البيهقي فقال : إن طريق أبي قلابة عن أنس ليست محفوظة ، وفي لفظ للدارقطني عن عبادة أن النبي ﷺ قال : (لايقرأن أحد منكم شيئا من القرآن إذا جهرت بالقراءة إلا بأم القرآن) قال الدارقطني : رجاله كلهم ثقات .

فهذه الأحاديث ناصة على أن للفاتحة حكما خاصا في الصلاة ، فلا يكتفي فيها بسماعها من الإمام بخلاف غيرها ، وهذا لتوغلها في الوجوب ، لأنها ركن من أركان الصلاة ، ولذلك أطلق عليها اسم الصلاة بالنص الصريح عن رسول الله ﷺ فيما يحكيه رب العالمين ، لأنها بمثابة القلب منها .

واحتج القائلون بعدم القرأة خلف الإمام مطلقا أو فيما يُجْهر به بعموم قوله تعالى ﴿وَإِذَا قُرِىءَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا﴾(الأعراف/٢٠٤) وبعموم روايات ، منها ما أخرجه الربيع عن أبي عبيدة عن جابر بن زيد عن أبي هريرة قال : انصرف رسول الله ﷺ من صلاة جهر فيها بالقرأ ، فقال : (هل قرأ معي أحد منكم آنفا ؟) قالوا : بلى يارسول الله ، فقال رسول الله ﷺ : (لافيما جهر به من الصلاة)، ورواه مالك في الموطأ والشافعي وأحمد

وأبو داود والنسائي والترمذي وحسّنه ، وابن ماجة وابن حيان بلفظ : (فإني أقول مالي أُنازع القرآن) وزيادة فانتهى الناس عن القراءة مع رسول الله ﷺ فيما يجهر فيه رسول الله ﷺ من الصلوات بالقرأة حين سمعوا ذلك من رسول الله ﷺ) وهذه الزيادة مدرجة في الخبر كما نقله الشوكاني عن الخطيب ، وذكر أنه اتفق على ذلك البخاري في التاريخ وأبو داود ويعقـوب بن سفيان والذهلي والخطابي وغيرهم .

قال النووي : وهذا مما لاخلاف فيه بينهم ، ومنها حديث أبي هريرة عند الخمسة إلا الترمذي ، أن النبي ﷺ قال : (إنما جُعل الإمام لِيؤتم به ، فإذا كبر فكبروا ، وإذا قرأ فأنصتوا) ونُسب إلى مسلم تصحيحه ، ولكن أبا داود قال في زيادة قوله (وإذا قرأ فأنصتوا) ، ليست بمحفوظة ، ونسب الوهم فيها إلى أبي خالد ، ورد عليه المنذري بأن أبا خالد هذا هو سليمان ابن حيان الأحمر وهو من الثقات الذين احتج بهم البخاري ومسلم في صحيحهما ، وأجاب عنه الإمام نور الدين السالمي رحمه الله ، بأن ذلك لا ينافي وقوع الوهم منه ، لأن أبا داود لم يدّع كذبه ، وإنما ادّعى وهمه ، وهو غير الكذب بل هو في معنى الغلط ، غير أن المنذري عزز ثبوت هذه الزيادة ، ونفي الوهم عن راويها أبي خالد ، بعدم تفرده بها ، فقد تابعه عليها أبو سعيد محمد بن سعد الأنصاري الأشهلي المدني نزيل بغداد ، وقد سمع من عجلان وهو ثقة وثَّقَهُ يحيى بن معين ومحمد بن عبدالله المخرمي وأبو عبد الرحمن النسائي وقد أخرج النسائي هذه الزيادة في سننه من حديث أبي خالد الأحمر ومحمد بن سعد ، ونسب المنذري إلى مسلم إخراج هذه الزيادة في حديث أبي موسى الأشعري من رواية جرير ابن عبد الحميد ، عن سليمان التَّيمي عن قتاده وأقـر الشوكاني نسبتها إلى رواية مسلم في صحيحه عن أبي موسى الأشعري ، ورأيت جماعة من العلماء عزوا إخراجها إلى مسلم من حديث

أبي موسى ، منهم القرطبي في تفسيره ، والحافظ ابن حجر في فتح الباريء ، وعزا إليه ابن قدامة في المغنى إخراج حديث أبي هريرة الذي تقدم ذكره ، وقد راجعت أبواب القراءة في الصلاة وأبواب صلاة الجماعة من صحيح مسلم بابا بابا ، وتأملت ما فيها حديثا حديثا ، فلم أجد ما عزوه اليه من رواية أبي موسى ، ولا من رواية أبي هريرة ، ولا من رواية غيرهما ، وإنما رأيت في باب ائتمام المأموم بالإمام أربعة أحاديث أخرجها مسلم من رواية أنس وعائشة ، وجابر بن عبد الله ، وأبي هريرة رضي الله عنهم أما حديث أنس فلفظه « إنما جعل الإمام ليؤتم به فإذا كبّر فكبِّروا ، فإذا سجد فاسجدوا ، وإذا رفع فارفعوا وإذا قال : سمع الله لمن الحمده فقولوا ربنا ولك الحمد ، وإذا صلى قعودا فصلوا قعودا أجمعون » وفي بعض طرقه عنه زيادة « فإذا صلى قائما فصلوا قياما » ولفظ حديث عائشة « إنما جعل الإمام ليؤتم به ، فإذا ركع فاركعوا ، وإذا رفع فارفعوا ، وإذا صلى جالسا فصلوا جلوسا » ولفظ حديث جابر « إئتموا بأئمتكم إن صلى قائما فصلوا قياما وإن صلى قاعدا فصلوا قعودا » ولفظ حديث أبي هريرة « إنما الإمام ليؤتم به فلا تختلفوا عليه ، فإذا كبر فكبروا وإذا ركع فاركعوا ، وإذا قال سمع الله لمن حمده فقولوا اللهم ربنا لك الحمد وإذا سجد فاسجدوا وإذا صلى جالسا فصلوا جلوسا أجمعون » وفي بعض الطرق في نفس صحيح مسلم زيادة بعض ألفاظ في رواية أبي هريرة منها « إذا صلى قائما فصلوا قياما » وليس في شيء منها « وإذا قرأ فأنصتوا » ولم تأت رواية في هذا الباب عن أبي موسى الأشعري ، ولست أدرى أين تقع هذه الرواية التي نسبوها إليه ،مع العلم أن هؤلاء الذين عزوا إخراج مسلم لهذا الحديث عن أبي موسى وتصحيحه حديث أبي هريرة معدودون في مقدمة أئمة الحديث رواية ودراية*، هذا وقد أعلّ الدارقطني

---

*هذه الزيادة موجودة في صحيح مسلم في باب التشهد في الصلاة أرشدني إليها أحد الإخوان فوجدتها ، ونص ما في الصحيح:=

زيادة « وإذا قرأ فأنصتوا » الواردة في رواية سليمان التيمي عن قتادة بأن الحفاظ من أصحاب قتادة لم يذكروها منهم شعبة وهشام وسعيد بن أبي عروبة وهمام وأبو عوانة ومعمر وعدي بن أبي عمارة ، قال الدارقطنى : فإجماعهم يدل على وهمه ، وقد روي عن عبد الله بن عامر عن قتادة متابعة التيمي ، ولكن ليس هو بالقوي تركه القطان ، لكن روى بعضهم تصحيحها عن أحمد بن حنبل وابن المنذر .

ومنها حديث « من كان له إمام فقراءة الإمام له قراءه » وهو حديث مرسل من طريق عبد الله بن شداد عن النبي ﷺ وإنما أسنده عن موسى بن أبي عائشة عن عبد الله بن شداد عن جابر بن عبد الله عن النبي ﷺ الحسن بن عماره : وأبو حنيفه وقد ضعفهما الدارقطنى الراوى للحديث قال : وروي هذا الحديث سفيان الثوري ، وشعبة وإسرائيل بن يونس وشريك وأبو خالد الدالاني وأبو الأحوص وسفيان بن عيينه وحريث ابن عبد الحميد وغيرهم عن موسى بن أبي عائشة عن عبد الله بن شداد مرسلا عن النبي ﷺ وهو الصواب . وذكر الحافظ وغيره أنه مشهور من كلام

= « وفي حديث جرير عن سليمان عن قتادة من الزيادة : (وإذا قرأ فأنصتوا) » وليس في حديث أحد منهم ، فالله قال على لسان نبيه ﷺ : (سمع الله لمن حمده) ، إلا في رواية أبي كامل وحده عن أبي عوانة ، قال أبو اسحاق : قال أبو بكر ابن أخت أبي النضر في هذا الحديث .. فقال مسلم تريد أحفظ من سليمان ؟ فقال له أبو بكر فحديث أبي هريرة ؟ فقال هو صحيح ، يعني (وإذا قرأ فأنصتوا) فقال : هو عندي صحيح ، فقال : لِمَ لم تضعه هاهنا ؟ فقال ليس كل شيء عندي صحيح وضعته هاهنا ، إنما وضعت هاهنا ما أجمعوا عليه .

قال النووي في شرحه : واعلم أن هذه الزيادة وهي قوله (وإذا قرأ فأنصتوا) مما اختلف الحفاظ في صحته ، فروى البيهقي في السنن الكبير عن أبي داود السجستاني أن هذه اللفظة ليست بمحفوظة ، وكذلك رواه عن يحيى بن معين ، وأبي حاتم الرازي والدارقطني ، والحافظ أبي علي النيسابوري شيخ الحاكم أبي عبدالله ، قال البيهقي : قال أبو علي الحافظ : هذه اللفظة غير محفوظة ، قد خالف سليمان التيمي فيها جميع أصحاب قتادة واجتماع هؤلاء الحفاظ على تضعيفها مقدم على تصحيح مسلم ، لاسيما ولم يرزوها مسندة في صحيحه والله أعلم .

جابر بن عبدالله موقوفا عليه ، وقـد رواه مالك عن وهب بن كيسان عن جابر ، قال ابن عبد البر : « ورواه يحيى بن سلام ، صاحب التفسير عن مالك عن أبي نعيم وهب بن كيسان عن جابر عن النبي ﷺ ، وصوابه موقوف على جابر كمـا في المـوطأ » .

وليس في شيء مما احتجُّوا به ما يدل على صحة ما ذهبوا إليه ، أما الآية الكريمة فإنها ليست نصا في الموضوع ، إذ يحتمل أن تكون القراءة المقصودة فيها خارج الصلاة وهي مكية ، وتحريم الكلام في الصلاة كان في المدينة ، كما قال زيد بن الأرقم : وليس ببعيد أن يكون المقصود بها المشركين الذين يرفعون أصواتهم عند تلاوة القرآن حذر أن يصل إلى نفوسهم إن أنصتوا إليه فيستولى عليها ، وقد رُوي مثل ذلك عن سعيد بن المسيب ويشهد له قول الله تعالى : ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَاتَسْمَعُوا لِهَٰذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾(فصلت/٢٦)ولو سُلِّم أنها نزلت في قراءة الصلاة ، فهي مخصصة بالأحاديث الناصة على وجوب قراءة الفاتحة على المأموم ، والخصوص إن ثبت قُدِّم على العموم ولو كان قرآنًا ، لأن العام ظني الدلالة ــ وإن كان قطعي المتن ــ بخلاف الخصوص ، وأما الأحاديث فهي أيضا عمومات محمولة على ما فوق الفاتحة ، لوجوب تقديم الخاص على العام ، ولاتقوى هذه العمومات على معارضة الخصوصات الصريحة الواضحة ، وقد علمت مافي بعض تلك الأحاديث من مطاعن لأئمة الحديث في أسانيدها ، فكيف تقوى على معارضة الروايات الصحيحة الصريحة في إيجاب تلاوة الفاتحة على كل مصلٍّ ؟ .

هذا وإذا ثبت الأمر بقراءة الفاتحة خلف الإمام فإن ذلك لايتقيد بحال سكوته إذ ليس في تلك الأحاديث ما يدل عليه ، وقد اختلفت الشافعية في قراءة الفاتحة ، هل تكون عند سكتات الإمام وعند قراءته ، قال

الشوكاني : وظاهر الأحاديث أنها تقرأ عند قراءة الإمام ، وفعلها حال سكوت الإمام إن أمكن أحوط ، لأنه يجوز عند أهل القول الأول فيكون فاعل ذلك آخذاً بالإجماع ــ قال ــ وأما اعتياد قراءتها حال قراءة الإمام للفاتحة فقط ، أو حال قراءته للسورة فقط ، فليس عليه دليل بل الكل جائز وسنة ، نعم حال قراءة الإمام للفاتحة مناسب ، من جهة عدم الاحتياج إلى تأخير الإستعاذة عن محلها ، أو تكريرها عند إرادة قراءة الفاتحة إن فعلها في محلها أول وآخر الفاتحة إلى حال قراءة الإمام للسورة . إنتهى كلامه بتصرف .

ثم ذكر الشوكاني عن بعض الشافعية أنه بالغ ، فصرح بأنه إذا اتفقت قراءة الإمام والمأموم في آية خاصة من آي الفاتحة بطلت صلاته ، وذكر عن صاحب البيان من الشافعية ، أنه رواه عن بعض أهل الوجوه منهم ، قال : وهو من الفساد بمكان يغني عن رده ، وللحافظ ابن حجر بحث قيم في هذه المسألة في الفتح ، فبعد أن ذكر حديث (وإذا قرأ فأنصتوا) أتى باحتمالين في المقصود به :ــ

أولهما : أن الإنصات المطلوب فيما عدا الفاتحة .

ثانيهما : أن ينصت إذا قرأ الإمام ويقرأ إذا سكت ، قال : وعلى هذا فيتعين على الإمام السكوت في الجهرية ليقرأ المأموم ، لئلا يوقعه في ارتكاب النهي ، حيث لاينصت إذا قرأ الإمام ، ثم قال : وقد ثبت الإذن بقراءة المأموم الفاتحة في الجهرية بغير قيد ، وذلك فيما أخرجه البخاري في جزء القراءة والترمذي وابن حبّان وغيرهما ، من رواية مكحول عن محمود بن الربيع عن عبادة أن النبي ﷺ ثقلت عليه القراءة في الفجر .. وأورد حديث عبادة الذي ذكرناه ، ثم قال : وله شاهد من حديث أبي قتادة عند أبي داود والنسائي ومن حديث أنس عند ابن حبّان .

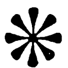
ويمكنك بهذا استظهار رجحان القول بقراءة الفاتحة ، ولو في حال قراءة الإمام ، وهو الذي عليه العمل عندنا ، وذكر صاحب الإيضاح وغيره عن بعض أصحابنا اختيار ماعليه بعض الشافعية من قراءتها في سكتات الإمام .

وتلاوة الفاتحة في الصلاة أو في غيرها يجب أن تكون بحسب ألفاظها المنزلة ، فلا تَصِح ترجمتها إلى أي لغة أخرى ، كالفارسية مثلا ، لأن ذلك يسلبها قرآنيتها ، وذهب أبو حنيفة إلى جواز قراءتها في الصلاة وغيرها باللغة الفارسية ، وهو رأي غير سديد ، وقد أطال العلماء في الرد عليه ، وقد كنت أرغب في بحث هذا الموضوع هنا ، ولكني رجحت تأخيره إلى موضعه وهو ترجمة القرآن إلى اللغات الأخرى ، وأرجو أن أوفق لذلك عندما أصل في التفسير إن شاء الله إلى الآيات التي تنص علي عربية القرآن ، وقول أبي حنيفة مهجور عملا إذ لم يعمل به أي أحد حتى من أصحابه الذين يرون رأيه ، وبهذا كان الإجماع العَملي من الأمة مخالفا لرأيه ، وهذا مايسر الله إملاءه في هذا الجزء المشتمل على مقدمات مهمة في التفسير والإعجاز ، بجانب تفسير الفاتحة ، أسأل الله أن يتقبله مني ، وأن يجزي الخير كل من أعانني عليه ، وأن يوفقني لمواصلة العمل الذي بدأته إلى نهايته ، إنه سبحانه ولي التوفيق ، وصلى الله وسلم على سيدنا محمد ، وعلى آله وصحبه أجمعين .

الفهـــرس

الموضـــــوع	الصفحة

الموضـــــوع	الصفحة



طبع بمطبعة الألوان الحديثة ت : ٦٠٢٢٧٦

تصويبات

« جواهر التفسير »

سطر	صفحة	خطأ	صواب
٣	١	وحعله	وَجعله
٧	١	من أفضاله	من إفضاله
١٠	١	صلى الله عليه	صلى الله وسلم عليه
١٦	١	تكوبن	تكوين
٢٣	٢	النعماء	النعمه
١٥	٤	إن	فان
٢٣	٤	فى	لا
٧	٥	الأنبارى	ابن الإنبارى
٣	٩	ويأزر	ويأرز
٦	١١	صراطى	صِرَاطي
٥	١٢	او ختلسها الجِد	أو اختلسها الجَد
١١	١٢	على المستمعين	المستمعين
١٨	١٢	تختلف	يختلف
١٨	١٥	ومعرفة الناسخ والمنسوخ وغير ذلك في مدلول كلمة أصول ...	ومعرفة الناسخ والمنسوخ ،لذلك أرى الأقرب منهما إلى مفهوم التفسير قول بعضهم: هو علم بأصول تعرف به معانى كلام الله تعالىٰ من الأوامر والنواهى لدخول مايحتاج إليه المفسر من معرفة أسباب النزول والناسخ والمنسوخ ، وغير ذلك في مدلول كلمة أصول ...
٦	١٦	ولعل ابن الجوزى بيّن التفسير والتأويل التي سنوردها ..	ولعل تفرقة ابن الجوزي بَيْنَ التفسير والتأويل التي سنوردها ...
٤	٢٤	من المراد	في المراد
١٠	٢٤	تارة لذلك	تارة لهذا وتارة لذلك
١٠	٢٤	نظراً	نظرٌ
١٦	٢٤	للغة	باللغة
٦	٢٦	تفسيرا	تفسيرٌ
١٢	٢٦	فلا غرو أن	فلا غرو إن
٤	٢٧	لا يُلزم	لا يَلزم
٣	٢٨	فخطوهم	فخطؤهم
١٧	٢٨	لماذا	لما إذا
٢١	٣١	مما نسبا	مما نسباه
١	٣٣	وبالمحك	بالمحك
٦	٣٥	محك	محكم
٩	٣٥	عن أبي عبيدة بن	عن أبي عبيدة
١١	٣٥	بن	ابن
٢٢	٣٩	عن العواطف	وراء العواطف
١١	٤١	الحياه	الحياة
١٣	٤١	وإن كان يصلح في بعض الأحيان طريقا	وإن كان يصلح في بعض الأحيان أن يكون طريقا
١٥	٤١	ولأقام الله حجته	ولأقام الله به حجته

تصويبات

« جواهر التفسير »

سطر	صفحة	خطأ	صواب
١٠	٤٨	وكأن هذه المعجزات	ومع أن هذه المعجزات
٦	٤٩	فلا غرو أن كان	فلا غرو إن كان
١٨	٤٩	النساقي	النسائي
٩	٥٢	حتى إنه ليخيل	حتى أنه ليخيل
٢٢	٥٢	يربثون	يربأون
١١	٥٤	بأثره	يأثره
١٨	٥٥	بمعجزات النبيين	بمعجزات كمعجزات النبيين
٤	٥٦	بالصدفة	بالصرفة
٢٠	٥٦	لكنه أراد	لكنه إن أراد
١٦	٥٧	ماقرءوه	ماقرأوه
٥	٥٩	إلى أوجها	إلى أوجها الشاغ
١٤	٥٩	على مساجلات البيان	مساجلات البيان
١٨	٦٢	فى خضم	إزاء خضم
٢٢	٦٢	عن السر	عن هذا السر الإعجازي
١٤	٦٣	وفى هنا	وهنا
١٩	٦٤	وأرصف	وأرصن
١٩	٦٥	أم فى الوعظ	أو فى الوعظ
٣	٦٨	بما جعل من	بما جعل له من
١٠	٦٨	مالبسه	ما ألبسه
١١	٦٩	أم معانيه	أو معانيه
١٣	٧٢	الندرة	والندرة
٢	٧٩	إلى دراسة	المتجهين إلى دراسة
٨	٨١	نزر له	نزوله
١٧	٨٢	الذكوره	الذكورة
١٥	٨٣	المليلمتر	المليمتر
١٠	٨٦	على حق	رعاية حق
١٣	٨٨	جديـ	جديد
٨	٩١	لم يبالي بمصيره الذى	لم يبالِ بمصيره الذي
		يرىٰ فيه	يرمىٰ فيه
١١	٩٣	للعبث	للعيث
٢١	٩٣	وانقراض	وانقراضه
٣	٩٦	ادرعوا	ادرأوا
٦	١٠٥	لتصبح غير هدامه	لتصبح بناءة غير هدامة
٢٢	١٠٧	فيندفعون	بل يندفعون
١٨	١٠٩	كأنه يلمز	كأنما يلمز
١٧	١١٠	لأن المشرك	لأن لمز المشرك
٢٠	١١٢	الدقائق	هذه الدقائق
١٤	١٢١	في بعض	في بضع
١٥	١٢٢	يستحكم	يكاد يستحكم
٢٣	١٢٢	بنا تفيض	بما تفيض
١٤	١٢٤	كالسيل الآتى	كالسيل الأتيّ
١٩	١٢٧	سوار كسرى	سواري كسرىٰ
١٠	١٣١	حتى إن كبار	حتى أن كبار
٨	١٣٣	طمأننينة	طمأنينة
٤	١٣٦	أم الفلك	أو الفلك
١٨	١٣٧	ومن قبل هذه	من قبل هذه
٢٠	١٣٧	ظاهر	ظاهراً

تصويبات

« جواهر التفسير »

سطر	صفحة	خطأ	صواب
٢٠	١٣٩	نسخ الذهن	سنح للذهن
١٥	١٤٢	المضاب	الشعاب
٩	١٤٣	الكهربيه	الكهربائية
٦	١٤٤	إلا بالجهر	حتى بالجهر
١٠	١٤٥	رصاص بندقية	رصاص البندقية
١٣	١٤٦	ككواكب	كواكب
٤	١٥٢	وقيل من السور	وقيل من السؤر
١٠	١٥٢	سوره	سورة
١٢	١٥٢	مأخوذة من السور	مأخوذة من السؤر
١٣	١٥٢	لأن السور	لأن السؤر
١٨	١٥٦	وكثيرا ما يصفهم	وكثيرا ما يصممهم
٢٢	١٥٩	بقوا بعد الحجج	بقواطع الحجج
١٤	١٦٠	وعبد بن	وعبد ابن
٢٣	١٦٨	عن أبى سعيد بن العلا	عن أبي سعيد بن المعلى
١٠	١٦٩	مالك بن	مالك ابن
١٤	١٦٩	نفيع بن	نفيع ابن
٢٢	١٦٩	عبد الله بن	عبد الله ابن
٢٠	١٧٠	أن المراد	إن المراد
٨	١٧٤	إنها	أنها
٢	١٧٦	تحمل	تحتمل
١٤	١٧٦	من القرآن للتواتر	من القرآن المتواتر
٢٣	١٧٨	وعلي بن	وعلي ابن
٥	١٧٩	بن مقرن	ابن مقرن
١٥	١٧٩	القران	القرآن
٢١	١٧٩	سرفت الصلاه	سرقت الصلاه
٢	١٨٠	فأت	فأنت
٦	١٨٠	أن لم يقرأها	أنه لم يقرأها
١٢	١٨١	أن الرواية	أن رواية
٧	١٨٢	بعبد الله بن	بعبد الله ابن
٥	١٨٣	أنها أم القرآن	إنها أم القرآن
٧	١٨٣	إن المراد	أن المراد
١٩	١٨٤	يعلى بن مالك	يعلى بن مُمَلَّك
٤	١٨٦	سمره	سمرة
٦	١٨٦	سمره	سمرة
١٩	١٨٦	للتواتر	المتواتر
١٣	١٨٧	الخث	الغث
١٥	١٩٢	شرعينه	شرعية
١١	١٩٥	أو معقوله	أم معقوله
٧	١٩٩	سمُو	سِمْوٌ
١٠	١٩٩	وسِم	وسْم
٥	٢٠١	وَيَذَرُكَ وَآلِهَتُكَ	وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ
١٦	٢٠١	أدّاه	أداة
١٢	٢٠٢	وأما ناس فأصله أناس	وأماناس فليس أصله أناس
١٣	٢٠٣	لكنّ أنا	لكنْ أنا
١٢	٢٠٥	ثانيهما	ثانيها
١٣	٢٠٥	سواء كان توفيقا	سواء كان توقيفيًّا
٢٠	٢٠٥	ثالثهما	ثالثها
٧	٢١٠	أو رقيقا	أو دقيقا

تصويبات

« جواهر التفسير »

سطر	صفحة	خطأ	صواب
١٥	٢١٤	أم مختلفتان	أو مختلفتان
٨	٢١٩	فذلك	فداً لك
٧	٢٢٠	في اشتقاقه	في اشتقاق
٢١	٢٢٠	فيقال العالمون	جمع العاقل فيقال العالمون
٢١	٢٢١	أهلُه	اهْلَه
٢	٢٢٤	ورصيف	ورصف
١٩	٢٢٦	بأنها آية منه	بأنها آية منها
١	٢٣٥	أن يكون القهر فى الميلكيه أكثر منه فى المالكيه	أن يكون القهر في المالكيه أكثر منه في الملكيه
١٧	٢٣٨	واليوم لغة وقت طلوع الشمس	واليوم لغة من وقت طلوع الشمس
١	٢٤٢	يعلم الله عبادة	يعلم الله عباده
١٢	٢٤٢	من حيث أنّ أقصى	من حيث إنَّ أقصى
١٧	٢٤٣	لملأ القلب	لملء القلب
١٥	٢٤٥	الموردودى	المودودى
١٣	٢٤٦	معشسوقه	معشوقه
٣	٢٤٨	لا يمنع أن يطلق	لايمنع ذلك أن يطلق
١٨	٢٥٠	يؤزر	يوزر
٥	٢٥٦	مرقاه	مرقاة
٤	٢٥٩	ضهره	صهره
٨	٢٦٢	إن الإسلام	أن الإسلام
٥	٢٦٣	جنح إلى هذه	جنح إلى ذلك
١٥	٢٦٨	ضمن الإشاره	ضمن هذه الاشاره
١	٢٦٩	نظرا إلى العمل	نظرا إلى أن العمل
١٩	٢٧٠	عبد بن وحميد	عبد بن حميد
١	٢٧١	في تفسيرهما	في تفسيريهما
٧	٢٧٥	أكمل وجهه	أكمل وجوهه
١٧	٢٧٨	مما ذكرناه	بما ذكرناه
٢١	٢٨٧	ولا يهتمون فيه	ولا يهتمون فيها
٢	٣٠١	بن الحسن	ابن الحسن
١٦	٣٠١	واتبع الحافظ ذلك قولُه	واتبع الحافظ ذلك قولَه
٨	٣٠٢	صالح بن	صالح ابن
٦	٣١٠	على الفاتحه	للفاتحه
٧	٣١٠	جماعة الصحابه	جماعة من الصحابة
١٨	٣١٠	وابن الحكم	وابن عبد الحكم
١٩	٣١٠	وقال بعض سلف مشارقتنا	وقال به بعض سلف مشارقتنا
١٧	٣١١	عبادة بن	عبادة ابن
١٧	٣١٢	فيما يحكيه رب العالمين	فيما يحكيه عن رب العالمين
٣	٣١٣	بالقرأه	بالقراءه
١٨	٣١٣	المخزمى	المخرمى
٢٣	٣١٦	وعند قراءته	أو عند قراءته
٧	٣١٧	وآخر الفاتحه	وأَخَر الفاتحة
٥	٣١٩	التفسر لغز واصطلاحاً	التفسر لغة واصطلاحاً
١٣	٣١٩	العناية بتمحيض روايات التفسر	العناية بتمحيص روايات التفسر

طبع بمطابع النهضة
سلطنة عمان، تليفون: ٥٦٣١٠٤